سهيل ادريس

الحيّ اللاتيني



مؤلف معتمد وفق البرنامج الجديد للغة العربية
من لدن وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي
قطاع التربية الوطنية

دار الآداب
شركة النشر والتوزيع المدارس

الحي اللاتيني

سهيل إدريس

الحي اللاتيني

رواية

دار الآداب

شركة النشر والتوزيع المدارس

الحي اللاتيني

سهيل إدريس/روائي لبنانيّ

الطبعة الأولى عام 1953
الطبعة الرابعة عشرة عام 2006

شركة النشر والتوزيع المدارس
10، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء
الهاتف: 43 / 42 /022.26.67.41
022.22.15.34 / 022.22.25.22
الفاكس: 022.20.10.03
البريد الإلكتروني: almadariss@almadariss.com
الموقع على الوب: www.almadariss.com

دار الآداب
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 11-4123
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - (03)861632
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

تمهيد

لا، ما أنت بالحالم، وقد آن لك أن تصدِّق عينيك. أوَما تشعر باهتزاز الباخرة، وهي تشقّ هذه الأمواج، مبتعدةً بك عن الشاطئ، متَّجهة صوب تلك المدينة التي ما فتئتْ تمرّ في خيالك، خيالاً غامضًا كأنَّه المستحيل؟

لا، ليس هو بالحالم، فهذه أطياف أمّه وإخوته تضيع في الأبعاد، وما تلبث أن تبدو لعينيه أشباحًا نائية، كأنَّما هي رسمٌ اهتزّتْ به يد المصوّر، فخرج مضطرب الخطوط؛ وها هو المنديل يرتعش بين أصابعه في تلويحةٍ يريدها منذ دقائق أن تكون الأخيرة، فتعصاه يده، وتعصاه دمعته إذ يجهد في إمساكها.

ويميد المنديل بيده، والأطياف الحبيبة ما تنفكّ تبتعد، ويُفلت فجأة من بين أصابعه، فتتابعه عيناه بذهول، وهو يتهادى حتى يستقرّ على الماء.

وأحسّ برعشة في جسده، حين أرسل صدره تلك الزفرة؛ فقد خُيِّل إليه أنَّه تحرَّر من عبءٍ كان يُثقل نفسه، لعلّه هو الماضي؛ ماضيه، يسقط عن كاهله، ويضيع في النسيان.

وللمرَّة الأولى منذ بدأ يعي، شعر بقوّة هذه الإرادة التي تعصف بوجوده في أن يولد من جديد. إنَّه يريد أن ينسى حداثته وأصحابه، وبضعَ فتيات عَبَرْنَ حياته بغموض، ليبدأ من أوّل الطريق، إنسانًا جديدًا، يستلهم الحياة شخصيةً جديدة. صحيح أنَّ الدرب التي أمامه مظلمة موحشة، ولكنَّه سيشقّها، وسيحاول أن يزيل عند قدميه العقبات: حسبُه ذلك الجمود

الذي ملأ حياته بالروتين، وغشّى فكره بغشاوة ما يني الغبار يتكاثف عليها، فتفغم رائحتها أنفه، ويضيق بنفسه وبالناس.

ولكن ما الذي أبغيه في حياتي هذه الجديدة؟ لا، لا، تلك قضيَّة أخرى. الذي تريده الآن، هو أن تضع حدّاً لحياتك القديمة، فأيّ شأن هو شأنك في هذه الحياة، وأيَّة قيمة كانت لك في وطنك وقومك ومجتمعك؟

كان يستيقظ أحيانًا على نفسه، ويعي هويَّته، فيحاول أن يقوِّم ذاته في حساب الشخصيَّة الفرديَّة، ولكن يُعجزه، آخرَ الأمر، أن يرسم لنفسه صورة متميِّزة الأبعاد، واضحة المعالم. كان يتمثَّله «شيئًا» فارغًا يُعوزه الامتلاء والكثافة صَدفَةً جوفاء ملقاةً على رمل شاطئ، عودًا فارغًا من القشّ تتقاذفه، بلا هوادة، مياه نهر صاخب. وكان إذا حاول، في فترة وعيه تلك، أن يضع نفسه في موضعها في حياة مجتمعه، تفاقم شعوره بالتفاهة والفراغ: شيء لا قيمة له، بل لا شيء.

ومع ذلك، فإنَّه يكاد الآن لا يفهم ما يريد. إنَّ قصارى ما يشعر به هو أنَّه يودّ أن يتنفَّس هواءً جديدًا، أن تمتلئ الصَدَفة بمعنًى من معاني الحياة، أن يقاوم عودُ القشّ تيّار المياه الصاخب. شيء من هذا القبيل.. يريد أن.. بل هو لا يدري ما يريد!

وغشيته موجة رهبة وخشية، وغرق في جوّ من الصمت. ها أنا الآن وحدي، وسط هذا البحر الذي اختفت شطآنه. فإلى أين تُراني أسير، وأين أضع قدمي بعدُ؟ كنت مطمئنًا في جوِّي ذلك الوادع، فلماذا... أيّ ساذج أنت! أكنت تعي ما أنت حتى تشعر بالاطمئنان أو بالقلق؟

ولكن ما بالك عالقًا بعدُ بذكرى الأمس؟ أما شعرتَ منذ هنيهة أنَّ ماضيك قد سقط عن كاهلك، ليضيع في النسيان، كما سقط ذلك المنديل، ليضيع في الأمواج؟

القسم الأول

ـ ١ ـ

الحيّ اللاتيني.

كانت صورتُه المتخيَّلة تملأ أفكاره ومشاعره، فتضرب دون كل ما سواها غشاوة كثيفة. لقد مرّ بشوارع مرسيليا، ولكنَّه لم يَرَها. وقضى فيها يومه كاملاً، ولكنَّه لم يُحسّها. وأنفق أربع عشرة ساعة في القطار، أورثت في صدره ضيقًا شديدًا، ولكنَّه نسي كلّ شيء إذ دخل القطار «محطة ليون». عمّا قليل، سيكون في الحيّ اللاتيني. سيتحقّق الحلم المستحيل. بعد ردح قصير، ستبدأ الحياة التي ما انفكّ يعيشها في الخيال، منذ أن تهيّأت له أسباب السفر إلى باريس.

ـ إنَّكم الآن في الحيّ اللاتيني.

فعرته انتفاضة لصوت سائق السيّارة التي أقلّته ورفيقيه من «محطة ليون». أنحن حقًّا في الحيّ؟ أيّ فرق إذن؟ حين كان يُذكر أمامه اسم «الحي اللاتيني» كانت تنفر إلى مخيَّلته صور حيّ من أحياء بيروت القديمة، تقوم فيه بيوت متواضعة، أغلب الظنّ أنّها من الخشب، ما دام ساكنوها طلاّبًا فقراء قَدموا إلى العاصمة الفرنسيَّة من مختلف أنحاء الدنيا طلبًا للعلم والمعرفة. أما الآن، فليس هو شعور الاطمئنان الذي يغمره إذ تمرّ بمخيّلته هذه الصور التي اخترعها خياله. شوارع فسيحة ليس في بلاده، ولا في

الشرق كلّه، مثلها جمالاً ونظافة وانتظامًا، وأبنية فخمة مرتفعة كأحدث الأبنية الكبرى التي بدأت منذ حين تنتصب في الشوارع الرئيسيَّة من عاصمة وطنه. ينبغي أن تكون هذه بلادًا أسطوريَّة العظمة، حتى يستحقّ الطلاّب فيها حيًا كالحيّ اللاتيني.

وإذن، فإنَّ عليه أن ينظِّم مخيّلته من جديد، أن يطبع الصور بهذا الواقع الذي يُفسد عليه عالمًا كان قد رتَّب شؤونه واطمأنَّ إليه. تلك هي غلطتك الكبرى! حسّك هذا الذي يريد أن يتنبّأ بكلّ شيء، وأن يأخذ العدّة لكلّ أمر. دَع شؤونك مرّة تجري في أعنّة المفاجأة، وحطّم هذه القوانين الصارمة التي تحيط بها نفسك دون ما جدوى.

ـ قلتم «رو ديزيكول» رقم ٤٣؟

فسارع صبحي يجيبه:

ـ تمامًا.

ولكن لماذا قَدِم إلى باريس في الحقّ؟ أفرارًا من..

الخطيئة نفسها. أَخْرِسْ هذا الفضول! إنَّك الآن في باريس، حسْبُك هذا. أتيتَ فلا تَسَلْ لِمَ أتيت. عِشْ قليلاً دون ما تفكير وتدبير. عِشْ بوهيميًا. لعلّك تدرك فيما بعد السبب العميق لمجيئك، ربما تدرك ذلك إذ تعود إلى بلادك.

ولكنّ ذلك يُعْجزني. إنَّني لا أستطيع. إنَّ أغلالاً ثقيلة تربطني به، ذلك الماضي، وتلك الأجواء. أعرف ذلك. وستتعذّب لتلقي دونها حجابًا يسترها. ينبغي أن تتعذّب، أن تصهرك المِحَن إذا شئت أن يكون لحياتك هذه الجديدة معنى... وإلاّ فَلِمَ لم تَبْقَ هناك؟ أنت على يقين من أنَّ هذه السنوات الأخيرة كانت في حياتك إخفاقًا ذريعًا، وأنَّ هذا الإخفاق هو الذي أقنعك بأنَّه ينبغي لك أن تبلو الحياة وتجرّبها في أعمق مجالاتها. أفيكون إطار الحياة في شرقك ذاك أضيق من أن تُجدي فيه هذه التجارب؟

وأحسّ بيدٍ تهزّه، وبصوت رفيقه الآخر عدنان، يقول له:

ـ وصلنا إلى ٤٣. هذا هو فندق «كلود برنار».

وتوقّفت السيارة، فترجّلوا منها لينقلوا إلى باحة الفندق محافظهم وصناديقهم الحبلى بالأطعمة والحلويات الشرقيَّة. وحين ضمَّته وصبحي غرفتهُما في الطابق الثالث، ارتمى كلّ منهما على سريره، وهو يلهث إعياءً. ولكنَّه رأى أطياف الفرحة تجول في عينيْ صديقه. وأحسّ بدبيب أقدام هذه الأطياف في عينيه بالذات. صحيح أنَّه استشعر الوحشة من هذه الجدران المسوّدة التي تطلّ على الشوارع. ولكنَّ شعور السعادة الصارخة كان أقوى من أن تثبت له هذه الأحاسيس الغامضة الحزينة. ونهض فغسل وجهه، وكان يهمّ بخلع ثيابه حين رأى صبحي ينتفض واقفًا ويبتدره كأنَّه مذعور:

ـ ماذا تعمل؟ الظاهر أنَّ بودّك أن تنام؟

ـ طبعًا... ألستما تعبيْن مثلي؟ ثم إنَّنا لن نخرج إلى السهرة، لاسيَّما وأنَّها أول ليلة..

قال صبحي هادرًا:

ـ بل لأنَّها أول ليلة بالذات، نودّ أن نسهر!

ثم أقبل عليه يتهدَّده بقبضة يده:

ـ هذا الخمول سأخنقه بكلتا يديّ! لا راحة بعد اليوم... أتظنّ أنَّك أتيت إلى باريس لتنام؟ هذا عارٌ عليك. أراك بدأت بخلع ثيابك؟ لا بأس، تابعْ عملك، ولكن البس بعد ذلك ثوبًا نظيفًا أنيقًا يليق بسهرة باريسيَّة و...

فقاطعه يقول:

ـ ولكن، كن عاقلاً يا صبحي! إنَّنا تعبون. ثم ألا ترى هذا المطر الهاطل؟

فتمهّل صبحي يقول كجدّ عجوز يخاطب حفيده ببطء ووثوق:

- سنسهر هذه الليلة لسببين: الأول أنَّها أول ليلة، والثاني أنَّ المطر هاطل!

وفي تلك اللحظة دخل عليهما عدنان، وقد سرّح شعره وتعطّر وارتدى ثوبًا أنيقًا، وقال لهما بلهجة هادئة:

- ألم تنتهيا بعد؟ الظاهر أنَّكما لا تزالان تحلمان ببيروت والشام؟

وأثار أعصابه حقًا أن تنطلق نفسا صديقيه هذا الانطلاق، فيما هو يُحسّ الانقباض، وغاظه أكثر أنَّ عدنان لم ينسلخ عن طبيعته الباردة في مواجهة الأمور والأحداث. كم كان يودّ لو يجرؤ يومًا عليه فيمسك به من كتفه، ويشرع في لكمه، في وجهه وعينيه وصدره، عساه يفيق من هذه البرودة المثلوجة التي يقضي في أمواجها حياته، بينا هو يعيش في لفحات اللهيب. ومع ذلك، أكانت هذه الطبيعة تبغّض إليه عدنان؟ إنَّها لتحبّبه إليه في الواقع، وتدنيه منه، كأنَّ في اختلاف طبيعتهما دافعًا إلى التعاطف والمحبّة.

وظلّ صديقاه يحثّانه على نفض الخمول عن كتفيه، حتى تمكّن مرحهما من أن يُعْديه. وإن هو إلاّ أن ارتدى ثوبه الشتويّ، وربط عقدةً اختارها له صبحي، حتى غادروا الفندق، سعداء، غير آبهين للأمطار، كثلاثة أطفال لا يهمّهم أن تسقط الثلوج وتلطّخ الأوحال أقدامهم، ما دام اليوم يوم عيد.

ولولا أنَّ صبحي وعدنان كانا إلى جانبيه، لشعر بالخوف والتهيّب من أن ينتقل كذلك في أرجاء الحيّ اللاتيني. كان يحسّ إحساسًا عميقًا بأنَّهما مثل أخوين له، يحيطانه بالرعاية ويردّان عنه كل أذى. وقد استسلم لهما يقودانه حيث كانت أقدامهما تقودهما، وشعر بأنَّ حبّه لهما يتفاقم ويعمق. لقد أنس إليهما منذ تمّ تعارفهم على ظهر الباخرة، فإذا هم

متقاربون في السنّ. وإذا في تفكيرهما مشابهٌ من تفكيره. وصحيح أنَّهما قَدِما العاصمة الفرنسيَّة ليتخصَّصا في غير الفرع الذي أقبل يلتحق به، فهما محاميان يودَّان أن يُعدّا دكتوراه الحقوق، بينما هو يُعدّ دكتوراه الآداب، ولكنَّهما كانا ينعمان بنصيب وافر من التذوُّق الأدبي، فكان يسكن إلى هذا القدر المشترك من الثقافة يشدّ أحدهم إلى الآخر.

ودلفوا - أوّل ما دلفوا - إلى مقهى (ديبون) عند ملتقى «رو ديزيكول» و«بولفار سان ميشال». «ديبون» هذا الذي سمعوا عنه الكثير من رفاق لهم مكثوا في باريس ردحًا من الزمن: ملتقى المتحرّرين أبعد حدود التحرّر من فتيان الحيّ اللاتيني وفتياته.

وغمرهم، كلفحة رياح باردة، ضجيج الموسيقى وصخب الشبيبة الضاحكة الهازجة المثرثرة، المنتشرة في أرجاء المقهى، جلوسًا إلى الطاولات أمام كؤوس الخمر، أو وقوفًا عند النوافذ المغلقة. وكان فيهم من يرود الممرّات بين المقاعد، يتحدَّث حديثًا خاطفًا إلى الجالسين، أو يلقي نكتة عابرة تنفجر لها ضحكات سافرة تزيد في صخب الأنغام المجنونة المنبعثة من مكبّر موصول بغرامافون. شبّانٌ يوحي مظهرهم بكلّ شيء إلاّ بالوقار، وفتيات تلمع عيونهنّ ببريق الذكاء والخفَّة والطيش، ويخيَّل للناظر أنَّهنَّ يعشن ليعطين ما يُطلب منهنَّ.

- ثلاثة أنصاف...

كأنَّما قالها عدنان ليتحرَّر من التهيّب الذي عراه، ويحرِّرهما. لو أنَّه كان وحده لقفل خارجًا قبل أن تخطو قدمه خطوة ثانية في المقهى. ولو كان صبحي وحده.. ولو كان عدنان وحده.. إنَّما استمدَّ كلّ منهم الجرأة على مقاومة الجوّ الجديد من قرب صاحبيه. ولكن كيف لهم بأن يمزِّقوا هذا الحجاب الكثيف من الصمت الذي ران على شفاههم؟ أيّ شيء يوفّر هذه البهجة الجذلة التي تنفر من عيون الشبّان والفتيات حولهم؟

وراحوا يُغرقون صمتهم في البيرة، في كؤوس الأنصاف الثلاثة. كانوا بحاجة إلى ضحكة ترنّ في آذانهم فتشيع في جوّهم المرح والحبور وتُفلت ألسنتهم من عقالها. كانوا بحاجة إلى إحدى هاتيك الفتيات اللواتي...

ولحظ إلى شفتيّ صبحي، فإذا عليهما بسمة.. بسمة لإحدى هاتيك الفتيات: كانت واقفة عند طاولة، غير بعيدة عنهم، تحدّث زنجيًا حديثًا ليس عليه طابع الاهتمام. فقط كانت تجيل طرفها في أرجاء المقهى، كأنَّما تبحث عن أحد. ولا بدّ أنَّ بصرها التقى مصادفة بنظرة صبحي المتلهّفة، فوُلدت من اللقاء بسمةٌ على شفتيه، ولكن ما بالها تصرف بصرها بسرعة عن صبحي، بل مالها توليه ظهرها في غير ما اكتراث؟

وقد عاد، هو صبحي، فغرّق بصره في كأسه، كأنَّما ليخفي خيبته. وطال بهم الجلوس، دون أن يتبادلوا إلاَّ عبارات حائلة ما كان لها أن تنقذهم من جمودهم. أهو حسّ الطهارة الشرقية الكامن في أعماقهم يُصاب بأوّل طعنة؟ أم أنَّها الخيبة التي تخلِّفها البهجة المبتسرة إذا ما تجاوزت حدودها من الأحلام؟

وحين قال صبحي إنَّه بدأ يشعر بالتعب، وحين قال عدنان إنَّه بدأ يشعر بالنعاس، أحسّ هو ببعض الشماتة. ومع ذلك، فقد كان في تلك المبادرة إنقاذ لهم جميعًا. وخرجوا يسيرون الهوينا في «رو ديزيكول».

وإذ بلغوا باب فندقهم، همس لصديقيه:

ـ أنظرا هناك، مقابل الفندق، عند زاوية الباب الكبير.

شبحان متعانقان، يتحرَّكان بين لحظة ولحظة فينفصلان، ثم يلتصقان دون نأمة. ظلاّن أسودان ينصهران ظلاً واحدًا بين لحظة ولحظة.

وتبادلوا نظرات باسمة. ثم دخلوا الفندق على مهل. ودون أن ينبسوا بكلمة، دخل هو وصبحي غرفتهما، ودخل عدنان غرفته. نسي كل منهم أن يتمنّى للآخر ليلة هادئة.

لم يستطع أن ينام، وأغمض عينيه، فلم يستطع أن ينام. ونهض من سريره وهو يحرص على ألاّ يُحدث ضجّة توقظ صبحي.

- ألم تنم بعد؟

وانتفض للعبارة التي نطق بها من كان يظنّ أنَّه نائم. وشعر ببعض الحنق. وزاد غيظه أنَّ صبحي أردف يقول:

- كنت تقول إنَّك تَعِب!

وكان قد أعدّ جوابه، وحمّله جماع غيظه المكبوت:

- بل أنت الذي قلت ذلك، واقترحت أن تقطع سهرتنا..

فذاب حنقه إذ سمع صبحي يقول بصوت هادئ، عميق:

- صحيح.. ولكنّي لم أستطع أن أنام. لا أدري ماذا يقلقني!

وتوجَّه هو إلى النافذة دون أن يهتمّ بالإجابة، ولكنَّه ما لبث أن شعر بصديقه واقفًا إلى جانبه يحدِّق مثله في زاوية الباب الكبير.

- ٢ -

إنَّك منذ اليوم ستحاول أن تقبس مثالهم. أترى حيويَّتهم هذه الجديدة كيف تنعش وجودهم جميعًا، وتطلّ من أعينهم ضاحكة؟ لقد كنت تعرف رصانة «كامل» في بيروت، وتذكر حرصه الشديد على اجتناب الناس والانطواء على النفس، ولم تَنْسَ بعدُ أنَّك كنت تُنحي باللائمة على «زهير» وتنعي عليه هذا الحزن الدائم الذي كان يطبع حياته. و«أسعد»، ألم تسمع هذه الضحكات المجلجلة التي كان يُرسلها، وهو الذي كانت الصرامة دأبه في حياته العمليَّة يوم كان له مكتب مقاولات في العاصمة؟

كأنَّما هم ألقوا أثقال الرصانة التي كانت تُرهق أكتافهم في بلادهم، وشعروا شعورًا عميقًا بأنَّهم مدعوون إلى أن يسوقوا في باريس حياة منطلقةً لا يحدّ من حريَّتها قيد، فاستجابوا لهذه الدعوة بكلّ ذرّة من ذرّات وجودهم، وخلّفوا وراءهم أغلال ماضيهم.

مثلهم ينبغي أن تكون. ولا مفرّ لك من ذلك، إنْ شئت أن تنسجم وهذه الحياة، وتتساوق مع جوّ باريس هذا، جوّ الشباب الصاخب، الزاخر بالحميّا والمرح. وليس لك خاصةً أن ترفض دعوة «كامل» إلى سهرة هذه الليلة في منزله. صحيحٌ أنّك ستُلقى في وسط غريب لم تألفه، ولكنَّك لن تلبث طويلاً حتى تنصهر في بوتقته. على أنَّ أمامك شرطًا واحدًا لن يكلّفك كبير جهد، هو أن تخنق ذلك التهيّب البليد الذي تتعثّر به قدماك في كلّ خطوة، كأنَّما أنت طفل في سنّيه الأولى.

وتردّد الطفل طويلاً قبل أن يجرؤ على طرق الباب، حين بلغ منزل «كامل». وأوشك التردُّد أن يتحوَّل إلى قرار بالعودة، ساعة سمع صوت موسيقى وضَحِكَ فتيات. وطرقت أصابعه الباب طرقًا خفيفًا واهنًا، كأنَّما كان يقصد ألاّ يسمعه أحد. خيرٌ لي إذن أن أعود. سأرجع إلى غرفتي، فأقرأ في كتاب، أو أخرج إلى الشارع فأضرب فيه على غير هدى.

وكاد ينفتل حين رأى الباب يُفتح ويُطلّ منه وجه كامل.

- أوه، هذا أنت؟ ما أدقّ مواعيدك! إنَّنا نهمّ بأن نجلس للعشاء.

وجذبه من ذراعه، واقتاده مسرعًا إلى «الصالون» فتبعه متباطئًا ثقيل الخطو، كأنَّما ينتعل حذاءً من حديد.

- أقدِّم لكم صديقي الشاعر اللبناني الذي كنت أحدِّثكم عنه منذ لحظات...

لتحلّ عليك لعنة اللّه أيُّها الشقيّ! أكان من الضروري يا كامل أن نحدِّثهم عن شعري؟ اِفرض أنَّ إحدى هؤلاء الفتيات رغبت إليه أن يترجم قصيدة من قصائده إلى الفرنسيَّة، فهل يكون هذا في طوْقه؟ كان يجب أن...

- ولكن... اقترب يا عزيزي، وصافحْ كلاً منهم، فنحن هنا أسرة، النصف الأفضل أولاً: سيمون، جانيت، سوزان، هيلين و... زينة. إنَّنا نسمِّيها «زينة» لأنَّها تشبه البدويات، ألا ترى ذلك؟ ولعلّك تعرف بعد ذلك هذه الأنصاف الخشنة؟ صالح من بيروت، وسعيد من دمشق، وأحمد من العراق، وربيع من تونس... برج بابل عربي!

كان سعيد أول من تقدّم منه فشدّ على يده مرحّبًا، وتشجّع هو، فراح يصافح كافّة أفراد الأسرة، وهو يتمتم «تشرّفنا». وأحسّ أنَّ «زينة» تضغط على يده وهي تصافحه، فكأنَّما تودّ أن تستبقيها في يدها، أو لعلّه - هو - لا يعرف أن يصافح بحرارة. وتراجع يبحث عن كرسيّ، فهتف به كامل:

ـ لا، لا جلوس هنا، بل إلى المائدة ـ المتواضعة ـ فورًا! إنَّ بوسعي الآن أن ألتهم جَمَلاً، ولكن ليس هناك مع الأسف، إلاّ قطعة صغيرة، بحجم الأذن، من لحم البقر!

واتَّجه الجميع إلى القاعة الأخرى، فجلسوا إلى طاولة صغيرة قامت في وسطها، بينما انتحى أحد جانبيها سرير متواضع، والجانب الآخر خزانة ثياب صغيرة.

وأرسل أنفاسه على مهل. إنّ كلاً منهم الآن معنيّ بطعامه، ولكنَّه لا يقصّر في الضحك والتفكُّه. ما أشدّ نهمهم إلى الطعام، إلى الضحك، إلى الحياة كلها! وأخذ ينقل نظره خفيةً بين الفتيات: «سيمون» وحدها، كانت الجذّابة فيهنّ. أما سوزان وجانيت وهيلين، فكنّ فقط جميلات. وأما «زينة»، هذه التي يدعونها «زينة»، فلا يدري.. بلى، إنّ في نظراتها تحديقًا عميقًا يبعث على الخوف، وعلى شفتيها الريّانتين شهوة تسيل. ولكن كيف أتيح لهم أن يجتمعوا كلّهم هنا؟ أية جرأة في إهاب كلّ من هاتيك الفتيات أن تسعى إلى لقاء حبيبها في غرفة صغيرة أمام الجميع؟! كفاك هذرًا! أنت تنسى مرة أخرى أنَّك في باريس. أخرِجْها من نفسك، بيروتَكَ هذه. أخرجها، فاقتلها ثم ادفنها. أما باريس، فواجِهْها كما هي، وتأمّلْها مليًا، ولن تلبث هي نفسها أن تتسلّل إلى قلبك، فتعيش فيه.

والآن، ينبغي لك أن تقول شيئًا. لقد قال لهم صالح إنَّك شاعر، وانتهى الأمر. فمن يدري: لعلَّ سوزان أو جانيت تقول لنفسها هذه اللحظة: «نعم شاعر، ولكنَّه أبكم».

ـ إذن، ما هو الاسم الحقيقي لـ «زينة»؟

ضحكت زينة وأجابت على الفور: ـ كليوباطرة!

وانفجر الجميع بالضحك، وشعر بالدم يحرق وجهه. أتراهم يهزأون بي، ولكن ما الذي قلته؟ أكان خيرًا لي أن أظلّ على صمتي، أن أظلّ شاعرًا أبكم؟

- عفوًا، إنَّني قصدت المزاح. اسمي مارغريت. أليس هو اسمًا جميلاً؟ ألا يمكن أن يوحي إليك بشيء؟

فضحك وأجاب ببساطة:

- وكيف؟ إنَّه يوحي إليّ بديوان شعر من مئتي صفحة!

وأدهشه أن تصدي القاعة بالقهقهات. لقد أنقذتَ نفسك. إنَّه الشباب الذي لا همّ له، ولا يحمل في صدره أية أوشاب. ولكن ألا تلاحظ أنَّهم شربوا ثلاث زجاجات من الخمر، وأنت لمّا تفرغ كأسك الأولى؟

وانبعثت فجأة من «الصالون» نغمات تانغو حالم، فألقى سعيد ما بيده من طعام، وغمز سوزان بعينه. وما لبث أحمد أن جذب هيلين بقوة واللقمة تملأ فمه. وقال صالح:

- إنَّنا نفضّل الطعام على الرقص، أليس كذلك يا جانيت؟

- بلى يا حبيبي. أقصد أنَّنا لن ننهض إلى الرقص، قبل أن تفرغ المائدة من الطعام!

وربيع وحده، ظلّ يمضغ لقمته بهدوء، وطيف بسمة يراود شفتيه. ولكن أتظلُّ أنت على وجلك؟ أنظر إليها: إنَّها تودّ أن تراقصك. لا، لا تخشَ شيئًا، ولا تكن بليدًا. إنَّه لا مجال للغيرة هنا. إنَّ جميع الشبان يراقصون جميع الفتيات. ولكنّها قد ترفض دعوتي! ثم إنَّها...

- ألا يحبّ الشاعر الرقص؟

وانتفض في مجلسه، ثم ابتسم، ثم نهض دون ما تريّث:

- بلى وإن كان لا يحسنه كثيرًا. ويسعده أن يراقص زينة، يقصد كليوباطرة، يقصد مرغريت!

ونهضت تشعّ على شفتيها الممتلئتين بسمةٌ رائقة، وهي تنظر إلى كامل. وقال كامل:

ـ ما دام ضيفنا العزيز لا يحسن الرقص كثيرًا، فارقصي معه «البيبوب» يا مرغريت!

ولم ينتبه إلى السخرية الصغيرة، لأنَّه كان يفكِّر: إذن مرغريت هي صاحبة كامل؟ لا ريب في أنَّه ينعم بلذائذ جنّتها الناضجة، إنَّه جدير حقًا بأن يُحسَد. هذا الجسد، ذانك النهدان...

وأحسّ بهما، نهديها، يرتعشان على صدره، فيما هو يشدّها إليه. وشعر بجسدها يرتخي بين ذراعيه، وبفمها قريبًا من فمه. وشمَّ رائحة الخمر تنبعث قويَّة من فمها. وشمَّ رائحة العرق تنبعث قويّة من جسمها. امرأة بين ذراعيه، ملء ذراعيه، ملء كيانه. امرأة تُشْتَهى. امرأة تُقبِّل شفتاها بجنون.

واصطكّت ركبتاه، وفقدت خطواته إيقاع الرقص، فاضطربت وتعثّرت. وشعر بأنَّ زينة تتحلَّل فجأة من ضمَّته وهي تلتفت ناحية كامل، في الغرفة الأخرى التي كان لا يزال يأكل فيها مع صحبه. وارتمت على مقعد قريب، وهي ما تنفكّ تنظر إليه. ورأى في عينيها بريقًا ما أعجبه! بريقًا لم يرَ ـ حياته ـ مثله في عينيْ امرأة.

وشاء أن يعود إلى غرفة الطعام، لكي يتحرّك من مكانه فقط، ولكنَّه رآهم يخرجون إلى قاعة الرقص، من دون كامل الذي ظلّ يجمع الأواني والصحون. وها هم جميعًا يرقصون. ونظر إلى زينة لا يدري لماذا، فألفاها تنهض متثاقلة، وتدخل غرفة الطعام فتغلق خلفها الباب. وسمع بعد لحظات صرير القفل.

ونقل بصره بين الراقصين، فأحسّ بأنَّ جوًّا حميمًا يغمرهم ويغرقهم في صمت طافح بالحنين. ولاحظ أنَّ سيمون تمنح «ربيع» شفتيها بنهم، بينما توقّف أحمد وهيلين في وسط الحلبة وقد كفَّا عن الرقص، فالتصق جسماهما وغرقا في قبلة لا تنتهي. أما سعيد فكان يوسّد سوزان ذراعه،

وقد استلقيا على ديوان في زاوية القاعة، فانكشف ثوب فتاته عن ساقيها العاجيَّتين.

وانطفأ النور الكهربائي الباهر، وأضيء مصباح شاحب النور أحمر اللون. ثم كفّت الموسيقى، فساد صمت طويل، وكأنْ لم يكن ثمة إنسان، لولا ضحكات مكبوتة، وتنهّدات متقطِّعة، وأصوات لثمات يبلِّلها الرضاب. حبيبي. حبيبتي.

وانسلّ سريعًا خفيف الخطو، كأنَّما ينتعل حذاءً من حرير. حتّى إذا بلغ الباب، شقّه على مهل، ثم ردَّه خلفه، دون أن يُحكِم إقفاله، وابتلعته الطريق.

لا، ما أشدّ ما أكره هذا الارتجال! إنَّني أحب أن أتنبّأ الأمور لأعدّ لها عدّتها، وأتخيّل كيف يمكن أن تجري. بذلك وحده أتفادى من الخيبة، وأفلت من عواقب المفاجآت. أيّ شيء كنت أرجو أن أصيبه في تلك السهرة، هذه التي يطلقون عليها اسم «سوربريز بارتي»؟ خمس فتيات لخمسة شبان، حسبتني بينهم كاليتيم، وأحسستني دخيلاً ثقيل الظلّ. وما الذي نلتُه بعد ذلك؟ أجساد. نهود. شفاه. رضاب. حبيبي. حبيبتي.

وأطرق برأسه، ومشى في طريقه، وفي حلقه غصّة. ومال إلى مقهى، فشرب زجاجة من عصير الليمون، وظلّت في حلقه الغصّة. وألفى نفسه بعد حين في «رو ديزيكول» دون أن يفهم تمامًا كيف أفضى إليه. ولكن ماذا؟ أتعود إلى غرفتك، ولما تتجاوز الساعة العاشرة والنصف؟ وأيّ شيء تُرى ستفعل في غرفتك؟ لقد خرج صديقاك صبحي وعدنان سعيًا وراء المغامرة. أفتنوي أن تبقى وحدك؟ إنَّه لكذلك. أعرف أنّ الساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف، وأعرف أنّ صبحي وعدنان غادرا الفندق. سأعود إلى غرفتي وأظلّ وحدي. إنّ الذين يتّهمونك بالعناد الشديد ليسوا على خطأ كبير.

وارتمى في غرفته على الكرسيّ المريح، ثم نهض وخلع ثيابه ببطء، وغسل وجهه، وارتدى منامته واستلقى على سريره، وقد شبك ذراعيه تحت رأسه.

أتحسب أنَّها هي التي ستُقبل للبحث عنك؟ أتظنّ أنّها هي التي ستدنو منك فتبتسم لك، ثم تنعطف نحوك وتهمس في أذنك: «أنا التي تبحث عنها... تعالى أحبّني!»

تبحث عنها.. عن المرأة.. تلك هي الحقيقة التي تنساها.. بل تتجاهلها. لقد أتيت إلى باريس من أجلها. والآن، أرأيت أنَّك كنت مخدوعًا عن نفسك، ساعة كنت تتصوَّر أنهنَّ كثيرات، هنا، وأنَّه يكفيك أن تسير في الطريق، ليتهافتن عليك، ويحدِّثنك حديث الهوى؟

ونهض من سريره ثائر الأعصاب. نقطة الماء. نقطة الماء هذه التي تسقط في المغسلة تثير حنقه بصوتها الرتيب. إنَّها تسقط كل عشرين ثانية تقريبًا. وكلّما سقطت كان لصوتها نقرة تُحدث في فكره ثغرة جديدة تقطع سلسلة أفكاره. وشدّ الصنبور شدًا محكمًا. حتى إذا تيقّن من انقطاع النقطة، عاد فاستلقى على سريره. طبعًا، إنَّ بوسعه الآن أن يفكِّر بهدوء أو ينام براحة. أجل، ينبغي لك أن تطلبها، أن تنشدها، أن تسعى في إثرها. إنَّها هي، في بيروت وباريس، في جميع أنحاء الدنيا. لقد خدعوك حين قالوا لك إنَّ...

وصكّت سمعه فجأة دقاتُ ساعة قريبة لا بدّ أنَّها ساعة «الدائرة الخامسة» تجاه «البانتيون». ولم يكن قد انتهى من عدِّ دقاتها، حين بدأت ساعة أخرى، لعلّها ساعة السوربون، تدقّ دقات أقوى وأشدّ عزمًا. واختلط عليه الأمر، وكفّ عن العدّ حتى انتهت الدقّات. وفي أصداء رنينها، سمع دقّات بطيئة بعيدة، ثقيلة، كأنَّها خطوات عجوز، تتناهى إلى سمعه، فقال إنَّها ساعة كنيسة «نوتردام». وحين تلاشت الأصداء، أخذه العجب من أنَّه

لم يتنبّه قبل الآن إلى هذه الساعات الثلاث. أفكانت معطّلة أم أنَّ نفسه كانت، قبل هذه الليلة، مكتظّة بالأصوات؟

وجعل ينتظر دقّات الساعات بعد ربع ساعة حتى إذا سمعها، راح يترقّب دقّاتها مُؤذنة بالنصف بعد الحادية عشرة. انفرطت سلسلة الأفكار جميعًا، ولا سبيل إلى نظمها من جديد.

ودخل صبحي الغرفة قبيل الثانية عشرة.

ـ ألا تزال مستيقظًا؟

ـ كنت على وشك أن أنام فأيقظني دخولك.

ـ ألا تودّ أن أقصّ عليك مغامرتنا اللذيذة الليلة؟

ـ أرجوك يا عزيزي. أرجئ ذلك إلى الغد. إنَّ النعاس يقتلني. ورأى صديقه يخلع ملابسه، ويرتدي منامته على عجل، ثم يستلقي على سريره، وهو يزفر زفرة طويلة.

وانفجرت الساعات الثلاث تدقّ الثانية عشرة.

ـ أسمعت يا صبحي هذه الساعات الثلاث؟

ولكن صبحي لم يجب. لقد نام. لا بدّ أنّه التقى بها. وجدها. هي.. المرأة.

وتقلّب في فراشه، وعزم بدوره عزمًا قويًا على النوم.

ولكنَّه، بعد لحظات، فاجأ نفسه وهو يترقّب أن تدقّ الساعات الثلاث، الربعَ بعد الثانية عشرة.

- ٣ -

ولكن لماذا؟ لماذا؟ إنَّه لا يفهم السبب: أهي خدعة أم شفقة؟

حين غادر فندقه ليلة أمس، متَّجهًا إلى سينما «البانتيون» في الحيّ اللاتيني لم تكن الرغبة الملحّة في رؤية الفيلم هي التي تدفعه. ماذا إذن؟ تلتمس العزاء والتفريج؟ تودّ أن تنسى هذه الخيبة التي تملأ نفسك الفارغة بالمرارة؟ أسبوع طويل ينقضي، منذ قدِمتَ إلى باريس، لم تَلْقَ فيه إلاّ الإخفاق إزاء المرأة. أية امرأة: أسبوع طويل ينقضي، وفي جسدك نار تلتهب، وفي مخيّلتك ألف صورة وصورة لنساء عاريات، متمدِّدات على السرير، يلسعنَ فكرك وجسمك بألف لسان من نار. لا، لا تحاول أن تحتجّ أو تنكر. أجل شرقك ذلك، لم يُغرِكَ بالهرب منه سوى خيال المرأة الغربيّة، سوى اختفاء المرأة الشرقية في حياتك، إلاّ أن تُطلّ في بسمة لا تزيد الحرمان إلاّ حرمانًا، أو أن تشعرك بوجودها بلمسةٍ تائهة، خائفة، بعيدة،تملأ ذاتك بمئة عقدة، وتميت فيك ثقتك برجولتك، أو أن تسعى أنت إليها حين تشعر تارة بالغربة الروحية مع امرأة لا تعطيك إلاّ جسدًا فيه برودة الثلج، وطورًا بالاشمئزاز والغثيان يتنافس في خلقهما عشرة أسباب على الأقل... هكذا عرفت المرأة في شرقك، فعرفت الخوف والحرمان والكبت والشذوذ والانطواء والخيال المريض. عرفت الخيال على أيّ حال، فكان لك فيه منجًى من نفسك وجوِّك ومحيطك ومجتمعك. وقد أمسك

هذا الخيال بذهنك، فقاده إلى البعيد البعيد الذي خلقَتْ إطارَه في وجدانك فصولٌ من الكتب، أو من مغامرات صديق..

وأصبحتَ يومًا، فإذا كيانك كلّه ينزع إلى تقريب هذا البعيد، أو الانتقال إليه على وجه التدقيق. وها أنت اليوم عائش فيه، هذا البعيد، الذي أضحى قريبًا حميمًا بين يديك، فماذا أجداك العيشُ فيه؟ لقد هربت من جراحاتك تلك في دنياك الشرقية، فما الذي أصبته من الهرب إلى هذه الدنيا الغربيّة؟ جراحات أشدّ إيلامًا وأنضح بالدم. ليس هنا من امرأة. ليست هنا المرأة التي حلمت بها. ليس إلاّ صحراء آلم من صحراء شرقك.

ولكن رويدك. ولا تتعجّل الحكم. الأرجح أنّك ما تفتأ تعيش في خيالك، وإن كان الواقع بين يديك. إنَّك ما تزال مشدودًا إلى أوهامك.

وإذن، فقد كان موقنًا حين جاز عتبة الفندق ذلك المساء، أنَّ السينما ستنسيه طوال ساعات هذه الخيبةَ التي تنبع من عينيه سهومًا وشرودًا، وستُميتُ هذه الشياطين التي تطلّ من جميع منافذ نفسه، تبحثُ وتَشتمّ وتسعى: أين المرأة، أين رائحتها المحيية؟!

ولم يتردَّد طويلاً وهو يتطلّع إلى لافتة السينما: «غدًا تبدأ الحياة». أية فكرة! أترى الماضي، ماضيه، كان كلّه في أرض موات؟ وحتى هذا الأسبوع الباريسي، أينطوي الآن، ليفترّ غدًا عن الحياة المشرقة الخصبة؟ وقرأ أسماء ممثّلي الفيلم، فأخذه الإعجاب والعجب: جان بول سارتر، اندريه جيد، لاغاش، بيكاسو، جان روستان، لو كوربوزييه. أعلام من أدباء فرنسا وعلمائها وفنّانيها يجتمعون في فيلم واحد! أيّ نوع تراه يكون في الأفلام؟ لعلّه قد أُخرج للفئة المثقّفة الواعية. فلندخل إذن. ما أشدّ غرورك!

ودخل القاعة يتلمّس طريقه في الظلام، وقال للموظفة أن تجلسه في مقعد من المقاعد الوسطى. والتفت إلى يمينه إذ جلس، فإذا هو بعجوز شمطاء. أيّ تفاؤل عظيم تنطوي عليه نفسها حتى تعتقد بأنَّ الحياة تبدأ

هدًا! اجترار آمال. تعلّقٌ بحبال قطّعتها الأيام. أما إلى يساره، فكان ثمة مقعدان خاليان.

ولاحظ أنّ الفيلم قد بدأ. رائعةٌ حقًا هي الفكرة التي أملته: ما أعظم الأمل بمستقبل الإنسان! وأيّ عمق ونفاذ، هذا الذي تكشف عنه نظريات سارتر في المسؤولية والحرية. لسوف يذكره طويلاً فيما بعد. سيذكر حركات سارتر هذا، في عينيه وقسماته ويديه، يوم يعيش أشهرًا طوالاً مع «ماتيو» بطل «دروب الحرية». ولكن أي دور هذا الذي ارتضى «جيد» أن يمثّله؟ ما أشدّ بلادته وتفاهته! وكيف قَبِلَ «جيد» أن يُحشر فيه حشرًا كي لا يقول شيئًا ذا قيمة، هو الذي تفيض آثاره بعبر القيم الخالدة؟ وأما خير ما في الفيلم، فقد كان دور العالِم الطبيعي الكبير جان روستان. إنَّ ما يكشفه من أسرار الحياة البيولوجية لدليل قاطع على أنَّ بوسع الإنسان أن يجعل الحياة غير الحياة، وأن يعجن الوجود بيديه على الوجه الذي يريد.

وبدأ يتململ في مقعده ساعة أتى دور المهندس لوكوربوزييه. إنَّه - حياته - لم يحبّ الهندسة ولا الجبر ولا الحساب، وهو لا يستطيع أن يميّز بينها، ما دامت كلّها تنطوي على المعادلات. والحقّ أنَّه لا يدري إذا كانت قاطعة التذاكر قد غشّته الآن، قبل أن يدخل، فأعادت له أقلّ من حقّه. على أنَّ ذلك أهون عليه - لو صحّ - من أن يعدّ ما في جيبه. ألم يكن على شفا السقوط في امتحان «البكالوريا» إذ لم ينل إلاّ علامتين من مجموع عشرين في مسابقة الحساب؟ ولو لم يكن أستاذ الشفهي لهذه المادّة صديقًا لابن عمه، أكان قُدِّر له أن يجوز الامتحان؟ ولكن لمَ يذهب بعيدًا؟ إنَّ رفاقه ما يزالون يذكِّرونه بقصّته، وكان قد نسيها، يوم دعاه معلِّم الحساب، في المدرسة الابتدائية، فطلب إليه أن يسجِّل على اللوح الأسود بعض أرقام بسيطة: صفٌّ مَدْرسيٌّ فيه اثنتا عشرة طاولة، يجلس على كلّ منها تلميذان،

إلاَّ أنَّ ستة تلاميذ تغيَّبوا يومذاك عن الحضور، فما عدد التلاميذ الباقين؟ ولقد ظلّ ردحًا من الزمن مسمّرًا أمام الأرقام، ثم حسب أنَّه اهتدى إلى الحلّ، فأخذ يجمع ويطرح ويضرب ويقسم، فما كان الجواب؟ ستة عشر مليونًا وخمسمئة ألف وسبعة وأربعين تلميذًا، وصفعتين على وجهه وركلة في مؤخّرته من قَدَمِ المعلّم أوصلته توًّا إلى مقعده...

وإذن، فما الذي جاء بـ «لوكوربوزييه» هذا الآن؟ وماذا تراه يغنّي ويحسب ويُهندس؟ حقّا إنَّه... وفوجئ بها، هي، تجلس على المقعد، إلى يساره.

ولم تكن وحدها، وإنَّما كان بصحبتها رجلٌ وَخَطَ الشيب رأسه. بيد أنَّ سيماء الشباب ـ على ما تمكّن من رؤيته في الظلام ـ كانت مطبوعة على تقاسيم وجهه. وجلس الرجل على المقعد الثاني. أيكون أباها أم عمّها أم صديقها.. أم عشيقها؟

وجعل يتربّص الحركة التي تحرّره من ضيقه. حتى إذا مرَّت دقائق انطلقت أنفاسه هادئة: لا! إنَّه أبوها أو عمّها، قريب لها رصين على كلّ حال. ألا ترى أنَّه لم يمدّ ذراعه ليحوّط بها كتفي الفتاة، ويدني جسمها من جسمه، كما يفعل العشّاق في دور السينما الفرنسية؟

واسترخى في مقعده سعيدًا كالطفل، فَرِحًا بقرب هذه الفتاة التي يشعر بنكهة الفتوّة تفيض من أردانها. كانت ترتدي «بنطلونًا» طويلاً ضيّقًا عند أسفله، وسترة مشمّعة تنتهي لدى وسطها، وكان شعرها مُرسلاً في وحشيّة لذيذة، دون ما تفنُّن. أما وجهها، فلم يرَ إلاّ الجانب الأيمن منه: وجه طفل تبرق فيه عين زرقاء، وشفتان تلتمعان بحمرة شفّافة تحييها بسمة ساذجة.

ومضت دقائق، والفتاة مستقرّة في مقعدها لا تميل إلى مرافقها ولا تنبس بحرف. ثم تحرّكت بمهل، فخلعت سترتها المشمّعة، فإذا تحتها قميص

من الصوف الأخضر ينتفض لدى صدره، نهدان أرعنان. وأحسّ هو برعشة يسيرة في جسده. ثم شعر بذراعه تتململ كأنَّما تودّ أن تتحرّك. وما لبث أن رآها بطرف عينه تزحف رويدًا في اتجاه ذراعها من فوق المقعد. ووقف زحف الذراع لحظات، حتى سنح في الفيلم موقف مضحك، فضحك بقوة ليبرّر تحريك جسمه وإلصاق ذراعه عند المرفق بذراعها. وأحسّ أنّها تبتعد عنه، ولكن في هدوء كبير، كأنّما تودّ أن تُفهمه بأنّها لم تقصد إلى ذلك قصدًا، وأنَّ هذه إنَّما هي حركة طبيعيَّة تأتيها عفوًا.

ولم يكن يعنيه من الفيلم بعد ذلك شيء. إنَّ هذه الفتاة تملأ الآن فكره ووجوده، وإنَّ قربها الدافئ يُسعده بالرغم من أنَّها تبعد عنه. لا بأس، لا تفسّرْ هذا بأنَّه الصدود، وانتظر فرصة أخرى. لقد سنحتْ. ادفعْ بكتفك دفعة جديدة. ولكن ويلٌ لك: ماذا ترى؟ إنَّها تميل على مرافقها، أبيها.. عمّها.. لتهمس في أذنه كلمات. وعرتْه رعشة أخذت تشتدّ وتقوى حتى سرت في جسده كلّه. لا ريب في أنّها تبلّغ والدها، عمَّها، أنَّ هذا الذي إلى جانبها.. أنَّك ساقط، دنيء، تحاول أن.. ولكن لا، لا تُتمّ فكرتها، فكرتك، ألا تسمع ضحكتها هذه اللذيذة؟ لا، إنَّها لم تحدّثه عنك، لم تُؤذِها حركتك!

وعاد إليه هدوؤه بالرغم من أنَّ آثار الرعشة لم تمَّحِ من أطرافه تمامًا. وراح يميل بجسده إلى اليسار في تريّث وروية، فلاحظ فجأةً أنّ الفتاة قد شبكت ذراعها، فإذا يدها اليسرى على قاب قوسٍ من يده التي كانت مستقرّة على ذراع المقعد. وما كان أجملها! عجبًا.. كيف أنّي قبل هذه اللحظة لم أرَ هذه اليد العاجية المنسكبة شلاّلاً من نور؟

وأخذته حمّى لأن يُلامس هذه اليد، فارتعشت كفّه في اتجاهها تنوشها بأطراف الأصابع. وظلّت تلك اليد مطمئنة على الساق كأنَّها تحلم. وأعاد التجربة، فلم تغيّر اليد موقفها، فإذا كفّه تنزلق حتى تلتقي بكفّها تضمّها في لين. أما هي، فلم تحاول أن تسحبها أو أن تأتي بأيَّة حركة.

ونعِمَ بالدفء الحقيقي، وظلّ قابضًا على تلك اليد الحلوة الناعمة كأنَّها الكنز. ثم تململت قليلاً بين أصابعه القويّة فضغطها ببعض القسوة، فإذا هي تتطامن وتستسلم للضمّة القاسية. ولكن هل هذا ممكن حقًّا؟ إنِّي لأشعر شعورًا غريبًا بأنِّي بدأت أحبّ هذه الفتاة التي لم أرها، ولا أعلم من أمرها شيئًا. هذه الفتاة التي رضيت أن تمنحني يدها دون أن تعرفني هي أيضًا. أليس هذا دليلاً على أنَّها بدأت، هي كذلك تميل إليّ قليلاً؟

وفي غمرة من الاندفاع، رفع يد الفتاة على مهل: وانحنى بجسمه يُودعها قبلة محمومة هامسة. وما كان أسعده إذ لحظ أنَّها أدارت ظهرها إلى مرافقها، أبيها، لتحجب عنه هذه الحركة التي بدأها هو، وأتمتّها هي. انطلقِ يا صاحبي. لقد كسبتَ المعركة!

وأسكره الظفر، فطمع بالمزيد. وانسلخت يده عن يدها لتهبط رويدًا إلى الساق. وشعر سريعًا بنبض تلك الساق، ولكن الفتاة لم تحرّك ساكنًا. وها أنَّ يده الآن مستقرّة على ساقها، كأنَّما اعتادت ذلك، وكأنَّما الساق اعتادت. بيد أنَّه ما عتم أن شعر بأنَّ نعومة هذه الساق محجوبة بكثافة «البنطلون»، وأنَّه، إذ يمرّ أصابعه عليها، لا تعود عليه بغير إحساس الخشونة والجفاف. ليت أنَّها لم تكن ترتدي «البنطلون»!

وفجأة قبض يده، وأعادها إلى حيث كانت من ذراع المقعد. لقد شعر بالاحمرار في وجنتيه. إنَّ هذا لشيء دنيء: فتاة لا تتجاوز السابعة عشرة، زهرة نابضة بالطهر. من أين أوتيتَ هذه الوقاحة؟ لا ريب أنَّها تتألم الآن في أعماق ضميرها، ولكنَّها لا تستطيع أن تأتي بأيّة حركة، خشية أن يلاحظ أبوها، عمّها، فتنفجر الفضيحة، وستكون هي إحدى ضحاياها على أيّ حال: إنَّها عاجزة عن عمل أيّ شيء. إنَّها لا تستطيع أن تضمّ ساقها أكثر مما هي مضمومة.

وعراه ندم، وخشي أن تكون الفتاة قد أصيبت بخيبة، فسَعَتْ يده من جديد إلى يدها تضمّها برفق وحنان، كأنَّما هي تطلب الغفران. وشعر بأنَّ تلك اليد تستجيب لهذه الضمّة، بل إنَّ أصابعها بدأت تمرّ بلطف ولين على ظاهر كفّه. لقد غفرتْ. وأطلق صدره زفرة عميقة حمّلها جماع همومه. وبدأ يُحسّ ببسمة الحياة تتعلّق طيفًا حلوًا على ثغره.

ومرّت لحظات استوت فيها الفكرة، فأخرج من جيب سترته بطاقة باسمه، وتناول قلمه ليخطّ على قفاها بضعة أحرف. ولكنّ هذا الظلام الثقيل... وجعل يترصَّد المشاهد المضيئة في الفيلم ليسترقّ على نورها رسم الحروف، حتى تمّ له هذان السطران:

«سأنتظرك مساء غد، الساعة الثامنة والنصف، أمام باب هذه السينما نفسها. إذا كنت لا تستطيعين المجيء، اتّصلي بي تلفونيًا قبل ظهر الغد على الرقم التالي: «أوديون ٦٢ - ١٤».

ولم يحتج إلى كبير مهارة ليدسّ البطاقة في يد الفتاة، ثم أسرع بغتةً يستردّها، وقد خُيِّل إليه أنَّه أخطأ في تسجيل رقم التلفون، فلما تحقَّق من صوابه، أعادها إليها وهو يبتسم. والتفت عفوًا إلى يمينه، فإذا عينا العجوز الشمطاء، وكان قد نسيها، مسمَّرتان فيه تنظران بدهشة: أيّ مجنون هذا، يكتب في الظلام، ويمسك يد فتاة لا يعرفها و... ما أعجب هذا الجيل، رحمتك يا إلهي! وأدار ظهره للعجوز غير آبه لما تفكِّر به. ومع ذلك، فهي لا تزال تحدِّق فيك. لو أنَّها تخرج، إذن لتنفّست الصعداء! ولم يمزّق ضيقَه غير بسمة لحظها على شفتي الفتاة، فتاته. كانت تسترق إليه نظرة عجلى بطرف عينيها، كأنَّها معجبة ببراعته في إجراء هذه الحركات الخفيّة. لا، تدرّعْ بالرصانة، واخنق هذه الرغبة اللَّجوج في أن تطوّق كتفي الفتاة، أو تهمس في أذنيها كلمات ملتهبة، كالتهاب أطرافك. أنسيت أباها، عمّها...، ثم هل أنت تعرفها؟ قليلاً من التبصّر!

وجـرؤ وقـال لهـا هامـسًـا : «ولـكن أنظري إلـيّ مـواجـهـة، لأتمـكّن من معرفتك غدًا!»

فأسرعت تضع إصبعها الحلو على فمها الصغير طالبةً إليه الصمت والحَذَر. فلم يكترث لذلك وأعاد عليها العبارة، فأدرك أنَّها لم تفهم منها غير كلمة «غدًا»، إذ رآها تميل إلى أمام، فتضع البطاقة على ظهر الكرسيّ المتقدّم، ثم تنحني عليها فتحجبها عن كلّ ما سواها، وتقرأها بسرعة على نور مشهد مضيء، كما فعل هو في كتابتها. وإذ ذاك فقط، التفتت إليه، فرأى وجهها كلّه، وسمعها تهمس «وي» فأدرك أنَّها توافق على الموعد الذي حدَّده للقاء.

عليك الآن أن تخرج، أن تمحّي، كـأميـر الأحـلام. خلِّفْـهـا في هذا الغموض اللذيذ تفكّر بك طويلاً بعد ذهابك. ثم إنَّه لم يبق هنا شيء يعنيك. إنَّ موعدكما غدًا. غدًا تبدأ الحياة.

ونهض يرتدي معطفه. وقبل أن يخرج من صفّ المقاعد، تعمّد أن تعثر قدمه بقدمها، ليقول لها بكلّ تأدب «اعذريني يا آنسة». ورأى بسمتها على شفتيها الناعمتين، وخرج يسعى إلى فندقه، محمولاً على جناح السعادة.

وألفى «صبحي» يربط جرس الساعة المنبّه، وسمعه يقول:

- عليّ غدًا أن أنهض باكرًا، وأخشى أن أغرق في النوم الصباحي الحلو.

فضحك ولم يُجب. وقبل أن ينام، استعاد جميع دقائق مغامرته، وأخذه النوم، بينما كانت تطيف بجفنيه عينان زرقاوان باسمتان، وتداعب مسمعه همسةُ شفتيْن تشرقان بعذوبة كلمة «وي».

ـ ٤ ـ

وأفاق مذعورًا صباح اليوم التالي على صوت جرس الساعة المنبّهة، فاستوى في سريره وهو يتثاءب ويتمطّى. إنّه ليس شديد الضيق بهذه اليقظة الباكرة، لاسيَّما في هذا الطقس الصافي. وظلّ جرس الساعة يدقّ، و«صبحي» يتقلّب في فراشه. ثم عزم أخيرًا على النهوض. ولكن ليتّجه متهاديًا إلى موضع الساعة المنبّهة، فيوقِفَ بحركة هادئة صوتَ جرسها، ثم يعود إلى فراشه، ولكنَّه ما يلبث أن ينهض فيتوجَّه إلى النافذة ويرخي ستائرها فتغرق الغرفة في ظلام. ويرتمي صبحي على سريره وهو يتمتم متنهّدًا:

ـ آه... ما ألذّ نوم الصباح!

وضحك هو، وتربَّص لحظات، حتى إذا تيقّن من عودة صبحي إلى النوم، نهض على رؤوس أصابعه، فملأ كوبًا من الماء، واتَّجه إلى سرير صديقه، فرشّ وجهه بقوة وهو يقول:

ـ إذا عجز جرس الساعة عن إيقاظك، فلن يعجز الماء!

وانتفض صبحي وهو يصرخ من برودة الماء، وهتف ببعض شتائم، ثم انفجر ضاحكًا. وخلال خمس دقائق، ارتدى ملابسه وخرج من الغرفة مسرعًا.

أما هو، فلزم غرفته طوال ساعات الصبح، انتظارًا لمخابرة تلفونيَّة قد تقوم بها... هي... ويودّ ألاّ تقوم بها أبدًا. وكان يشعر بضيق كلَّما طُرق باب غرفته. إنَّه خادم الفندق أتى يبلغني أنِّي مطلوب على التلفون. وددت أن يكون هذا الفندق خاليًا من الخدم، أو من التلفون!! وحين دقّت الساعة الثانية عشرة، خرج من الفندق مسرعًا، كأنَّما هو يغادر سجنًا طال فيه مكوثه. لم تتّصل بي لتعتذر إليّ. سوف تأتي إذن في الموعد المحدّد. ولكن أيّ منطق هذا؟ ربما... أكاد أن أجنّ. دعني قليلاً أمنّي النفس.

وشغل ساعات ما بعد الظهر كلَّها بالعمل. أي عمل يلهيه عن نفسه، وينسيه فكرة الانتظار، فاستمع إلى محاضرة في (السوربون) عن جمالية الفنّ، وزار قريبًا له شاعرًا ينظم بالفرنسية فنَعِمَ بالإصغاء إلى بعض قصائد كان جوّها الشعري الغامض أجمل ما فيها. ثم قصد مقهى (لاسورس) فجلس فيه ساعةً حسبها ثلاثًا، ثم توجَّه إلى أبعد مطعم يعرفه فتناول فيه عشاءه على غير ما إحساس بالجوع.

وكان يحاذي باب السينما عند الساعة الثامنة وعشر دقائق. خيرٌ لي أن آتي قبل الموعد بخمس دقائق (تقصد بثلث ساعة؟) من أن آتي بعده (هذا لم يحدث قطّ). ولم يتوقّف لحظة، بل جعل يذرع الطريق تّجاه المدخل جيئة وذهابًا. كان يشعر بالضيق إذا ما ظلّ واقفًا في مكانه، كأنَّما كان يخشى أن تلتقي عيناه بعيني إنسان تسائلانه بفضول (لا ريب أنَّك تنتظر فتاة!) وفي هذا مدعاة للخجل دون ريب. وكان يؤثر أن يقف لحظات عند المنعطف ليرقب منه باب السينما، حتى إذا لاح له طيف فتاة، تسارعت خطواته في اتجاه الدار. وكان يسمع خفقات صدره كلّما أطلّت فتاة ترتدي البنطلون، ثم يخفت صوت هذه الخفقات، حتى لا يكاد يسمعه، حين كانت الفتاة تتجاوز عتبة السينما فلا تقف عندها.

ونظر إلى ساعته. ما أسرع ما يمضي الوقت! صارت الساعة الثامنة والنصف؟ وتوقّف لحظات ليؤخّر العقرب الكبير سبع دقائق. إن ساعتي (تسبِّق) دائمًا سبع دقائق. ومعنى هذا أنَّها الآن في الحقيقة الثامنة والثالثة والعشرون. وما كاد يفعل حتى انفجرت ساعة السوربون القريبة تدقّ النصف بعد الثامنة! عجيب! إنَّها المرة الأولى التي لا (تسبِّق) فيها ساعتي! لا ريب في أنَّ القدر يعاكسني اليوم.

لا بأس في ذلك. لن ينفد صبري. يجب أن أترك لها بعد الموعد هامشًا مقداره ربع ساعة. تلك هي «لياقة» الانتظار، بل هو قانون الانتظار، إذا شئنا الدقّة في التعبير. ثم إنَّ هؤلاء الفتيات الفرنسيَّات مدلَّلات، وهنَّ دون ريب يفضِّلن أن يأتين متأخِّرات، أو يظهرن ـ على الأقل ـ متأخِّرات. ما يدريني؟ قد تكون هي الآن في منعطف قريب ترقبني منه، حتى إذا تحقّقتْ من وجودي، تباطأت في الظهور.

وعاد يذرع الطريق، وينظر إلى الصور المعروضة على باب الدار للمرة العشرين، دون أن يراها. وتنبّه فجأة إلى الشرطيّ الذي كان يحرس باب السينما، فأحسّ أنَّه يتابع حركاته. واستغرب كيف أنَّه لم يَرَه قبل هذه اللحظة. ما يدريني أنَّه لا يرتاب بي؟ ربما يذهب به الظنّ إلى أنِّي سارق.. أو أنِّي أريد بالدار شرًا، إذ أحوم هكذا حولها.. وخطا يبتعد عن المدخل، ولكنَّه لم يكن أقلّ شعورًا بأنَّ عينيْ الشرطي مصوَّبتان الآن إلى ظهره، كأنَّهما فوهتا بندقية. إنَّه يشعر بعينيه تنفذان في ظهره. وابتعد وابتعد، وبات لا يجرؤ على الرجوع إلى باب السينما. وحين بلغ المنعطف، وقف يستشرف البعيد، فيرى فتيات كثيرات يتّجهن صوبه، ولكنَّه لم ير فتاته بينهنّ.

وفجأة، وقفت سيارة عامة بالقرب من دار العرض، فقفز قلبه. إنَّها هي: لقد تأخرت فاستقلّت سيارة، وخفق صدره ساعة رأى فتاة ترتدي

«البنطلون»، وتترجّل من السيارة. وشدّ على أعصابه وهو يتقدّم منها محاولاً أن يبتسم. ولكنّه حين نظر إليها مليًا ساورته الشكوك. إنّها ليست هي؛ وظلّت الفتاة في وقفتها على المدخل. كأنّها هي أيضًا تنتظر أحدًا. وحدّق فيها من جديد. بل إنّها هي، غير أنّي نسيت وجهها، وتقدّم خطوات أخرى حتى إذا حاذاها، تطلّع بفضول إلى وجهها من الجانب الأيمن، كما رآها في السينما. لا. لا، ليست هي. تلك كانت دقيقة التقاسيم، أقرب إلى الهزال. أما هذه فممتلئة الوجه والجسم. وأحسّت الفتاة بقربه منها فرمتّه بنظرة عجلى ثم أولته ظهرها، فتمتم بخفوت: «حسبت أنّك...» ولكنّها وفّرت عليه مؤونة الإتمام إذ أسرعت ترحّب بشابّ وصل في تلك اللحظة بالذات، وتبادله قبلته السريعة. وحين دخلا دار السينما، شعر بجفاف في حلقه.

عشرون دقيقة مرّت على الموعد المضروب. وأحسّ بالهدوء يرين عليه، موقنًا بأنّها لن تأتي بعد، فتحرّر من قلق الانتظار. ومع ذلك فلم يعزم فورًا على الذهاب، ولم يَدْرِ لماذا تذكّر فجأةً العجوز الشمطاء التي كانت بالأمس تصرّ على التفاؤل بالغد. ألست أنت الآن مسكينًا مثلها؟

وحين قرّر أخيرًا أن يغادر الساحة يائسًا، سار وئيدًا متريّثًا بخطوات ميتة. وقبل أن يبلغ المنعطف، التفت ينظر النظرة الأخيرة، فإذا المدخل خالٍ إلاّ من الشرطيّ، وإذا الطريق لا تضطرب بأيّ شبح، فتابع سيره غير مدرك ما يفعل، كأنّما تبلّد حسّه وتعطّل شعوره. ثم انفتل بغتة، فألمّ بباب السينما إلمامةً أخيرة كالمجرم يعود دائمًا إلى مكان جريمته. وشعر أنَّ بوسعه أن يتحدّى نظرات الشرطيّ، ففعل.

واتّجه إلى بولفار سان ميشال، وهو يبتسم ابتسامة بلهاء، ما لبثت أن تحوّلت إلى كزازة في وجهه وحنق في صدره.

ولكن لماذا؟ لماذا؟ إنّه لا يفهم السبب.

لماذا أعطته يدها في السينما، ولماذا تركته يلامس ساقها، ولماذا أخذت منه البطاقة، بل لماذا وعدته بأن تأتي، من غير أن يطلب إليها أن تَعِدَه بذلك؟ وبسمتُها له، ما كان معناها؟ أكانت خدعة أم شفقة؟ ولكن لماذا تخدعه؟ أما كان بوسعها أن تصدّه، أن تهمس في أذن مرافقها، أبيها، كلمة واحدة؟ أم أنَّها شاءت أن تعبث وتتسلّى، فلماذا لا تأتي اليوم لتتابع عبثها وتسليتها؟

بل كانت شفقة. لا ريب في أنَّها شعرت بأنّ هذا الذي إلى يمينها شابّ مسكين، شرقيّ جوعان، سلخ كثيرًا من أيامه في الكبت والحرمان، وأنَّه الآن يتحرّق للمس بشرة امرأة، وللتنعّم بدفء قربها وبحرارة أنفاسها. أليست تلك الرعشة التي أحسستها في أطرافك دليلاً كافيًا على ذلك؟ وتلك الحمّى التي كانت تغلي بها كفّك، أما كانت آية حرمان ووحشة؟ وإذن، فما يضيرها أن تحنو عليك، وتكلأك بعطفها ساعةً من الزمن؟ أليست تؤدي بذلك خدمة لك، بل للإنسانيَّة المعذَّبة التي تعيش في جلدك؟ وإذن، فلتستجبْ لضمّتك، ولتدَعْ كفّك على ساقها، ولتأخذ بطاقتك، ولتَعِدْك بأنَّها سوف تأتي، فليس بوسعها أن تفعل غير ذلك، وأنت لا ريب شاكرٌ لها هذا الجميل. ولكنَّها لن تتمكن من المجيء مساء الغد، لأنَّها ستكون مشغولة بدروسها أو بموعد مع حبيبها.. أو لأنَّها بالاختصار لا تريد أن تأتي. المهمّ الآن ألا ترفض طلبك، فتهدم بذلك كلّ هذا العطف الذي حبَتْك إياه. أترى إذن؟ إنَّها الشفقة، وليس سوى الشفقة.

وتابع سيره ذليلاً مقتنعًا. ثم توقّف فجأة حانقًا ثائرًا. لا، لست بحاجة إلى شفقة أحد. إنَّني أقوى من الشفقة. وإنِّي لأهزأ بها. أنا إنسان سويّ أعيش بحريّة، وأفعل ما أشاء، وأرفض قبل كل شيء أن أكون موضع شفقة أو رثاء. لست بحاجة إلى أن يتصدّق عليّ أحدٌ بعاطفة. ولماذا؟ ألأنَّ فتاةً أخلفتْ موعدها، ينبغي أن أخضع لهذا الشعور اليائس؟ وهل هنّ

جديرات بالاحترام، كل أولئك الفتيات الفرنسيات اللواتي يَسُقن هذه الحياة العابثة الفارغة؟ ألا ينبغي لكلّ شاب يلتقي بإحداهنّ أن ينزع منها ثقته منذ اللحظة الأولى، لأنَّها سوف تخدعه حين يغيّبها المنعطف؛ إنَّ قصارى ما ينبغي له أن يفعل، هو أن يأخذها بين يديه، فيعصرها ويعصرها ويمتصّ كلّ حلاوتها، ثم يلفظها كما تُلفظ النواة. وسيرى بعد ذلك، وسيشعر شعورًا لا تردّد فيه بأنَّها هي المسكينة التي تستحقّ الشفقة والعطف!

ولكن هذا كلّه ما معناه، وما مناسبته؟ أليس هو تعلّة تتعلَّل بها من خيبتك؟ أيَّة خيبة هي؟ فتاة وعدت بالمجيء، وأنا لم أطلب إليها ذلك، ثم لم تأت، فليس في الأمر ما يعنيني، وإنَّما يعنيها هي أنَّها كاذبة. أما أنا، فقد ذهبت إلى السينما لأشاهد ذلك الفيلم الرائع، وكان لقائي بها مصادفة، وإنَّها لمصادفة عابرة أستطيع أن أنساها بالسهولة نفسها التي تمّت بها. أيّ ضيرٍ في هذا؟

وتابع سيره متكبِّرًا مقتنعًا. ثم توقّف فجأة، وقد تذكّر حديث «صبحي» له منذ يومين. حقًّا، كيف نسيت ذلك! إنَّ بوسعي الآن أن أقصد «بيغال». والساعة لمّا تتجاوز التاسعة والنصف، فأقضي ردحًا من الزمن أفرّج فيه عن نفسي. أرأيت إذن؟ إنّك بحاجة إلى أن تفرِّج عن نفسك!

وقرّر أن ينسى كل شيء، أن يسكت، أن يُسكت نفسه، أن يُلقي دون وعيه كلّ حجاب.

واستقلّ المترو إلى «بيغال». وحين نزل في ساحتها، لمح غير بعيد عنه فتاة تتمخطر في مشيتها، فانطلق هو في أثرها متعجّبًا هو نفسه من أين أوتي هذه الجرأة. حتى إذا حاذاها حدث ما كان يتوقّع.

- «بونجور مسيو».

ولكن ألا ترى؟ إنَّها فتاة من فتيات الشوارع، «فتاة رصيف» كما يقولون هنا. لتكن ما تكون.

وحدّثها بضع كلمات، وقادها إلى مقهى، فشرب كأسًا من الخمر. ثم قادته إلى فندق. أجل. سأعصرها وأعصرها، ثم ألفظها كالنواة.

وحين همّا بالافتراق، بعد منتصف الليل، قالت له بمرح:

ـ أشهد أنّك لطيف جدًا، ولكنّي أعجب لشيء واحد: لماذا لم تنظر إليّ طوال هذه المدّة؟ لماذا لم تتطلّع في عينيّ؟ ألا يعجبك جمالي؟

وتذكّر في تلك اللحظة أنّه كان يتفادى حقًا من النظر إليها طوال مكوثه معها، بالرغم مما لمحه من جمال وجهها وجاذبيّته.

ورفع عينيه إلى عينيها.

وسرعان ما أدرك لماذا كان يتفادى من النظر إليها.

كان في عينيها بسمة، بسمةٌ سمع صوتها بأذنيه.

بسمة كانت تقول: «حقًا يا صاحبي، ما أشدّ ما تستحقّ الشفقة والرّثاء!»

ـ ٥ ـ

وقال له صديقه صبحي ذات يوم:

ـ ليس من الخير أن نبقى معًا في غرفة واحدة. ينبغي لكلّ منّا أن يستقلّ بغرفة. وأظنّك قد فهمت ما أقصد. أعني أنّه...

ـ لا تُتْعب نفسك، لقد فهمت، وما تقوله حقّ. ثم إنَّ بقاءنا في هذا الفندق الأنيق سيضع ميزانيَّتنا كلّها في خطر. يجب أن نبحث عن فندق رخيص للطلاّب بالمشاهرة. إنَّ جيوبنا المنتفخة الآن تنسينا الأيام القادمة.

وعزما منذ اليوم التالي على أن يطوفا بفنادق الحيّ اللاتيني بحثًا عن غرفتين متواضعتين. وقال هو في نفسه إنَّ عليه بعدُ أن يقصد «السوربون» ليسجّل اسمه، وأن يسعى إلى مقابلة الأساتذة المختصّين ليشاورهم في أمر الرسالة التي سيعدّها لنيل الدكتوراه، وعليه قبل ذلك كلّه أن يضع حدًا لهذا الاضطراب الذي يستولي على حياته، ويعود إلى تنظيم برامجه وأوقاته.

إنَّه مقتنع الآن بأنَّ باريس لم.. لا، لا تتعجَّل الحكم. إنَّك لا تنظر إلى شأنك الآن بغير النظرة التي اعتدت. فأنت لا تزال كما كنت. أما خيبتك هذه، فليس ما يبرِّرها إلاّ أنَّك أمعنت في خيالك، وغاليت في تصوُّر ما أنت مقبل عليه، حتى كنت تحسبه نعيمًا كلّه، فإذا أنت بالسراب وحده. إنَّ هذه دنيا تُكشَف قطعةً قطعة، كما يُقلب الكتاب صفحةً صفحة، وأنت على خطأ إن كنت تظنّ أنَّك قرأت في هذا الكتاب من قبل، فهو جديد نظيف الغلاف، لم تُقطع صفحاته بعد، من صفحته الأولى ستبدأ.

وكان بحاجة إلى همسة عزاء، فاستكان، ووقف بالنافذة يستنشق الهواء، ثم شعر بحاجة إلى الخروج. وإذ هبط إلى باحة الفندق، سلّمه الكاتب رسالة خفق قلبه للخطّ الذي كانت تحمله. إنَّه خطّ أمه. وحين قرأ أول عبارة فيها: «ولدي الحبيب» تفجَّرت ينابيع الحنين كلّها في صدره. أين هو الآن من وجهها الصغير الحلو وعينيها الحانيتين الذائبتين حبًا وحنانًا؟ أين هو من ذلك العالم الصغير الكبير الذي كان يعيش فيه مع أمّه وإخوته في ظلّ التعاطف والتفاهم والمودّة؟ بأي ثمن قد ارتضى أن يهجر ذلك العالم الذي كانت كل أمانيه فيه تحت متناول يده؟ وأيّ عالم جافّ شديد القسوة يقذف نفسه فيه هنا، فيشعر بأنَّه تائه لا يعرف دربه ولا يستشرف له غاية؟

ووهنت نفسه حين قرأ في رسالة أمه وصف اجتماع للأسرة كان هو فيه مدار الحديث. أيّ مكان له في قلوب ذويه، وما أحوجه إلى أن يستشعر هنا مثل هذا الحب والتعلّق والإخلاص! لقد كان هناك يشرف على حدود عالمه، فيعي قيمته فيه. أما هنا، فعالم ضائع الحدود، بعيد المسافات، يُحسّ أنّه لا يعدو أن يكون فيه أكثر من ورقة جافّة من هذه الأوراق الكثيرة التي تسقطها ريح الخريف عن الشجر.

ورأى كثيرًا من هذه الأوراق الجافّة تتطاير في حديقة «اللكسمبورغ» وكانت قدماه قد قادتاه إليها بشبه لاوعي. ووقف لحظة ينظر إلى الأشجار تعرى من أوراقها... أليست نفسه مثلها الآن، تعرى من عواطفها الدافئة؟ أيّ إحساس حارّ يشدُّه إلى هذه الدنيا الواسعة الأبعاد؟

ورأى شيخًا عجوزًا يمرّ به متباطئًا متحاملاً على عصاه، وهو واقف لا يريم. وكان يتبعه عن كثب كلبٌ نحيف مهزول، يكاد يلامس الأرض بأنفه. وشعر بأنَّ الظلمات تتكاثف على نفسه، كما تتكاثف تلك الغيوم في السماء وتزداد اسودادًا. وظلَّ مستندًا إلى جذع شجرة، حتى شعر بنقطة ماء تسقط على أنفه. وما كاد يرفع بصره إلى السماء، حتى انهمر المطر.

وعــراه الارتبــاك، فلم يدر أينبــغي لـه أن يظلّ حــيث هـو، ظنًا بأنّ أغصان الشجرة التي يستند إلى جذعها تقيه بعض المطر، أم يغادر الحديقة على عـجل إلى الشـارع، حـيث يجـد رصـيفًا يحـتمي به ريثمـا ينقطع المطر فيعـود إلى فندقه؟ وزاد هـذا الارتبـاك قلق نفسـه وتجهّم روحـه، وشعـر بمثل العـذاب يعـصف بذاته كلّهـا. عـذاب يحـسّ له بألم مَـاديّ في أركـان جسـمه، وببرم روحي يزرع الاضطراب في وجدانه.

وإذ هو في ارتبـاكه، والمطر لا يخفّ هطوله، مـرّت بقـربه فتـاة تقـرأ في كتاب وهي تمشي الهوينا، غير عابئة بالمطر.

وشعر فجأة بأنّ موجة من ضياء تغمـر كيانه، فتقشع عن نفسه غيوم الاضطراب والقلق، وتبعث في عينيه شعاع الرضى والإقبال.

هنا، في صـفـحـات الكتـاب، سيـجـد راحـة ضـمـيره. إنّ الكتـاب وحـده سيحرّره من قيود هذا العالم المعذّب الذي يعيش فيه.

ومـثـل هـذه الفـتــاة، لن يعـبــأ بعـدُ بالمطر ولا بالعـواصـف ولا بأوراق الخـريف المتسـاقطة، مـا دامت الكلمـة التي يقـرأهـا هـي التـي تقيـه كل شـيء. إنّ نور الحرف هو الذي سيشقّ له طريق الخلاص.

والتفت حوله يبحث عن الفتاة صاحبة الكتاب، فألفاها قد خرجت من «اللكسمبورغ» وكانت متّجهة إلى رصيف الشارع المقابل، ولم يدر ما الذي دفعه إلى أن يحثّ في اتّجاهها خطاه، كأنّ قوة خفيّة، كأنّ خيطًا يشدّه الآن إليها. ولكنّـه لم يدركـهـا، فـقــد ســارعت وقـفـزت إلى «الأوتـوبيس» الذي توقّـف عند الرصيف، فاستندت إلى الحاجز الخلفيّ فيه، ثم غرقت في كتابها من جديد.

وما لبث المطر أن انقطع وبدأت الغيوم تتقشع سراعًا.

وكان بعد دقائق عند حافة «السين»، يتطلّع بنهم في كتب هذه المكتبات القديمة التي أقيمت على حواجز النهر، والتي يدعونها «كيوسك». ووقف عند إحداها فتناول كتابًا على غير تمييز. أحسّ وهو يقلّب صفحاته متمهّلاً برباط

الأنيق مشقوق الصدر عن عاج شديد البياض. وكان من الواضح أنَّها تجاوزت الثلاثين، غير أنَّها تحتفظ بنضارة ابنة العشرين.

- أوه.. صديقك أيضًا شاعر؟ أصبحنا إذن في سوق للشعراء!

فعلّق على ذلك قائلاً:

- كانوا يدعونها عندنا «سوق عكاظ»!

وابتسمت بسمة خلبتّه. وأنصت يستمع إلى حديثها، فألفاه عذبًا مرهف الحسّ، وحرص بدوره على أن يجيل الفكرة في رأسه قبل أن ينطق بها، كيلا تبدو تافهة إزاء ما تتدفّق به من الأفكار الموزونة العميقة. وشعر أنَّه يأنس إليها فغمره الرضى. وتساءل بلهفة: «أتراها هذه التي أبحث عنها؟»

- إلى أين وصلت يا عزيزي؟ لا تمعن كثيرًا في خيالك. إنَّها هنا بقريك، فألقِ منذ الآن بصنّارتك إن كانت قد أعجبتك.

واستدرك سامي يقول:

- بل أرجئ ذلك إلى الغد. إنَّها الليلة لي! أتذكر قصيدتي «الليلة الحمراء»؟ تلك كانت وهمًا من الوهم، على أنِّي سأجعلها الساعة واقعًا محسوسًا!

وحين فرغوا من جرع كؤوسهم، رأى أن يسارع بالانسحاب. واتَّفقوا ثلاثتهم على أن يلتقوا قبل ظهر اليوم التالي في المطار لتوديع سامي. وأبصر صديقه يتأبَّط ذراع «ليليان» ويمضي بها إلى فندقه، مرحًا، خفيف الخطو.

وحين شعر بأنَّه وحيد في الطريق، حاول طويلاً أن يُسكت صوت نفسه وهي تتساءل: «أتراني وقعتُ من نفسها موقع الرضى أم أنَّها ...»

ولم يتمّ صوت نفسه العبارة، وأشفق من الجواب، فجهد في أن يغيّر الحديث بالتفكير في موضوع آخر.

ـ ٦ ـ

قال له سامي وهو يهمّ بركوب الطائرة:

ـ عملت أنا اللازم... فأنت الآن وبراعتك!

براعتك؟ أتراك بارعًا حقًا في اجتذاب النساء؟ أيكون هذا سلاحًا تملكه، أم أنّ سامي كان يهزأ بك؟ والتفت، فإذا «ليليان» ملصقة شفتيها بشفتي سامي في إقبال وسعر مجنون. إنَّ فراقه ليشقّ عليها. إنّها تحبّه حبًا صادقًا عنيفًا. وشعر بانقباض في صدره. لا فائدة من أيّة محاولة. حلقةٌ جديدة في سلسلة الإخفاق. وتنبّه إلى سامي مقبلاً عليه ليودّعه، مادًا ذراعيه يودّ أن يعانقه، ولكنَّه توقّف مستدركًا:

ـ .. لقد نسيت ملاحظتك. على أيّ حال، ستغيّر رأيك إذ تعود إلى بلادك، فأنت لن تجرؤ على أن تمنع أهلك وأصدقاءك من تقبيلك يوم يأتون لاستقبالك.

وضحك سامي، ثم أردف:

ـ إنَّ لملاحظاتك قيمةً لا شكّ فيها هنا.. في باريس.. حيث الرجال يعانقون النساء فقط!

وارتفع صوت موظّف الشركة ينادي الركاب إلى امتطاء الطائرة. وبعد لحظات، أطلّ وجه سامي خلف نافذة صغيرة، يبتسم وفي بسمته

كآبة. لعلّه لم يقض في باريس أكثر من أسبوع، ومع ذلك، فهو يغادرها وكأنَّما يغادر وطنه، وأنت.. هذه أسابيع ثلاثة.. وليس في ذهنك إلاّ صورة جدران كئيبة سوداء وسماء غائمة ممطرة، وليس في صدرك إلاّ رغبة في الفرار، في الابتعاد. إنَّك تكاد الآن تحسده، سامي هذا الذي يعود، وتتمنّى لو أنَّك كنت أنت في الطائرة..

وظلّ سامي يلوِّح لهما بمنديله خلف زجاج النافذة، وظلاّ في وقفتهما الصامتة حتى ابتلعت الأبعاد الطائرة. ونظر إلى ليليان، فإذا في عينيها أسًى عميق يكاد يقطر دمعًا، ثم إذا هي تُطرق وتتنهّد وتقول بشبه لاوعي:

- لقد حمل سامي معه كثيرًا من أحلامي.

وأعادتهما سيارة الشركة من مطار «أورلي» إلى قلب باريس. ولم تنقطع ليليان لحظة في حديثها عن سامي، ولم ينقطع هو لحظة عن صمته. ما عساه يقول؟ لقد كان يشعر أنَّه على الهامش من فكر هذه المرأة التي هي شديدة القرب منه. كانت صورة سامي تملأ ذهنها، فتملأ فمها بالكلام عنه. وهو لم يكن إلاَّ رفيق طريق، وإنَّ خير ما يفعله الآن، إذ يترجَّلان من السيّارة، أن يودِّعها بلطف، ويتابع سيره وينسى أنَّه عرف امرأة. وما أيسر ذلك! إنَّه لن يظفر منها حتى بالرفقة البريئة ، إنَّها لن تتيح له حتى الاستماع إلى عذب حديثها. فما جدوى أن...

- أعطني سيكارة!

قالتها بلهجة صميمية خُيِّل إليه معها أنَّه يعرفها معرفة عميقة. لقد أحسَّ بأنَّها تمزِّق فجأة هذا الحجاب الذي نسجته خيالاته وأوهامه، وتُطلّ من خلفه عارية النفس. واعتذر مرتبكًا بأنَّه لا يدخِّن، ثم أضاف بأنَّه سيبتاع علبة سكاير حالما تقف بهما السيّارة. وشعر بأنَّ نقطة صغيرة من الفرح تسقط على قلبه، ثم تنمو وتنمو حتى تغمر قلبه كلّه.

ـ ما تقول في أن ندخل أحد المقاهي فنتناول شيئًا؟

فتلعثم لحظات قبل أن يجيب:

ـ كدت أقترح عليك كذلك..

وسقط كلّ الخوف والهيبة والتردّد والاضطراب، سقطت كلّها عن كاهله. بل هو بدأ يشعر بأنَّه يدوسها كلّها بقدمه. أكان حقًا بحاجة إلى أن تطلب منه سيكارة، أو أن تقترح عليه دخول مقهى، حتى يشعر بشخصه، حتى يشعر بأنَّه إنسان حيّ، إنسان حرّ؟ يخيَّل إليه الآن، بل هو موقن، أنّه مالكٌ منذ هذه اللحظة زمام الموقف، وأنَّه منتصر على جميع الظروف التي سيواجهها. لقد ارتفع الآن إلى مستوى ليليان، إلى مستوى المرأة، لأنَّها لم تشعره بأنَّها خائفة منه. ما كان لك إذن أن تُحسّ مع ليليان بما كنت تحسّ به مع هاتيك الفتيات.. فتيات بلدك اللواتي جعلت منهنّ التقاليد أرواحًا مذعورة بشبح الرجل، ثم نشأت في نفس الرجل عقدة بأنَّه يخيف المرأة، فلم يكن لديه بدّ من أن يتوارى. ثم أصبح بدوره يخاف المرأة. وانشقّت الهوّة بينهما، وعمقت وعمقت وكانت تمتلئ كل يوم بركامٍ جديد من أحاسيس الكبت والحرمان والخوف.

أما ليليان هذه، وكلّ ليليان هنا...

وتوقّفت السيّارة وترجّلا، ودخلا مقهى قريبًا، وابتاع علبة سكاير وأشعل واحدة لليليان وواحدة له، فجعل ينفث دخّانها في تلذُّذ. وهي أيضًا، ليليان، كانت ترنو إلى دخان سيكارتها ينعقد حلقات، دون أن تتكلَّم. وطال صمتها. وعاد إليه الضيق من جديد. ولكنَّه كان واعيًا وضعَه، ففكر لحظة ثم قال لها:

ـ لا شكّ الآن يا آنستي في أنّك شاعرةٌ حقًا!

قالت بهدوء:

- وكيف؟ وما مناسبة ذلك؟

- أراك تهيمين طويلاً مع الخيال، مهما ابتعدت به الطائرة!

وابتسمت بسمة خفيفة، ولكن سرعان ما اكتسى وجهها بسيماء الجهامة وقالت متمهّلة:

- اسمع يا عزيزي. أرجو منك أنت أيضًا ألاّ تهيم مع الخيال!

وكأنَّما لحظت على وجهه غموض عبارتها. فأردفت:

- أنا لا أعرفك إلاَّ صديقًا لسامي، فلا تطمع بأكثر من ذلك! وآمل أن تكون قد فهمتني.

وكان جديرًا بهذه العبارة أن تنفذ في أنحاء نفسه سهامًا حادّة لو لم يكن قد لبس دونها درعًا من الثقة والاطمئنان والإحساس بالذات. وقد ابتسم وأجاب:

- ثقي يا آنسة أنِّي لا أطمع منك بشيء، وأنا آسف أن أراكِ تفسّرين عبارتي على غير ما أقصد.

ولاحظ أنَّ قسمات وجهها تغادر قسوتها وتستبدل بها لينًا وملاطفةً:

- أشعر أنِّي آذيتك بصراحتي. فأرجو أن تغفر لي. فقد رأيت من الخير أن نتكاشف منذ البدء.

وأحسّ أنَّها تنازلت له بهذا الجواب عن رقعة أخرى من أرضها فقال:

- ثقي مرة أخرى يا آنسة أنَّ ما أبتغيه منكِ إنَّما هي صحبة أدبيَّة محض، فقد أحببت شعرك، ولا أحسب...

فأخذت تربّت على كتفه منطلقة الأسارير، ثم رفعت كأسها وصدمتها بكأسه:

ـ نخب الشعر!

وغرقا في جوّ من الودّ زاده شفافية وعمقًا صوتها الحارّ الناعم ينشد بعض شعرها. ثم رآها تتوقّف فجأة وقد ران عليها الضيق، وتلتفت حولها بَرِمةً ضجرة وهي تقول:

ـ إنَّ هذا مكانٌ يقتل الشعر. نحن بحاجة إلى هدوء وسكينة... فإما أن نلغي جلسة الشعر هذه، ويذهب كلٌّ منَّا في سبيله، وإمَّا أن تأخذني إلى...

واستدركت بسرعة تقول:

ـ لا... وإما أن نذهب إلى مكان هادئ بعيد عن صخب الشارع وروّاد المقاهي.

وأجاب بكل بساطة، كأنَّما أعدّ جوابه منذ وقت طويل:

ـ نذهب إلى الفندق الذي أنزل فيه، فنجلس في غرفة الاستقبال.

فنهضت ليليان وهي تقول:

ـ هيّا بنا.. لا مانع عندي من ذلك.

واستقلاّ سيَّارة إلى الفندق. وطوال الطريق جعل يتكلّم، كأنَّما كان يخشى، إن هو لاذ بالصمت، أن يتيح لها فرصة التفكير في الموقف الذي تطوّر سريعًا، على غير ما كان يتوقَّع، لم يكن يريد أن يترك لها مجال الحكم عليه، أيًا كان هذا الحكم. وقد عوَّل على أن يمسك زمام المبادرة، ما دامت قد سلَّمته طرفه عن رضى.

والتقى «بصبحي» خارجًا من الفندق. ولحظ أنَّ صديقه يحاول أن يخفي بعض الدهشة من أن يراه بصحبة هذه المرأة الفاتنة. وقال له وهو يغمز بعينه خفيةً:

ـ صيد سمين.. إنَّني سأخلي لك المكان، ولن أعود إلاَّ في ساعة متأخِّرة.

ومضى صبحي وهو يبتسم له. أيرى الأحمق أنَّها من أولئك النساء؟ إنَّ هذه شاعرة...

وانتحت الشاعرة ركنًا من الصالة فاسترخت على مقعد فيه مغمضة العينين.

وجلس إلى جانبها يتأمَّل هذا الوجه الآسر الذي اكتسى من إغماض الجفنين فتنةً جديدة. وإن هي إلاَّ لحظات حتى افترَّت الشفتان عن مثل الهمس:

- اسمع... ما تقول في هذه القصيدة الصغيرة؟

قال: هاتيها..

فأنشأت تقول بلهجة ساهمة حالمة:

«وضع القهوة

في الفنجان

ووضع الحليب

في فنجان القهوة

ووضع السكّر

في القهرة والحليب

وحرّكه..

بالملعقة الصغيرة

ثم شرب القهوة بالحليب

وأراح الفنجان

دون أن يكلّمني.

ثم أشعل لفافة

وصنع من دخّانها حلقات

ثم نفض الرماد

في المنفضة

ومن غير أن ينظر إليّ

نهض

فوضع قبَّعته

على رأسه

وارتدى معطفه الشتويّ

لأنّ السماء كانت تمطر

وذهب

تحت المطر

دون ما كلمة

ودون أن ينظر إليّ

أما أنا فأخذت رأسي

في يدي

وبكيت».

وصمتت الشفتان، وظلّ الجفنان مغمضين. وأحسّ بمثل موجة من الكهرباء تسري في كيانه كلّه، فتبتعث فيه نشوة تكاد تكون مؤلمة. وألفى يده تمتدّ إلى كفّ ليليان فتتناولها في رعشة، وسمع صوته وهو يقول بذوبٍ من الإخلاص والحميّا والحماس:

ـ رائعة.. رائعة هذه القصيدة يا شاعرتي!

وانشقّ جفنا ليليان، فخيّل إليه أنَّ في عينيها دمعة، كأنَّها «ماتزال» تبكي. وهفا إليها يعلّق على القصيدة، فينوّه بروعة الصورة التي تولد من حركة المتحدِّثة ـ الشاعرة ـ ومن سكون الذي تتحدَّث عنه، ويفيض في تحليل نفسيَّة ذلك الذي يشعل السيكارة ويصنع من دخانها حلقات وينفض الرماد... دنيا من اللامبالاة والصمم، بينما هي تتحرّق إلى كلمة منه، وتتمزَّق من أجل نظرة. ويمعن هو في صممه، فيخلّفها ويمضي تحت المطر دون أن يلوي... وهي أيضًا، سرعان ما تنهلّ سحائب روحها المعذَّبة دموعًا.. دموعًا ما أروعها يا ليليان، وأية نفسٍ مرهفة مستوفزة الشعور هذه التي تحلّلها القصيدة.. يا ليليان، أيّ شعر هذا!

وتسحب ليليان كفّها من يده وهي تبتسم بسمة اعتزاز مشرقة، ثم تقول:

«دون كلمة!» ذلك هو عنوانها.

وصمت. ينبغي له ألاّ ينبس بعدُ بكلمة واحدة، حتى لا يفسد روعة الرؤى، وانسياب المشاعر. وأحسّ بأنَّ روحه ترتفع إلى جوٍّ دقيق من الانفعالات والصور. تلك هي الدنيا الخالدة التي لا يلحق بها ألم ولا يشوبها وضرٌ من أوضار هذه الأرض.. تلك التي تحمل البرء والشفاء والعزاء.

ـ لقد جاوزت الساعة الواحدة. وأراك لا تشعر بالجوع!

هكذا انتشلته من عالمه المجنَّح وهوت به إلى عالم الكثافة. واغتصب بسمة، ثم نهض فنهضت، وتأبّط ذراعها ومضى بها إلى مطعم قريب دون أن يرجوها أن تقبل دعوته إلى الغداء، فهي إنَّما نطقت بعبارتها لتُفهمه أنَّها تقترح أن يدعوها.

وحين فرغا من تناول الطعام، رأى ليليان تتثاءب وتتمطّى.

ـ أشعر بتعب واسترخاء.. والواقع أنّ سامي قد ساهرني طويلاً ليلة أمس.

واستتلت تقول دون أن تترك له مجال التعليق:

ـ أودّ لو أقيل نصف ساعة فحسب.

وشاء أن يقترح عليها العودة إلى الفندق حيث يتاح لها أن تستلقي ردحًا من الزمن، ولكنّه لم يجرؤ، على الرغم من أنَّه كان ممتلئ النفس ثقة. وفاجأته بقولها:

ـ ولكن لن أعود إلى بيتي، فهو يكاد يكون في الضاحية.

وما كان له أن يتردَّد بعد:

ـ إذن تعودين معي إلى الفندق، فتستريحين في غرفتي..

فأسرعت تقول، كأنَّما هيّأت عبارتها قبل أن ينطق بعبارته:

ـ وتقرأ لي بعض شعرك.

قال: ـ أمّا هذه فلا. إنَّ نقل الشعر إلى غير لغته الأصليَّة يفقده كثيرًا من ميزاته..

فوافقت:

ـ هذا صحيح. فإنَّ لكلّ لغة عبقريّة، وإنَّ العبقريات لا تنقل. ومع ذلك، فسنحاول بقدر الإمكان..

وتأبّطت ذراعه، ومضت به.

وخلعت سترتها في غرفته، واستلقت بلا مبالاة على سريره. واكتسى ثغرها طيف بسمة وهي ترنو إليه: صورة طالما رآها في أحلامه. جسدٌ متمدّد يضجّ بالنداء.

ودنا من السرير فجلس على حافته. وأراد أن يقول شيئًا، فلم يستطع. وشعر أنَّه أصيب بالبكم. وثقل جو الصمت وثقل. ونظر إلى ليليان، فإذا هي مغمضة العينين. لقد نجت بنفسها من الصمت الثقيل، ومن

نظراته، ومن وجوده. لقد أغلقت كوى نفسها كلّها إذ أغمضت عينيها. ورأى شفتيها تنفرجان:

- ليس من العدل أن أحرمك الراحة، وأنعم بها وحدي..

ولم يجب. لم يَدْرِ بمَ يجيب. فقد غمض عليه قصدها، وسمعها تردف بنبرة لا تخلو من الحدّة، وهي مازالت مسبلة الجفنين:

- أقصد أنَّ بوسعك أن تستلقي إلى جانبي..

وهمّ أن يقول إنَّ هناك سريرًا آخر، سرير صبحي، ولكن أتحسبها لم ترَه هي؟.. إذن فتصنّع مثلها أنَّك نسيت وجوده! وإذ ذاك فتحت عينيها، فانكشفت له فيهما دنيا واسعة ليس لها من حدود، واستتلت تقول:

- شرط أن تبقى عاقلاً!

انقطع إذن حديث الشعر. وتمتما بضع كلمات من النثر، ثم صمتت الشفاه، والتقت.

يا إلهي.. لِمَ لا تسكت دقيقة واحدة؟ لِمَ لا تكفّ عن هذا الهراء الذي تنطق به منذ حين؟ لقد كان يشعر بأمسّ الحاجة إلى الصمت والهدوء والراحة. لقد كان مصابًا بمثل الدوار، وإنَّ حديثها هذا المستفيض ليعمّق شعوره بهذا الدوار. طفولتها ومدرستها وشهاداتها. أثوابها وزينتها وجمالها.. معارفها من الأدباء والشعراء.. شعرها وآراء الناس فيه.. هراء لا ينقطع، منذ بدأت تسرّح شعرها وتتزيّن أمام المرآة. وهو ما زال متمدّدًا على السرير.. ولكن أليس هذا طبيعيًا؟ أن تكشف له جميع صفحات حياتها، ما دامت كشفت له جميع صفحات جسدها؟ فما جدوى أن تحتفظ بعدُ بسرّ؟

يا إلهي.. ذلك الحديث الذي سحره بالأمس، ومنذ ساعات، أكان فيه مثل هذا السخف، أم أنَّه الآن يفرغ فحسب؟ لقد تحطّم السحر كلّه، فانهارت أسرار روحها بعد أن سقطت الغشاوة.

ولكن ما بالها ترتدّ الآن حتى إلى صديقه سامي؟ إنَّها تتحدَّث عنه بلهجة استخفاف ما تلبث أن تحوَّل إلى استهزاء وسخرية: شابٌ مغرور يحسب أنَّه «دون جوان» وهو لا يدرك من أمر النساء شيئًا...

وشقّ عليه أن يُجرَّح الصديق الذي عرَّفه إلى هذه المرأة، وأن تجرّحه هذه المرأة بالذات، فتململ واستوى في سريره مضطربًا:

- هل نسيت ما حدثتني به بعد أن ابتعدت بسامي الطائرة؟ ألم تقولي إنَّه حمل معه كثيرًا من أحلامك؟

فضحكت بمجون وأجابت:

- كلمةٌ تقال... ثم أراك تنسى أنَّني شاعرة!

تقصد كاذبة؟ ما يدريه إذن أن تستهزئ به، هو بالذات، أمام أوّل رجل تلقاه، بعد أن تغادره؟ وكبت كلماته، وخنق فكرته. لن يقول لها شيئًا. ينبغي له أن يحترس، أن يحتمي بخطوط من الحذر. إنَّها امرأة... أجل، ولكنَّها ليست تلك التي تبحث عنها. إنَّها المرأة التي يمتنع قلبها دون أية عاطفة صادقة. امرأة تعيش في الزيف. امرأة..

- ستسمح لي الآن بأن أغادرك. إنَّ عندي اجتماعًا أدبيًا في منزل صديقة لي، وينبغي ألاّ أتأخَّر بعد.

وسَرَتْ في نفسه الفرحة. لعلّها شعرت بثقل وجودها، فآثرت أن تغيب. إنَّها تتمتّع بذوق مرهف على الأقل! وقال بمرح بخيل:

- لا بأس.. ولكن متى نلتقي مرة أخرى؟

وشعر بأنَّ المجاملة وحدها هي التي أزلقت لسانه بهذا السؤال. وكلّ ما كان يرجوه ألاّ تربطه بموعد. وقالت ليليان بعد لحظة من تردُّد:

- سأتّصل بك بالتلفون. فأنا لا أدري متى أكون حرّة.

قال بسرعة: - حسنًا. إذن فأنا منتظر مخابرة منك.

ـ هو كذلك.

ووقف على الباب يودّعها، فأعطته شفتيها، فلامسهما ملامسةً خاطفة، وابتسم لها، وهي تهبط السلّم، بسمةً مغتصبة.

وحين أغلق الباب خلفها، أرسل زفرة طويلة. كان يشعر بضيق لا يدرك له تعليلاً إلاَّ أنَّه غير راضٍ عن نفسه. وعصفت به الحيرة، فلم يَدْرِ ما الذي ينبغي أن يفعله الآن. إنَّ المساء بدأ بالهبوط، وليس ما يبعث الضجر في نفسه مثل هذا الوقت الذي لا ينتمي إلى النهار أو الليل. فضلاً عن أنَّ هذه الفترة بالذات، في هذه اللحظات، والتي غادرته فيها ليليان...

وطُرق الباب طرقات خفيفة. إنَّها هي، لقد عادت. ولكن ما الذي تبغيه؟

وفُتح الباب قبل أن يمدّ يده إلى قفله، فإذا هو صبحي.

ـ التقيت بها عند المنعطف فهزّت لي رأسها بالتحية وهي تبتسم.. الحقيقة أنَّها...

ـ طبعًا.. طبعًا.. إنَّها كما تظنّ تمامًا. لطيفة. لطيفة إلى أبعد الحدود.. ولكن أرجو منك يا صبحي شيئًا واحدًا: هو ألاّ تطلب منّي في هذه اللحظة أن أحدِّثك عنها!

فظهر على وجه صديقه الاستغراب، ولكنَّه لم يقل شيئًا.

ونظر هو فرأى في يد صبحي كتابًا أسود الغلاف، فتناوله منه وأخذ يقلّب صفحاته دون أن تكون له رغبة في القراءة. ولكنّ نظره ما لبث أن تسمّر على إحدى الصفحات وأخذ يلتهم الكلمات التهامًا. وسرعان ما انفجر بضحكة عصبيَّة:

ـ أية مصادفة هذه! لقد أنشدتني إياها على أنَّها من شعْرها. الكاذبة!

ونظر إلى عنوان القصيدة فكان «فطور الصباح». أما الكتاب فكان «كلمات» للشاعر الفرنسي المعروف «جاك بريفير»[1].

وضحك صبحي ملء شدقيه إذ فهم القصّة. وأحسّ هو بالخجل من أن تخدعه هذه المرأة بمثل هذه السهولة. ولكن كيف كان له أن يحول دون ذلك؟ ومع هذا، فقد خُيِّل إليه أنَّ ضحكة صبحي تقطر هزءًا به:

ـ أنت لا تستطيع أن تنسى أنَّك شاعر.. فإنَّك تريد أن تخضع كل شيء لهذه النزعة. لقد كانت أمامك امرأة، فطلبت فيها الشاعرة فحسب!

ولم يكن له مفرّ بعدُ من أن يقصّ لصبحي قصّته مع ليليان، على شدّة زهده بذلك، فارتدى ثيابه ومضى بصديقه إلى «الكابولاد».

وبعد ساعة قضياها في المقهى، نادى الخادم ليدفع له ثمن الشراب الذي تناولاه. ولكنَّه فوجئ بفراغ محفظته من المال الذي كان فيها.

ودفع صبحي المبلغ المطلوب، وهو حائر بين أن يحزن ويضحك. ثم نهض ممسكًا بذراعه. وشعر هو بامتقاع وجهه، فابتسم. ولكنَّه كان على يقين من أنَّ بسمته لم تزد وجهه إلاّ امتقاعًا. وأحسَّ بالفراغ، فراغ محفظته. لا بدّ أنَّها، هي، انتهزت فرصة خروجه من الغرفة لقضاء إحدى حاجاته، فسلبت محفظته مالها، ثم أعادتها. وسمع صديقه صبحي يقول له، وكأنَّه يعزِّيه:

ـ على أيّة حال.. إنَّ مَنْ يسرق شعر رجل مثل جاك بريفير، لن يتورَّع عن سرقة مالِ رجلٍ مثلك!

---

١ ـ Déjeuner du Matin - Paroles - Jacques Prévert.

ـ ٧ ـ

واتّجه همّه مع صديقيه إلى البحث عن غرف متواضعة تتناسب والمبلغ الذي كان كلّ منهم قد قدّره لسكناه. وكان على يقين من أنّه سيشعر ذلك الشهر بالضيق الماليّ، بسبب ما بذّره في شراء الكتب وارتياد المقاهي، وبسبب هذه الآلاف الخمسة من الفرنكات التي سرقتها ليليان. إنّها لم تخابره في اليوم التالي، ولن تخابره بعد أبدًا، بل لعلّها لن تظهر في الحيّ اللاتيني بعد ذلك إطلاقًا. وإنّه لمن حظه أنّ بقية ماله كانت مخبّأة في محفظة ثانية، وإلاّ ...

ومضى مع صبحي وعدنان إلى تلك المكاتب الكثيرة المنتشرة في كل حيّ من أحياء باريس، والتي تتولّى إرشاد الراغبين في استئجار الغرف والبيوت أو تأجيرها. وانطلقوا يبحثون عن هذه العناوين التي نقلوها من سجلاّت تلك المكاتب، فضربوا في كلّ حيّ من أحياء باريس، بل تجاوزوها إلى الضواحي في القطارات، ولكنّهم لم يرتاحوا إلى أيّ من تلك الغرف التي شاهدوها. فبعضها كانت تعوزها النظافة، وبعضها النور، وبعضها الدفء. وكان عدنان يقول إنّه يريد غرفةً تُشعره بصداقتها، ويردف موضحًا:

ـ أريد أن أُحسّ بهذه الصميمية التي توفّر لي الثقة والطمأنينة فأنصرف إلى عملي راضيًا.

ويعلّق صبحي على هذا القول:

ـ أعتقد أنَّ هذه «الصميميَّة» إحساس تخلقه العادة، ولا ينشأ من الوهلة الأولى. وهذا يعني أنَّك ستشعر بالصميميَّة في أيَّة غرفة تسكن فيها ردحًا من الزمن.

فلم يقتنع عدنان ولم يشأ أن يمضي في النقاش. وما لبثوا أن طرقوا باب منزلٍ في ضاحية «فانسين» أخذوا عنوانه من أحد المكاتب، ففتحت لهم سيِّدة لا يبدو أنَّها تتعدَّى الثلاثين من عمرها، ممشوقة الجسم، سمراء الوجه، ذات سحر وإغراء. وقد استقبلتهم باسمةً مرحِّبة وأدخلتهم غرفة مؤثَّثة نظيفة طلبت ثمانية آلاف فرنك أجرًا شهريًا لها. ولكن الثمن بدا له ولصبحي غاليًا جدًا، فظهرت على وجهيهما سيماء الخيبة. وأدهشهما أن يسمعا صديقهما عدنان يخاطب السيدة ببرودته المعهودة، فيعلن أنَّه يقبل بدفع هذا الأجر وأنَّه عائدٌ صباح اليوم التالي ليقيم في الغرفة. ثم يسارع فيدفع ألفي فرنك عربونًا يربط به صاحبة الغرفة خشية أن تؤجّر سواه!

وما كادوا يغادرون المنزل، حتى التفت عدنان إليهما قائلاً وهو يبتسم:

ـ تريدان الحقّ؟ لقد شعرت بصميميَّة هذه الغرفة سريعًا!

فابتدره صبحي:

ـ بأسرع ممَّا يُتوقَّع! لقد شعرتَ بصميميَّتها حتى قبل أن تراها... أقصد منذ أن رأيت السيدة الفاضلة!

وانفجروا ثلاثتهم ضاحكين.

أما هو وصبحي فقد أنفقا أربعة أيام كاملة من غير أن يهتديا إلى غرفتين يرضيان عنهما. ثم استقرَّا في فندقين متواضعين متجاورين من

فنادق الحيّ اللاتينيّ يشرفان على «البانتيون» مقبرة العظماء الفرنسيين. وقد اختار صبحي غرفة من غرف الطابق الثالث في «فندق البانتيون» بأجرة ستة آلاف فرنك في الشهر، واختار هو غرفة من الطابق السادس الأخير في فندق «ليغران زوم» بأجرة خمسة آلاف. والحقّ أنَّهما آثرا النزول في هذيْن الفندقين لقربهما من السوربون وكلية الحقوق اللتيْن كانا يستطيعان بلوغهما بأقلّ من خمس دقائق.

ثم اتّجه همُّهما إلى تسجيل اسميهما في أحد مطاعم الطلاّب التي تقدّم الطعام بمبلغ يسير لا يُرهق جيوب هؤلاء الذين لا ينعمون إلاّ بمبلغ محدود من المال يُرسل إليهم من بلادهم، منحة من الحكومة أو مساعدة من الأهل لاستكمال أسباب تحصيلهم العالي. وقد وُفِّقا إلى الالتحاق بمطعم «لوي لوغران» التابع للمعهد الذي يحمل الاسم نفسه، والقائم قبالة السوربون في شارع «سان جاك»، وكانا يقصدان هذا المطعم مرّتين كل يوم، يتناولان فيه الغداء والعشاء. أما فطور الصباح، فكانا يتناولانه في غرفتيهما بالفندق حليبًا وشايًا وزبدة يبتاعانها من حانوت قريب. وإذ أجريا حساب نفقاتهما الشهريَّة، تبيّن لهما أنَّ بوسعهما أن يخصِّصا ليوم الأحد من كل أسبوع نفقة استثنائية يصرفان بعضها في مطعم عامّ، وبعضها الآخر في مشاهدة مسرحيَّة من هذه المسرحيَّات الكثيرة التي تعرضها المسارح الباريسيَّة، والتي أشعرتهما بأنَّ بلادهما، بل الشرق كلّه، محرومٌ من نعمة عظيمة ينعم بها الناس في الغرب وينشدونها ويحرصون عليها، حتى لقد غدت حاجةً حيويَّة من حاجات معيشتهم.

وقد استشعرا أول الأمر راحة واطمئنانًا لحياتهما تلك، تجري في نظام مرسوم، بين الجامعة والمطعم والفندق والمسرح والكتاب. ولكن لم يكد يمضي أسبوع واحدٌ على إقامتهما في الفندقين حتى أحسّا بالضجر، وبأنَّهما قد أحاطا نفسيهما بسياج قاسٍ توشك حدوده الضيِّقة أن تخنقهما.

على أنَّ أحدهما لم يجرؤ على مكاشفة صاحبه بهذا الشعور، كأنَّما كان يرى في ذلك اعترافًا بضعف، أو انتقاصًا من قدْر نفسه.

وقد أدرك هو أنَّ صديقه صبحي كان أسرع منه في العمل للتحرُّر من هذا الشعور وتحطيم هذه القيود، فقد ألفاه يخرج على النظام الذي شارك في رسم خطوطه، فيمتنع أحيانًا عن الذهاب إلى مطعم «لوي لوغران»، ويقصد المسرح في غير يوم الأحد، ويرتاد السينما متى عنّ له ذلك. ولم يكن صبحي ليخفي عنه شيئًا من أمره، بل هو قد روى له أنَّه تعرّف إلى فتاة من طالبات الحقوق بدأت تشغل فكره، وأنَّها قد صحبته إلى أحد المسارح، وأنَّ علاقته بها تتوثّق يومًا بعد يوم.

إنَّ صبحي لعلى حقّ. إنَّ هذه الصداقة التي تجمع بينهما لن تبلغ إلاَّ أن تُبعدهما عن خوض الحياة ما عمَّقت واشتدّت أواصرها. لكأنَّها ملاذٌ لهما من هذه الخيبة التي أصاباها، أوخيِّل إليهما أنَّهما أصاباها في الأسابيع الأولى من وصولهما إلى باريس، أو هي ملجأ من ذلك التهيُّب الذي يمسكهما دون الانطلاق في غمار هذه الحياة المتحرِّرة التي لم يتعوَّداها. لقد أدرك صبحي دون ريب أثر هذه الصداقة في ما هما مقبلان عليه. فاهتدى بغريزته إلى وجوب التحلّل منها، أو إكسابها معنى آخر، غير هذا المعنى الذي يضيِّق الأفق ويزيد في الإحساس بالوحدة. ولِمَ تُراه يتردّد في ذلك، وقد رأى صديقهما عدنان يختطّ لنفسه طريقًا حرًا هو وحده الكفيل بأن ينّمي شعوره بذاته، ويبلور إحساسه بشخصه؟ فلينطلق هو أيضًا، صبحي، في مثل هذا الطريق، ولعلّه لن يندم في سلوكه.

كان يدير هذا كلّه في ذهنه، وهو يلاحظ أنَّ صبحي يبتعد عنه رويدًا رويدًا. ولقد استشعر لذلك بعض الضيق والأسى، ولكنَّه لم يشأ أن ينحي باللائمة على صديقه أنَّه قد خلّفه وحده، وتوقّف عند معنى الصداقة يستكشف صفحاتها. أيكون من الصداقة أن يخلقا حلبةً محدودة تأسن

فيها العواطف فيما هي تعمق؟ أليس كذلك هو شأن الصداقة هناك، في بلاده، في الشرق، في بلاد العرب؟ ما قيمة تلك الصداقات بين الفتيان والشبّان؟ ما قيمة تلك الصداقات بين الفتيان والشابّات في الشرق؟ إنَّ تلك الصداقات لا تقوم حقًا على أساس من المحبَّة الخالصة، وإنَّما تقوم على أساس من الحرمان المتبادل... الحرمان المنتصب حدًا فاصلاً بين المرأة والرجل، بين الذكر والأنثى. هكذا ينشأ الرباط بين شابّ وشابّ، وبين فتاة وفتاة، يُفرغُ كلٌّ على رفيقه مذخور قلبه من العاطفة المكبوتة، فيحسب أنَّها الصداقة الخالصة وهي في الحقّ حبٌّ منحرف. ويكفي أن تتّجه هذه العاطفة وجهتها الصحيحة فيجتمع الشاب بالفتاة، وتجتمع الفتاة بالشاب، حتى تنهار تلك الصداقات، أو تتزعزع أواصرها على الأقل... وما أكثر ما ينسى الشابّ صديقه في الشرق يوم أن تدخل في حياته فتاة، وما أكثر ما تنسى الفتاة صديقتها، يوم أن يدخل في حياتها شابّ.

أما هنا، في الغرب، فإنَّ الصداقة.. لا، ليس لك أن تحكم بعد، فأنت لم تعرف صداقات الغربيِّين فيما بينهم. على أنّ بوسعك أن توقن بأنَّ الصداقة ليست حبًا مكبوتًا أصابه الانحراف.

وإذن فإنَّ صبحي لعلى حقّ. فليس هو بَعدُ في الشرق ليرتضي التآكل بلهيب الصداقة المخنوقة. فليخرج إلى الدنيا الواسعة، ولينْسَ هذا الإخفاق الذي أصابه، فقد لا يكون إلاّ أثرًا من الشعور بالنقص ورِثه لاوعيه من غريزة راسية في أعماقه. أفيكون إدراكك هذا كافيًا لأن يدفعك إلى إقامة الصداقة بينك وبين صُبحي، بينك وبين أيّ إنسان، على قاعدة أخرى؟ ذلك هو الامتحان الذي هو مدعوٌّ إلى دخوله الآن.

وحين طرق عليه صبحي الباب في اليوم التالي، كانت بصحبته فتاة، زميلته في معهد الحقوق. وكانت فتاة فارعة القامة، سوداء الشعر، مستطيلة الوجه، تشعّ قسماتها ذكاءً وجمالاً. وكان صبحي يحدّثها وهو

يفيض سعادة وفرحة. وحين غادراه، كان على يقين من أنَّ صداقته لصبحي ستصبح صداقة صحيحة خالصة يوم يلتقي مثله بفتاة تُطلق مشاعره الحبيسة من عقالها وتردّ أحاسيسه إلى موضعها الطبيعي من قلبه وروحه.

ولكن يقينًا، لم تكن هذه الفتاة التي التقى بها بعد أيام في باحة الفندق، هي الفتاة التي كان ينشد لقاءها.

لقد غادر غرفته في الطابق السادس صباح ذلك اليوم، وهو يُحسّ رضًى وطلاقة، فإذا هو ببضع رسائل تطلّ من علبة غرفته في لوحة الفندق، فاستخفّت به الفرحة: رسائل من أهله وأصدقائه، جلس في الباحة ليفضّها ويقرأها.

وكان يقلّب بين يديه رسالةً عليها طابع بريد الوطن ويتساءل عمَّن يكون مرسلها، حين أحسّ بجسم يجلس غير بعيد عنه، على المقعد الطويل. ورفع بصره ينظر، وسرعان ما خفق صدره. كانت ذات عينين تتفجَّران حيوية، وجرأة، وتحدِّيًا. عينان يحسب أنَّ عينيه لن تقاوما نظرتهما طويلاً إذا شاءتا أن تقابلاهما. وكان شعرها كستنائي اللون قصيرًا، يُكسب الوجه مزيدًا من نضارة الشباب.

ولم تُتح له أن يمضي في تأمُّلها، إذ مدّت ذراعها نحو الطاولة التي كان يجلس إليها، فتناولت جريدة، وقالت في لامبالاة:

- هل هي جريدة اليوم؟

فالتفت حوله يتبيّن الشخص الذي خالها توجّه إليه السؤال، فلم يَرَ أحدًا. وعراه الاضطراب. إنَّها إذن تسألني أنا بالذات. ونظر إليها، فإذا هي ترنو إليه.

وحين مدّ رأسه قليلاً ليقرأ تاريخ الجريدة، شعر بالدم يبعث الحرارة في وجنتيه وجبينه، فيحسّ لها بمثل وخز الإبر. وتأتّى له أن يقول متلعثمًا:

ـ نعم، تاريخ اليوم.

ورفع نظره، فجمدت عيناه في عينيها الرانيتين. يا إلهي.. ما أعمقهما! ما أبعد قرارهما! أيّ إشعاع تبعثان؟!

ـ أعذرني... شغلتك عن رسائلك.

وفوجئ مرّة أخرى بهذه العبارة. كان قد استعاد بعض طمأنينته، حاسبًا أنَّها سألته سؤالها وانتهى الأمر. ولكن يبدو أنَّها مصرّةٌ على أن تحدّثني. وأحسّ بمثل الرضى، على الرغم من أنَّ الاضطراب لم يزايله. وقال متشجّعًا:

ـ أبدًا...

قالت، وطيف بسمة يراود شفتيها الريّانتين:

ـ لا بدّ أنَّها رسائل من أعزّاء...

فسارع يقول:

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ لقد رأيتك شديد الاستغراق فيها...

ـ إنَّ إحداها من أمي، وبعضها من أصدقاء.

ـ أعتذر لك ثانية يا سيّدي. إنَّ فضولي قد يزعجك!

ـ على الإطلاق يا آنسة. بل هو دليل ذوق مرهف!

وأدرك سريعًا أنَّه قال العبارة الأخيرة دون أن يعنيها أو يفكّر فيها.

وظلّت مع ذلك تحدّثه وتهتمّ لحديثه. وأخبرته أنَّها تنتظر صديقة لها تنزل الفندق نفسه. وأحسّ بارتياح لحديثها، فهو بسيط طبيعيٌّ لا تصنّع فيه، وشعر كأنَّما يعرفها منذ أشهر، حتى أنَّه لم يجد أيّ تردُّد أو هيبة في أن يدعوها إلى تناول فنجان «قهوة تركية» في غرفته، ريثما تأتي صديقتها، فتردّدت قليلاً ثم قالت:

ـ إنَّك تغرينى كثيرًا بهذه «القهوة التركية». فقد ذقتها مرّة في مطعم مراكشي، وما زال طعمها تحت لساني!

وضحكت وهي تنهض، فرقي بها السلّم. وراحت تجيل نظرها في أرجاء غرفته، إذ بلغاها، ثم اتّجهت إلى الرفّ الذي جعل عليه مكتبته، فأخذت تقرأ عناوين الكتب، بينما انصرف هو إلى إعداد القهوة. ورآها بعد لحظات تتحوَّل عن الكتب فتقف أمام مصباح كهربائي صغير كان قد جلبه معه من بيروت، وهو يمثِّل أعرابيين صُنعا من مادّة معجَّنة مطليّة، وهما جالسان في زيّهما البدوي يدخّنان «النارجيلة».. وظلّت لحظاتٍ وهي تتأمَّلهما بإعجاب، ثم انصرفت عنهما ودنت منه، وإذا بها تلقي يدها على كتفه بلامبالاة طبيعيَّة وتقول بلهجة تودُّد:

ـ أحسب أنَّك لن تبخل عليّ بهما... كهدية!

وعجب هو نفسه كيف تأتّى له الجواب بسرعة:

ـ أعتذر عن الاضطرار لرفض طلبك يا آنسة... إنَّني لا أستطيع أن أهديهما إلى أحد.

ـ ولماذا؟ أهما هديّة لك؟

ـ لا... وإنَّما...

وكاد يُعجزه الجواب، ولكن التماعةً ذهنية أنقذته:

ـ وإنَّما لا أودّ أن يفارقاني. إنَّهما يحرسانني.

فانفجرت ضاحكة:

ـ وممّ يحرسانك؟

قال بسرعة وهو يحدِّد فيها بصره:

ـ من الأخطار الكثيرة التي تحيط بي هنا.. في باريس!

ورآها فجأة تشتدّ دنوًا منه، وقد غاضت عن وجهها البسمة، وتقف قبالته تحدِّق فيه.

ـ وأنا.. أتعتبرني من هذه الأخطار؟

وتعذّرت عليه الإجابة هذه المرّة، فهو لا يدري أيَّة قوَّة جذبته في عينيها المغنطتين. وظلّ لحظات ينظر فيهما، في أعماقهما البعيدة، ثم خانته قوَّة البصر فأغضى. واستطاع أخيرًا أن يتمتم:

ـ إنَّ في عينيك وحدهما كل أخطار الدنيا!

فضحكت، وزاد دنوّها منه، أو كأنَّما هي ضحكت لتبرِّر دنوّها. وشعر بصدره يخفق إذ أحسّ بشفتيها تلامسان خدَّيه ملامسة رقيقة، وهما تهمسان:

ـ وشفتاي؟

فلم يجب. لأنَّ شفتيها كانتا للتقبيل، للارتشاف، لإسالة الرضاب في الفم. كانتا ليعانَق الجسم الذي يحملهما، ليُصهَر في الذّراعين، ليحرّق في الصدر الأنفاس، ثم ليجرَّد من ثيابه قطعة قطعة، وليلقى على السرير، بل ليستلقي هو نفسه، نابضًا، ناضرًا، يضجّ بالنداء. وشفتاها تانك، كانتا بعد، لتُخمدا اللهاث الراعش، في غمرة اللقاء الأعظم.

ولكن.. ما بالها، هي مرغريت، تسارع بالنهوض ثائرة الأعصاب متقلِّصة القسمات، تتمتم كلمات لا تبين، ولا تنمّ إلاّ عن غضب مكبوت وحنق تحاول جهدها أن تكظمه؟ وإذ اقترب هو منها ممتلئًا عجبًا، نفرت، تقول:

ـ ابتعد عنِّي.. كلّكم هكذا أنتم الرجال.. أنانية قذرة!

وارتدت ثيابها على عجل، ثم فتحت باب غرفته، وخلَّفته في عَجبٍ يكاد يتحوَّل إلى بلاهة.

ـ ٨ ـ

وتوجَّـه إلى فندق «البـانتـيـون» المجـاور، يدقّ باب صـبـحـي، ولـكنَّه لم يجـده في غرفته، فتابع هبوط السلّم، وغادر الفندق كئيب النفس، لا يدري مـا ينبـغي له أن يفـعل. غيـر أنَّه التقى عـدنان عند مـنعطف «شـارع سـوفلو»، وكان يقصد إلى زيارته وصبحي في الفندق. وقد ردّ إليه لقاؤه بعدنان بعض الهدوء، فـاقترح عليـه أن يصحبه إلى «غابة بولونيا»، في ذلك الطقس الذي يذكّر بالربيع. ولم يتردّد في أن يروي لصديقه قصته مع «مرغريت». وكأنَّما أحسّ عدنان بأنَّ تلك الحادثة قد مـلأت صدره هو غمًا، فـجـهد في أن يهوّن عليه الأمر:

ـ إنَّ هذا شيء غير ذي بال. إنَّه نقصٌ في التجربة لا غير.

أيَّة تجـربة بعـد؟ أمـا يزال يفـتـقـر إلى أدلّة؟ ألا تكفي هـاتان التجريتان: ليليان ومـرغريت؟ وحتى تلك الحـاجـة التي كانت تتأكل جسده، أتراه قد بدأ يشبعها كما كان يتمنّى، أكان فيها غير رُغام؟ وحل؟ مادّة قذرة؟ أيّ إحساسٍ أيقظته في جسمه وفي نفسه هاتان المرأتان اللتان استسلمتا له منذ اللقاء الأول؟ هل أحسّ لإحداهما بأيّة عاطفة، هل اهتزّ في قلبه لهما وتر؟

ماذا؟.. ألمثل هذا إذنْ قدِم إلى هذه البلاد، وغادر ذلك الوطن؟

إنَّ كل ما يبغيه الآن أن يُلقي دون حاضره هذا حجابًا كثيفًا، أن ينسى.. ولكن ما باله قد نسي حقًا هذه الرسائل، رسائل أمّه وأصدقائه، التي تناولها صباحًا من علبة غرفته في لوحة الفندق؟

وفيما هو يدلف مع عدنان إلى محطّة المترو في «الأوديون»، أخرج الرسائل من جيبه وفضّ منها رسالة أمّه. ما أشدّ حاجته الآن إلى أن يتملّى وجهها الصغير الحلو، ويقبّل تلك الشامة في عنقها، ويحدِّثها عن مطامحه فيقرأ في بريق عينيها بريق أمانيه!.. ما أشدّ حاجته الآن إلى أن يجلس إلى إخوته، فيستمع إلى أخيه الأكبر يسخر بمشاريعه الخياليَّة، ويحدِّث أخته ويسألها رأيها في آخر قصيدة له، فتقول أنَّ لا بأس بها، ولكن.. كم تمنَّى يومًا ألا تستدرك أخته بـ «لكن» هذه.. وإنّ بودّه الآن أن يعين أخاه الأصغر في ضبط قراءته العربيَّة، وإنَّه ليذكر أنَّ أخاه هذا كان كثيرًا ما يعود إليه بدفتر الحساب، ليعرض عليه عملية حسابيَّة، فيعتذر هو بأنَّ صداعًا يُلمّ برأسه، ويحوِّله على أخته، فتضحك أخته وتفهم..

ويمضي في تلاوة رسالة أمّه، فتستوقفه عبارتها:

«أعود فأحذِّرك يا بنيّ من نساء باريس... وقاك اللّه شرّ بنات الحرام..» فيذكر ليليان، ويذكر مرغريت، وإن كان في ودّه أن يستبعد مرغريت. ومع ذلك، أليست هذه منهنَّ، أولئك اللواتي تحذِّره منهنّ أمه؟ ما القول في امرأة تستسلم منذ اللقاء الأول؟ أتراها من هاتيك الفتيات الشريفات؟

هاتيك الفتيات، من قريباته وغير قريباته، أولئك اللواتي عمرن خياله وأحلامه؟ ألست ترى الحرمان الذي عشت منهنَّ فيه خيرًا من هذا العطاء الذي تعيش فيه من نساء باريس؟ وهاتيك الفتيات، ألست بعدُ...

ـ هذه محطة «الايتوال»...

فطوى رسالة أمّه، وتبع عدنان في نفق المترو. ولكنَّه ما كاد يمشي خطوات حتى تناهى إلى سمعه في منعطف النفق نغمٌ هزَّه حتى أعماق وجدانه، فحثّ خطاه فإذا هو بضرير يستجدي على الأكورديون. ورجا صديقه أن يتوقف لحظات، فاستند إلى الجدار.. وأنشأ يُصغي، وهو يحسّ بأنَّ مغاليق نفسه كلّها تتفتّح.

بلى، إنَّه Tristesse، نغم شوبان الخالد.

ها هو ينبع من بين أصابعها هي، ناهدة، وهي تضع الأسطوانة على الغرامافون.

كانت تعرف أنَّه يحبّ هذا النغم، لأنَّه كان يحسّ كلَّما سمعه أنَّ بودّه أن يبكي. لعلّها هي أيضًا تريد الآن ذلك. ولكن، أليستْ تبالغ في قسوتها؟ أما كان ينبغي لها أن تُشارك في انطلاق النفوس، نفوس ذويها وذويه؟ لماذا تريد أن تخلق له ولها هذا الجوّ المثقل بالحنين والألم؟ لماذا تُصرّ ناهدة على أن تطبع اجتماعهما هذا الأخير بطابع الفجيعة؟

لقد حاول منذ أن طرق بابهم مع أهله أن يشيع المرح في هذا الاجتماع الساهر، فأصاب في ذلك فوق ما كان يرجو، وانطلقت الضحكات، ومضى كلٌّ يردّد نكتة، فيقهقه له الباقون، وهي، ناهدة، كانت أوفرهم ضحكًا وأشدّهم مرحًا، كأنَّما هي نُسيت أنَّه، صباح الغد...

ووحده لاحظ أنَّها تخنق الضحكة، وتغيّض البسمة، وتلبث صامتةً كأنَّما هي ذكرت أنَّه، صباح الغد..

ولم تمض دقائق حتى اتَّجهت إلى الغرامافون، فانبعث صوت «تينو روسّي» في «كآبة» شوبان. كم يؤذيه حرصها هذا الشديد على أن تؤذي نفسها، أن تتلذّذ بالعذاب! يا إلهي... سوف تغرق الآن في ظلامها، في أحلامها، في خيالاتها السوداء. ستظلّ طوال الليل، بعد أن يودّعها لآخر مرّة قبل سفره، مفتوحة العينين، تحدّق في الليل.

"L'Ombre s'enfuit...

Adieu mes rêves..."

«وانسلّ الطيف مبتعدًا..

وداعًا يا أحلامي..»

وأطرق هو كذلك يستمع. أيتركها حقًا؟ أتغيب عن عينيه، إلى أمد لا يدري كم سيطول، هذه الصورة الرائعة، تجمّل الدنيا في عينيه، وتُبعد شبح اليأس إلى الأبد؟

وتنبّه فجأة إلى ما حوله. أيّ صمت يرين الآن على الحضور جميعًا! أتهزّهم كلّهم في هذه اللحظة خلجةٌ واحدة؟ ورهُفَ في نفسه الشعور واستدقّ، وأحسّ أنّه هو المسؤول، فتداركه الخجل. ولكن أخته وقفت على دخيلة نفسه فقطعت الصمت تقول:

- أية أسطوانة حزينة هذه يا ناهدة؟ ضعي لنا «فالس» أو «سوينغ» ولا نفسد هذه السهرة الأخيرة!

وتثاقلت ناهدة في خطوها، وهي تغتصب البسمة، فأبدلت الأسطوانة فإذا هو «تانغو» حالم ينساب في النفوس فيستنفرها للرقص. ولم تعد هي إلى مجلسها، بل ظلّت واقفة تنظر إليه، وقد اكتسى ثغرها كآبة كأنَّما هي لحن شوبان، غاض في الأسطوانة ليستقرّ على شفتيها! وقالت له أخته، وقد لاحظت أنّه لا يريم:

- ماذا تنتظر؟ إنَّ الجميع يرقصون ما عداك. ثم ألست ترى ناهدة وهي تنتظرك؟

ولم يكن يرغب في الرقص تلك اللحظة. كان يدرك أنَّ أخذها بين ذراعيه هذه المرّة سيعود عليه بإحساس شاقّ يزيد في انهيار نفسه، ولعلّه يهدم في نفسها هي أيضًا كلّ تماسك لا تزال تحتفظ به. ولكن لم يكن له

بعد ذلك مفرّ، فنهض متَّجهًا إليها، وهو يحرص على أن يشيع على وجهه سيماء الانطلاق والجذل.

ولكنَّه ما كاد يمسك يدها ويطوّق ظهرها، حتى عاودته تلك الرعشة. كان كلّما راقصها أحسّ ارتعاشة تسري في جسده كلّه، تستجيب لها في قرارة نفسه هزّةٌ قوية تخلق له مزيجًا من القلق والرضى، من الفرحة والأسى، من اللّذّة والألم. ولم يكن يدري سبب ذلك. ولكنَّه كان يدرك أنّ تلك اللحظات يقضيها وهو يراقصها، تخلّف لديه شعورًا بوجوده كلّه يتجمَّع في نفسه فيهتزّ للمسة العابرة، والهمسة الحالمة، والنظرة العجلى.

ولم يكن يومًا ليحاول أن ينظر في عينيها. فقد يكون واثقًا أنَّهما ستفضحان ما كان يحرص على طيّه، وما كان لسانه يخرس عن إعلانه. كان دون ريب يحبّها، ولكنّه الحب الذي لا يُصرّح عنه، ولا يُتحدَّث فيه. وهي كذلك، لم تعبّر يومًا عن خلجة مما في نفسها، ولم تكن تُحدِّثه إلاَّ حديث الشعر، فيشعر أنَّها تحبّ شعره، وأنّها تحبّه هو نفسه قليلاً عَبْرَ شعره، بل لعلّها تغلّف عاطفتها نحو شخصه بهذا الغلاف من الإعجاب بأدبه...

ـ رقصتنا الأخيرة إذن...»

همستها همسًا واهيًا غير واع. وشعر للمرّة الأولى أنَّها تشتدّ التصاقًا به، فضغطها إليه في حنين وقداسة، وفي شيء من الأسف كذلك. لماذا أيقظته على الواقع المرير، هذا الذي يهدّدهما الآن بالانفصال والغيبة؟ وللمرّة الأولى منذ أن عرفها، تمنّى لو أنَّهما كانا وحيدين، ليستطيع أن يأخذها من كتفيها بقوّة، ويحدّق في عينيها بلهفة، ويسألها سؤالاً واحدًا ما فتئ يدور في صدره وفي حلقه. ولكنَّه يذوب إذ يبلغ شفتيه. يودّ أن يسألها إذا كانت ستنتظره. ولكنَّه لا يستطيع أن يسألها ذلك، إنَّ بوسعه أن يقول لها كلّ شيء، إلاَّ أن يطرح عليها هذا السؤال. لا يدري لماذا. كأنَّما لا يريد أن

يربط نفسه بميثاق. كأنَّما... لا، كل هذا هراء. إنَّه، بكل بساطة، لا يستطيع، لا يستطيع.

وإذن فلا سبيل إلى الكلام. وظلاّ صامتين، لا هو يجرؤ فيقول، ولا هي. ليس أشقّ من الصمت إذ يكون الفم طافحًا بالكلام. ولكن ماذا عساه يقول غير التافه في هذه اللحظة المقطّرة بالإرهاف؟

وسمعها فجأة تهمس باسمه، فهمهم باسمها. وقالت له:

ـ إذن الساعة العاشرة قبل الظهر...

يا إلهي... ما غايتها إذْ تهزّني هذا الهزّ العنيف؟ وما عساي أستطيع أن أقول؟ لا شيء يحرّرني الآن من ضيقي إلاّ أن تتكلّم هي.

ـ صوت الباخرة... أحسب أنَّه سيظلّ يملأ نفسي بأصدائه المخيفة. كم أودّ ألاّ أستطيع سماعه عند الساعة العاشرة...

ثم صمتت، ثم رقّت وذاب في عينيها الحنين الحزين.

وعبثًا حاول أن يقول كلمة، كأنَّما ضُرب على فمه بالبكم، وعلى فكره بالبلاهة، وآثر أن يلزم الصمت حتى لا يُفسد آياتها.

ـ أتعرف معنى الساعة العاشرة في حياتي بعد الآن؟ ثلمٌ عميق، كالذي ستشقّه الباخرة غدًا حين تمخر الماء، مبتعدة عن الشاطئ.. جُرحٌ عميق.

وانقطع صوت الغرامافون، فحمد له ذلك، وأنكره عليه. لقد حرَّره من بلاهته، ولكنَّه حرمه من دفئها، دفء قربها، دفء حبّها، دفء كلماتها. ثم إنَّه كان يريد أن يقول لها شيئًا، أن يسألها إذا كانت ستنتظره.

ونهض مع ذويه يودّعهم. قالت أمّه إنَّ عليه ألاّ يسهر الليلة، فينبغي له أن يفيق باكرًا صباح الغد. ولبث ينظر إلى ناهدة، وهي لا تبرح موقفها بجانب الغرامافون. وأقبلت عليه تودِّعه كما ودَّعه ذووها. ورأى على شفتيها بسمة مشرقة، كلّها انطلاق وتشجيع، ولكنَّه قرأ في عينيها البكاء.

وحين اجتاز عتبة الباب، انبعث في سمعه وسمع ذويه جميعًا مطلع الأغنية المشهورة:

“J’attendrai le jour et la nuit

J’attendrai toujours ton retour”.

«سأنتظر ليل نهار...

سأنتظر أبدًا عودتك...»

وتنبّه فجأةً على يد عدنان تهزّ كتفه:

ـ هل في نيّتك أن تنام هنا، في نفق المترو؟

فابتسم ابتسامة شاحبة، ثم قال:

ـ لا.. وإنّما كنت أنتظر ريثما ينتهي الضرير من عزف «تريستس».

ـ أو لا ترى أنّه قد انتهى؟

فتقدّم من عازف الأكورديون، ووضع في علبته قطعتين من النقد، ثم خطا مبتعدًا، وعدنان إلى جانبه. ليليان، مرغريت.. وناهدة. يا إلهي...

ولاحظ أنَّ عدنان ينفصل عنه، فيعود أدراجه إلى عازف الأكورديون، ويضع في علبته قطعة من النقد، ثم يهمس في أذنه كلمة، وما يلبث أن يلحق به. وإن هي إلاّ لحظة، حتى انبعث نغمٌ مرح، ضاحك، راقص، من منعطف النفق.

وكانا قد بلغا باب الخروج، فواجهتهما سماء مضيئة باهرة، إذ قال له عدنان:

ـ هل تسمع ذلك اللحن؟ إنّه «أنوار باريس».

أنوار باريس...

وأردف عدنان وهو يهزّه بشبه عصبية:

ـ أنت تنسى أنَّك في باريس... عشْ هنا يا صاحبي... فلن يجديك أن تعيش في بيروت، وأنت هنا، في باريس! ولن يجديك أن تعيش في ماضيك، وأنت في حاضرك...

- ٩ -

أتحسب أنَّك لم تخطئ في إفراغ جيبك كلّه ثمنًا لهذه الكتب الكثيرة التي كنت تتعثَّر بحملها؟ وهل تراك ستقرأها كلّها اليوم أو غدًا؟ أما كان أجدر بك أن تجتزئ ابتياعها كتابًا كتابًا؟

ولكن ما كانت هذه بغيته. كان يريد أن يحيط نفسه بالكتب من كلّ جانب، فلا يزهد في القراءة، ولا يستطيع أن يخترق هذا النطاق الذي ضربه حوله. ولكنَّه لم يكن بحاجة إلى هذا كلّه. فما هو بخارجٍ ولو فُتّحت الأبواب كلّها، لأنَّه لن يستطيع الخروج. كان يعيش حينذاك داخل نفسه. أما الكتاب الذي يقرأ فيه فلا يفهم، فليس إلاَّ تعلّة. فليوصد الأبواب دون كل زائر، أو فليفتحها لكلّ فضولي، وليراكم حوله أطنان الكتب، أو فليُخفّها عن عينيه، فليست هذه القشور ببالغةٍ منه شيئًا، ولا مفرّ له من أن يستسلم لهذا الانطواء.

ولم يفلح صبحي ولا عدنان في إخراجه من نفسه. ولعلّ ما زاده رغبة في هذه العزلة يقينه أنَّ صديقيه يصيبان في علاقتهما الجديدة بالمرأة ما لم يدركه هو. أيكون إذن لونًا من الحسد لا يجد متنفّسًا له إلاَّ بتعذيب نفسه؟

على أنَّه تعرّف في هذه الأثناء إلى شابّ سوريّ لقيه في مطعم «لوي لوغران» فأنس إليه منذ اللحظة الأولى، وأصبح يلتمس لقاءه والجلوس إلى

قريبه كلّما قصد مطعم الطلاّب. ولا يدري أيّ رابطة شدّته إلى «فؤاد».. قد يكون هذا الشعاع الحائر الذي ينبعث من عينيه، وقد يكون هذا القلق الذي يرتسم على قسمات وجهه كلّما تحدَّث إليه، وقد يكون ذلك الهدوء والتعمُّق في بحث الموضوعات التي كانا يعرضان لها.

وكانا إذا ما فرغا من تناول الطعام في مطعم الطلاّب، مضيا إلى «الكابولاد» ليحتسيا فنجانًا من القهوة. وهناك كانا يلتقيان طائفة من مواطنيهما السوريين واللبنانيين، ومن العراقيين والمصريين والتونسيين. وقد كان هو في الحقّ ينفر من لقاء هؤلاء المواطنين، ويتجنّبهم، ويعتقد أنّ من الخير أن يعيش في غير أجوائهم، فإنَّ في أحاديثهم هذرًا كثيرًا، وفي وقتهم ساعات كثيرة مهدورة. وكان على يقين من أنّ قراءة فصل في كتاب خيرٌ من محادثة أيّ من هؤلاء المنتشرين على الطاولات هنا وهناك، لا يفعلون إلاّ أن يعلِّقوا على الفتيات اللواتي يدخلن المقهى، أو يتبادلوا الضحكات والفكاهات.

وكان يومًا مع فؤاد يحتسيان قهوتهما بهدوء، وإذ بضحكة مجلجلة تدوي بها القاعة، وتظلّ متتابعة لحظات، فتنتشر أصداؤها في جميع الأركان. ويلتفتان فإذا هو أحد إخوانهم السوريين، وكان معروفًا بظلّه الثقيل وحسّه المتبلّد. وإن هي إلاّ لحظة، حتى تناهى إلى سمعهما صوت نسائيّ يقول بلهجة عصبية، وبالفرنسية:

ـ أيّ متوحّش هذا! لا بدّ أنَّه عربيّ!

والتفتا إلى مصدر الصوت، ولم تخفَ عليه الانتفاضة التي هزّت جسم «فؤاد»، فيما هو يلوي رأسه. فإذا هما فتاتان تتنحيان زاوية من المقهى، كانا هما أقرب الحضور إليها. وأدرك أنَّ صديقه يعاني جهدًا ملحوظًا لكبت ثورة تجيش بها نفسه. ورآه يحدِّق بالفتاتين، وعلى شفتيه شبه ارتعاشة. ثم نهض فؤاد فجأة، واتّجه إلى الباب، فلم يسعه إلاّ أن يلحق به.

وفي الطريق، رأى أساريـر صديقه تنبسط، والهدوء يعود إلى قسماته. وظلاً لحظةً على صمت، شعر هو بأنَّه بدأ يثقل عليهما، فألفى نفسه يقول:

ـ الحقّ أنَّها وقحة!

وأدرك أنَّ صديقه لم يرتح إلى هذا التعليق البارد، فقد رآه يبتسم ثم يقول من غير أن ينظر إليه:

ـ كدت أقذف هذه العبارة بالذات في وجهها. وحسنًا فعلت إذ أمسكت عن ذلك.

وصمت فؤاد هنيهة ثم استتلى يقول:

ـ إنَّ اللوم لا يوجّه إلى هذه الفتاة. فقد كانت عبارتها ردّ فعل. وإنَّما ينبغي أن نوجِّه اللوم إلى صاحبنا ذاك السوريّ الذي يعتقد أنَّ أسماع الناس وأذواقهم ملك يديه.

وأخذا يتحدَّثان عن بعض المظاهر المؤذية التي يظهر بها مواطنوهما في بعض المقاهي والمجتمعات، وقال له فؤاد:

ـ إنَّني أقدم منك عهدًا في باريس، فأنا هنا منذ عام ١٩٤٧، وقد أتيح لي أن أشاهد كثيرًا من المظاهر المؤذية. ولكن...

ووجد نفسه يقاطعه، وقد ثارت أعصابه:

ـ من أجل هذا تراني أبرم بهم، وألقى خيرًا في تجنُّبهم!

فأجاب فؤاد بهدوء، وهو ينظر في عينيه:

ـ لا يا عزيزي. فأنا أحسب أنَّك على خطأ. إنَّهم لا يوحون بالنفور. وأنت لن تنفر منهم إذا أدركت أنَّهم شبّان قلقون، يبحثون عن أنفسهم. إنَّنا جميعًا، نحن الشبّان العرب، ضائعون يفتّشون عن ذواتهم بأنفسهم. ولا بدّ أن نرتكب كثيرًا من الحماقات قبل أن نجد أنفسنا.. ثم إنَّنا..

ونظر فؤاد بغتة إلى ساعته، وسرعان ما أرسل صفرةً حادّةً، ثم التفت إليه على عجل وهو يقول:

- ينبغي لي أن أبلغ «معهد اللّغات الشرقية» في خمس دقائق، وإلاّ فاتتني ساعة الترجمة.

وظلّ هو واقفًا حيث غادره صديقه، فراح يتبعه نظره، فيراه يحثّ خطاه، ثم ما يلبث أن يهرول حتى يغيب في المنعطف.

والتفت فيما حوله، فتراءت له، في موجةٍ بشرية، وجوه كثيرة يعرفها: صبحي، عدنان، زهير، كامل، ربيع، صالح، أحمد، سعيد... بل فؤاد، هذا الذي يعدو إلى معهده.. كلّهم حوله، وعشرات غيرهم، عيونٌ تطلّ منها أرواح ضائعة، تبحث عن نفسها، على مقاعد الجامعات، وفي مقاهي الأحياء، وبين أذرع النساء. وهو نفسه، هذا «الشيء»، هذه الصَدَفة الجوفاء، هذا العود من القشّ، أليس هو أضيعهم نفسًا، وأشردهم روحًا؟

❖

- إلى مثل هذه الرابطة، إلى مثل هذه الروح، نحن بحاجة أيُّها العزيز.

والتفت إلى فؤاد، هذا الصوت الحبيب الذي أضحى يهزّه في أعمق أوتار صدره. هذا الصوت الأثير الذي ظلّ طوال ليلة أمسِ يجول في مسمعه: إنَّه منذ زهاء ثلاث ساعات لا ينبس بكلمة. منذ ثلاث ساعات، وهما نظران مسمّران على خشبة مسرح «هيبرتو» يتابعان بأعصاب متوتّرة، ونفسين متوفّزتين هؤلاء «العادلين». هؤلاء «العادلون» الذين خلقهم «ألبير كامو» في هذه المسرحية الرائعة ليحمِّلهم رسالة تعطي لحياتهم معنى، فيعيشون من أجل تأديتها، ويكرّسون لها كلّ همّهم في الحياة.

ويضيف فؤاد بعد فترة صمت:

- أرأيتهم هؤلاء المواطنين الذي يجتمعون على فنجان قهوة في «الكابولاد»؟ هؤلاء الذين تريد أن تتجنّبهم؟ إنَّ فيهم نماذج كثيرة من هؤلاء العادلين الذين شاهدناهم الآن. إنَّ «ستيبان» و«كالييف» و«اننكوف» يعيشون فيهم بالعشرات. كلّ ما في الأمر أنَّ الخيوط بينهم مقطّعة، أنَّ الرابطة مفقودة. وإنَّهم لواجدون أنفسهم، متى وجدوا هذه الرابطة. ويومذاك فقط، لن تستطيع أن تتجنّبهم، ولن يتجنّبهم أحدٌ منا، لأنَّه سيكون لرسالتهم قوةٌ جاذبة تكوي بنار المحبَّة والاحترام كلّ من ينظر إليهم. يومذاك لن تنطلق من فم أحدهم تلك الضحكة المجلجلة الفارغة التي تنطق بالعبث واللامبالاة!

وتوقّف فؤاد، ونظر إليه وهو يبتسم، ثم تمتم:

- أعذرني يا عزيزي. لقد استخفّت بي الحماسة. ولعلك الآن تضحك منّي.

وشاء أن يقول كلمة يعبّر بها عمَّا يكنّه لفؤاد، ولكن اللفظ استعصى عليه، وقد أنقذه صديقه بقوله:

- إنَّ أدبنا بحاجة إلى مثل هذه النزعات الثوريّة. وكل ما أتمنَّاه أن أترجم هذه المسرحية يومًا وأبلّغها إلى القرّاء العرب. إنَّنا مفتقرون إلى مثل هؤلاء الأبطال الفدائيّين.

وكانا قد بلغا محطة المترو، فهبطا إليها ليتّجها إلى الحيّ اللاتيني. وكانت القاطرة التي دخلاها تغصّ بالركاب، فاضطرّ إلى الوقوف. ورأى صديقه ينتحي ركن القاطرة القصيّ، ويأخذ يحدّق في الزجاج من غير أن تطرف عينه أو يرفّ جفنه.

أيّة جذوة هذه التي تضطرم فيها روح فؤاد! كيف تراه جمع شرارتها، ومتى أتيح له أن يشعلها في قلبه؟ وهو، أيّ شعور بالنقص هذا الذي يعذّب الآن نفسه! لقد أعجب حقًا بـ «العادلين» وعاش حياة أبطالها، ولكنَّه لم

يستطع أن ينفذ منها إلى ما يمسّ ذاته وحقيقة وضعه، ولولا أنَّ صديقه تعدّى بفكره أحداثها، وكشف عن صفة تشدّ أبطالها إلى شبّان عرب يعيشون في تمرّد مكبوت لا يعي نفسه، لولا ذلك لكان جديرًا به أن ينسى هؤلاء العادلين، وأن تمحّى صورهم من ذهنه في تلك الليلة بالذات.

إنَّك ما تزال في بحران من وجودك، وينبغي أن تعاني كثيرًا قبل أن يستيقظ حسّك الواعي، وإنَّ أمامك بعدُ لهمومًا كثيرًا تمتحن بها نفسك قبل أن ينضج شعورك وتكتمل أبعاده. فدونك ودون اشتعال هذه الجذوة في روحك وقت طويل في حساب الوجدان، وتجربة عميقة في ميزان الشعور.

على هذا الإحساس ودّع صديقه عند منعطف شارع «غي لوساك»، وانثنى إلى شارع «سان جاك»، وفي كفّه نبض من حرارة خُيّل إليه أنّ كفّ فؤاد كانت تلتهب بها، وفي قلبه حنين ورجاء أن يبقى له فؤاد صديقًا أبد الدهر.

ـ ١٠ ـ

ومع فؤاد أيضًا، حضر في مسرح «ليبوف باريزيان» تمثيليَّة «الكوخ الصغير» لأندريه روستين، فضحكا لها ملء شدقيهما وخرجا منها وأعطافهما تؤلمهما من فرط القهقهة. وقال له فؤاد بعد فترة صمت:

ـ لا ريب في أنَّ هذه المسرحيَّة لاأخلاقيَّة. فهي لا تخلِّف لدى المشاهد أيّ استنكار للخيانة الزوجيَّة التي يدور حولها الموضوع. على أنَّ ما يحمد للفرنسيِّين أنَّهم يقتحمون أدقّ المشكلات التي يواجهونها، بالغًا ما بلغت من الجرأة. وأنا أعتقد أنَّ هذا هو خير سبيلٍ لمواجهة هذه المشكلات والتماس الحلول لها.

فعجب لصديقه كيف تأتّى له أن ينفذ من المسرحية إلى هذه الرؤية، بينما هو لا يزال تحت تأثير حسّها الفكاهيّ. ثم تساءل فؤاد:

ـ أليس أدباؤنا مقصِّرين في هذه الناحية؟ ألا تراهم يتفادون في آثارهم من إثارة كثير من المشكلات التي تمسّ حياتنا، خشية من ثورة حماة التقاليد؟

أيّ حسّ نقديّ هذا الذي تملكه يا فؤاد!

وودّع صديقه، واتَّجه إلى «البانتيون»، وهو لا يدرك هذا الشعور الذي يتنازعه: أقلق هو أم أسًى. إنَّه يحنّ إلى لقيا فؤاد، ولكن يخيَّل إليه أحيانًا أنَّه بات يهابه. إنَّه يحبُّه دون ما ريب، ولكنَّ الاحترام الذي يتعاظم في نفسه له، يكاد أن يُفسد هذا الحبّ. أو هو لا يدري حقيقة الأمر..

وعزم فجأة على أن يكتب لفؤاد رسالة.إنَّ بوسعه آنذاك أن يعبِّر له عن حقيقة شعوره إزاءه، فينظِّم أفكاره ويزيل منها هذا التشويش. فإنَّ هذه التجارة بينه وبين الحروف المكتوبة تتيح له أن ينفذ إلى أصدق مشاعره وينفضها على الورق حيَّة نابضة، كما لا يتيسّر له في الحديث.

وكان يوشك أن يفتح باب الفندق، حين سمع خلفه وقع خطوات. والتفت فإذا هو بفتاة متَّجهة مثله هي أيضًا إلى الباب.

ولم يستطع في الظلام أن يتبيَّن ملامحها جليًا، ولكنَّه أدرك منها وجهًا أبيض وشعرًا أشقر، ثم، إذ اقتربت منه، عينين زرقاوين صافيتين.

وفوجئ بها أمامه، ويده على الباب لا تدفعه، فأحسّ بعض الارتباك، ولكنَّه ما لبث أن تنحَّى قليلاً، وحنى رأسه لها بأن تدخل قبله، فدلفت خفيفة رشيقة، وهي تبسم بسمةً لا يدري أأزالت قلقه أم فاقمته؟ وكان لا يزال خلفها على السلّم، حين انعطفت إلى ممرّ الطابق الأول، ووقفت إزاء غرفة تفتح بابها، وكان يهمّ بأن يتابع رقيّ السلّم، وعيناه لا تزالان تلحظان إليها، حين رآها تحني رأسها له، بينما تولد على شفتيها تلك البسمة الرائعة مرّة أخرى، ثم تدخل الغرفة.

وكم ودّ لو أنَّها بقيت لحظة قصيرة، ليردّ لها التحيّة، بل ليتعرَّف إليها ويحدِّثها! وتابع صعود السلّم، وهو يشعر بأنَّ قدميه تثقلان.

وحاول عبثًا أن يحقِّق عزمه على كتابة الرسالة إلى فؤاد، فهو لم يستطع أن يخطّ أكثر من سطرين. ثم ألفى نفسه يدلف إلى سريره، وفي عينيه بريق بسمةٍ يهفّ لها كيانه كلّه.

وهبط إلى باحة الفندق باكرًا في صباح اليوم التالي، وكان عليه أن يتوجَّه إلى السوربون لسماع محاضرة عن الشعر الفرنسي الحديث. ولكنَّه أزمع أن يترقّب ظهورها، هي فتاة الليلة الماضية، حتى ولو اضطرّ إلى التضحية بهذه المحاضرة التي كان يحرص على سماعها أشدّ الحرص.

وظلّ جالسًا في الباحة زهاء ثلث ساعة، ثم رآها تهبط السلّم وهي عجلى، وتلمّ به دون أن يبدو أنَّها قد رأته. ولحق بها مضطربًا بعض الشيء، ولكنَّه لم يجرؤ على إدراكها. كان يحثّ خطاه تارة حتى يوشك أن يحاذيها، ويتباطأ تارة أخرى، حتى تكاد تضيع عن بصره. ولكنَّه إذ بلغ باب السوربون الكبير، عدل عن متابعة اللحاق بها، كأنَّما استشعر الخوف من هذا الباب الكبير، الفاتح شدقيه، يغري بالدخول. ولم يُفد من المحاضرة شيئًا، فإنَّ المحاضر كان قد جاوز نصفها، فتعلّل بأنَّه لن يفهم النصف الآخر، وغرق في مقعده، فكانت تأتيه كلمات المحاضر، وكأنَّها صوت مخنوق دونه ألف حجاب.

والتقى عند الظهر، في مطعم «لوي لوغران» بصديقيه صبحي وعدنان، بعد انقطاع عنهما دام أربعة أيام، فهشّ لمرآهما، وشعر بأنَّه يتخفّف من بعض أثقاله. لقد كان دائمًا يشعر لدى رؤيتهما ببهجة تستخفّ بنفسه، فيميل إلى المزاح، وينزع إلى تجريد ذاته من جوّ الرصانة. وما كاد المقام يستقرّ بهم على إحدى الطاولات حتى وصل فؤاد، فأفسحوا له بينهم مجلسًا. ولم يلبثوا طويلاً حتى أنشأ صبحي يروي لهم مغامرة طريفة جرت له في أحد مراقص مونبارناس، مع فتاة سويديَّة تقضي فترة عيد الميلاد في باريس.

وابتسم هو وسأله:

ـ وزميلتك طالبة الحقوق، ماذا فعلت بها؟

فقال صبحي وهو يضحك:

ـ وماذا تريدني أن أفعل بها؟ إنَّها هنا باقية، كالآخرة سواء بسواء.. أما تلك، السويديّة، فزائلة كالدنيا.. فلا بأس إن تزوَّدنا منها بعض الزاد الطيِّب!

والتفت صبحي إلى عدنان، وسأله مستطردًا:

ـ على فكرة.. كيف حال غرفتك؟ ألا تزال تشعر بصميميتها؟ فقطّب عدنان حاجبيه باشمئزاز متصنِّع ثم قال:

- أرى هذه الصميميَّة قد بدأ سحرها يزول شيئًا فشيئًا..

- ولماذا؟

- لقد بدأت أعتادها!

فضحك هو وصبحي. أما فؤاد فقال مستغربًا:

- كيف ذلك؟ أحسب أنَّ الصميميَّة إنَّما تتولَّد من العادة! قال عدنان بخبث:

- إنَّها قصّة طويلة يا فؤاد.. وليس للمنطق فيها محلّ، لأنَّها قائمة على العاطفة!

وألفى نفسه هو، بعد لحظات، يروي لهم قصّته مع فتاة الفندق، على فرض أنَّها قصّة، ثم يستشعر بعض الخجل إذ يذكر أنَّها لا تُعدّ شيئًا ذا بال إزاء مغامرة صبحي... ويضحك عدنان ويقول:

- إذا ظلّت المغامرة جارية بهذه السرعة، فسينتهي الفصل الأول منها بعد ثلاثة أعوام، إن شاء السميع العليم!

وانفجروا جميعًا بضحكة لفتت إليهم أنظار الطلبة حولهم. وسرعان ما كفكف فؤاد ضحكته، وقال بلهجة حائرة بين الجدّ والمزاح:

- أليس هو فتى من الشرق العربي؟ إنَّها رواسب أجيالٍ طويلة من الحرمان والكبت والخوف من المرأة، تشدّه إلى ماضيه وتقاليده!

وبلغ من تأثير هذه العبارة في نفسه، وإيقاظها لحسّ كبريائه، وإلهابها لتمرُّده،أنَّه لم يتردَّد لحظة، حين التقى بفتاة الفندق بعد ظهر ذلك اليوم، في أن يُظهر اندفاعًا وشجاعة اعتبرهما فيما بعد لونًا من القِحَة.

كان يسير في شارع «سوفلو» متَّجهًا نحو «البانتيون»، حين لمحها من بعيد تنعطف إلى شارع «سان جاك» فحثّ خطاه حتى أدركها حذاء باب كليّة الحقوق فبادرها من غير أن يُلقي عليها التحيّة:

ـ أتسمحين يا آنسة أن تقولي ما معنى هذا كلّه؟!

فالتفتت إليه منتفضة، وإذ رأته اصطبغ وجهها كلّه بالاحمرار، فقال في نفسه: «لقد أدركتْ أنَّني فتى ليلة البارحة». ولكنَّها ما لبثت أن توقّفت، وشعّت عيناها ببريق غريب، وقالت له بلهجة تنبض عصبيّة:

ـ ماذا تعني يا سيِّد؟ ثم كيف يحقّ لك أن تتحدَّث بهذه اللهجة إلى من لا تعرفه؟

فانكمشت في نفسه سريعًا تلك الجرأة التي ما فتئت تُضرم جوانحه منذ الظهيرة، وفهم أنَّه كان أحمق إذ بادرها بتلك العبارة، فلم يسعه إلاَّ أن يبتسم ببلاهة ويقول:

ـ المعذرة يا آنسة.. ليس هذا ما كنت أودّ أن أقوله.. أقصد..

وأرتج عليه، ولكن أزال بعض اضطرابه أنَّ الفتاة صرفت عنه بصرها، وتابعت سيرها، على مهل، كأنَّها تمنحه فرصة امتلاك أعصابه واستعادة سكينته. وسار بجانبها، وهو لا يدري ما الذي ينبغي أن يقوله. ثم عاوده الاضطراب أشدّ وأضرى، وشعر بأنَّه انسانٌ ذليل لا يوحي بالاحترام. وهي التي أنقذته من ارتباكه بعد لحظات إذ سألته:

ـ معنى أيّ شيء كنت تسألني؟

فاستعاد ثقته بنفسه، وانحلَّت عقدة لسانه، ولم يدر كيف تأتَّى له أن يقول:

ـ معنى تصرُّفك هذا الصباح!

ولم يَدَعْ لها أن تعبِّر عن استغرابها، فأردف:

ـ أن أفيق باكرًا صباح اليوم، فأهبط إلى باحة الفندق في سبيل انتظارِك، وأن تمرّي بعد ساعة من هذا الانتظار، فلا تلقي بالاً إلى هذا الذي يترقّب ظهورك، بعد أن قضى ليلة طويلة، أرّقته فيها بسمةٌ تقطر بالعذوبة...

وحين فـرغ من النطق بهـذه العبـارة الطويلة أطلق زفـرة ممتـدَّة. ثم نظر إليها يقرأ تأثير كلامه في نفسها، وسقط عن كاهله كلّ الاضطراب الذي كان يتعثّر به إذ رأى على شفتيها تلك البسمة نفسها، بسمة الليلة الفائتة، ثم قالت:

- أرى أنَّ صاحبنا «رومانتيكي» أكثر من اللزوم!

فلم يفهم من العبارة إلاَّ أنَّ عليه أن يعرِّفها بنفسه، فقال لها اسمه، ثم مدَّ يده يودّ مصافحتها، وتردَّدت هي هنيهة قبل أن تبسط له كفَّها، ثم قالت:

- جانين مونترو.

ورآها فجأة تتوقَّف، وقد اكتسى وجهها بغمامة كدرة، وتقول له:

- أعذرني، ينبغي أن أتركك. إنَّ لديّ بعض الأعمال المستعجلة.

وسرعان ما مضت مبتعدة عنه، من غير أن تنتظر منه كلمة.

وحين رآها تغيب، كان في ضيق أصمّ. لقد حسب أول الأمر أنَّها أقبلت عليه وفتحت صدرها له، على قلّة ما نطقت به من كلمات. ولكنَّه شعر بأنَّها تتراجع حين قدَّمت له نفسها، كأنَّها ندمت على هذا الإقبال، فشاءت أن تستدركه. أتراك قلتَ لها ما أجفلها، فضنّت بنفسها؟

ولكنَّه حزم أمره فجأة على أن يطرح القلق وينتظر عودتها ليراها مرّة أخرى بأيّ ثمن، ويبتهل إليها إذا اقتضى الأمر، أن ترضى بلقائه بعد. وباغت نفسه، وهو يفكِّر بهذا التزلّف، ولكنَّه كان على يقين من أنَّه لن يستطيع مقاومته. لا، ليس هو الحبّ، فليس هو بعدُ طفلاً ليسقط صريعًا في لحظات، ولكنَّه كان يشعر أنَّه بأشدّ الحاجة إلى هذه الفتاة التي يقرأ في بسمتها الحنان وفي عينيها الغموض. أجل، إنَّ هذا الغموض والتردُّد، والإقدام والإحجام، ليس من شأنها كلّها إلاَّ أن تزيد لهفته إليها، هي جانين مونترو.. وأيّ اسم موسيقيّ هذا؟!

- ١١ -

- أنت إذن شرقيّ؟

- نعم، من لبنان. وأنتِ؟ هل أنتِ باريسيَّة؟

- لا، إنَّني من «الألزاس».

وأغضت جانين مونترو، فأدرك هو أنَّ نظرته المحدَّدة قد آذتها. والحقّ أنَّه لم تكن له في ذلك حيلة، فقد كان في عينيها الزرقاوين صفاءٌ لم يعهده في عينين قبلهما. وكان يحسّ، وهو ينظر فيهما، أنَّ نظراته تستحمّ في مياههما الدافئة، بالرغم من أنَّها نظرات خاطفة هاربة، بل من أجل ذلك بالذات. وقد شعر بهذا منذ التقت عيناه بعيني جانين للمرَّة الأولى، فكان كل همّه بعدُ أن يجتذب هذا النظر الهارب، ويثبِّته في نظره، حتى يتاح له أن يسبر أغواره. وكأنَّ الفتاة إذ أغضت، قد أدركت ذلك، فصرفت عنه هذا النظر الذي يودّ أن يحتفظ بأسراره.

وكان قد التقى بها بعد ظهر اليوم التالي، في إحدى المكتبات بشارع «مسيو لوبرنس» وكانت واقفة تقلّب كتابًا في ركنٍ من المكتبة، فعرفها من شعرها الأشقر، وحار طويلاً كيف يكلّمها. ثم أخذ يتنقّل ببطء حذاء الرفوف حتى بلغ موقفها، فقال بلهجة خفيفة:

- كيف حال الجارة التي ما كادت تعلن اسمها حتى ندمت؟

فالتفتت مبغوتة، ولكنَّها سرعان ما أجالت بسمتها الحلوة على شفتيها إذ عرفته وقالت:

ـ أهذا أنت أيضًا؟

فأجابها بسؤال سريع:

ـ أتكون مفاجأة غير سارّة؟

فتردَّدت لحظة قبل أن تقول:

ـ لم أقل ذلك... وإنَّما...

وتعلَّق بشفتيها، ينتظر أن تتمّا، ولكنَّهما ظلّتا مطبقتين، بل هي قد زمّتهما بقسوة، كأنَّما كانت تخشى أن تفلت منهما كلمةٌ لا تريد أن تنطق بها. على أنَّ وجهها ما لبث أن احتقن بالدم، وسألته بلهجة حرصت على أن تكون مكبوتة، كأنَّما كانت تخاف أن يتنبَّه إليهما أحد:

ـ ولكن لماذا؟.. لماذا؟..

وتوقَّفت هنيهة، ثم قذفته:

ـ ما عساك تريد منّي؟ لماذا تلاحقني منذ يومين؟

وخشي أن يشعر من هذه العبارة المفاجئة بانخذال في ساقيه، فاعتمد بكفّه على منضدة قريبة رُصَّت عليها الكتب، ثم أحسّ بقدميه تستديران. وانفتل بجسمه على مهل، ومضى فغادر المكتبة ملتاث المشاعر.

ولكنَّه لم يلبث طويلاً حتى سمع صوتها خلفه، يناديه باسمه.

وحين التفت، كانت قد بلغته، فإذا هي تقول له بصوت ينبض بالندم والأسى:

ـ اعذرني، أرجوك. لقد أسأت معك الأدب، وقابلت لطفك بجفاء، أرجو أن تغفره لي.

فاستشعر من ذلك الخجل، وهمَّ بأن يعتذر لها، كأنَّما كان هو المخطئ، أو كأنَّ مسلكه هو الذي دفعها إلى هذا الخطأ، على الأقلّ، وآثر أن يلزم الصمت فترة من الزمن، يفكِّر فيها بالخطوة التالية. ولا ريب في أنَّها علَّلت صمته على غير حقيقته، إذ قالت:

ـ أراك لا تنطق بشيء. كأنَّما يعزّ عليك أن تسامحني...

فسارع يجيب:

ـ العفو يا آنسة جانين. إنَّكِ لم تسيئي إليّ حتى تستمحيني العذر!

وأدرك أنَّه يجاملها، ويتجاهل حقيقة كانت ظاهرة كالنهار. ولكن هذا كان دأبه: لقد كان يشقّ عليه أن يشعر امرؤ أمامه بالحَرَج، فإذا قصارى همّه أن يتيح لهذا المرء الفرار من ذلك الحَرَج واستعادة العزّة النفسيَّة. وهو مدرك أنَّ هذا ضعفٌ فيه، إذ هو يفوِّت عليه كل فرصة بإعلان النصر. وأيًا ما كان، فإنَّه هنا لا يبغي الانتصار على هذه الفتاة. إنَّه يريد أن تبقى إلى جانبه فترة من زمان، أن تُشعره بحنانها، أن تبثّ في نفسه الباردة بعضًا من دفء. فأحْرِ بك إذن أن تتغاضى وتتجاهل وترتدّ إليها شاكرًا أن تتيح لك فرصة أخرى للحديث.

وارتدّ إليها وقال بلهفة:

ـ أتقبلين أن تتناولي معي الشاي في مقهى قريب؟

فعاودها التردُّد، ثم حال تردُّدها إلى ارتباك. وفهم أنَّها قرأت على وجهه سيماء الخيبة، فشاءت أن توفِّرها عليه، ولو بتكلُّف، إذ قالت:

ـ لا مانع عندي من ذلك، على ألاّ نبقى وقتًا طويلاً.

وحين دخلا مقهى «لاسورس»، وجلس قبالتها، ونظر في عينيها الزرقاوين الصافيتين، شعر بأنَّه مقبلٌ مع «جانين مونترو» على عهد جديد من حياته، لا يدري من أمره إلاَّ أنَّه جديد.

ولم يخب ظنّه بصفاء نفسها ونقاء سريرتها. لقد حدَّثها بكل بساطة، واستمع إليها تتكلَّم مع سجيَّة نفسها، من غير تكلُّف.

وقد أدهشه أن تكون جانين، تلك الفتاة المتردِّدة الحائرة المتقلّبة التي عرفها من قبل، هي جانين نفسها، هذه الهادئة الرقيقة الواثقة من نفسها. لكأنَّ ذاتها الأولى كانت مصطنعة، وكأنَّ هذه هي ذاتها الطبيعية.

وعجبتْ بعض العجب حين أخبرها أنَّه من الشرق العربيّ، وقالت موضِّحة:

ـ لقد أنبأتني تقاطيع وجهك أنَّك لست أوروبيًا، ولكنِّي لم أحدس بأنَّك عربيّ.

ثم روت له بأنَّها قرأت بعض ما كتبه أدباء فرنسيُّون زاروا الشرق كلامارتين وغوتييه وفلوبير، وأضافت أنَّ ما كتبه فلوبير خاصّة قد أثار حنينها يومًا إلى زيارة الشرق ورؤية الجمل والنخيل والصحراء.

وكان هو شديد الرغبة في أن تحدّثه عن نفسها، وقد خُيِّل إليه لحظة أنَّه شديد الأنانية بأن يَدَعها هذا الوقت الطويل تتحدَّث عن بلاده دون أن يسألها عن شؤونها. ثم لاحظ أنَّها تحاول دائمًا أن تتفادى من التحدّث عن نفسها، وتصرف الكلام كل مرّة إلى وجهة أخرى، كأنَّها تحرص على أن تستبعده أبدًا عن كل ما يمسّها، ولا تودّ أن تتيح له فرجة ينفذ منها إلى حياتها الخاصة.

كان يدير هذا كلّه في فكره حين سألته:

ـ أنت إذن شرقي؟

ـ نعم من لبنان، وأنتِ، هل أنتِ باريسيَّة؟

ـ لا، إنَّني من الالزاس.

وأغضت جانين مونترو، فأدرك هو أنَّ نظراته المحدَّدة قد آذتها. وتلبَّث قليلاً ثم سألها:

ـ وهل أنت في باريس منذ وقت طويل؟

ـ فبدا عليها الضيق. لا شكّ في أنَّ إلحاحي قد أزعجها. ينبغي لي أن أتحفَّظ بعد. وفاجأته بنظراتها الصافية مرة أخرى. ثم قالت بلهجة بدت فيها سرعة واضحة أنَّها قدمت حديثًا إلى باريس من قرية صغيرة بالالزاس، لتتخصَّص في الصحافة بإحدى مدارس العاصمة، وأنَّها وصلت منذ أيام فقط، واستأجرت غرفة في ذلك الفندق ريثما تبحث عن أسرة فرنسيَّة تنزل لديها.

ذلك هو كلّ ما قالته له. ولم يخف عليه أنَّها كانت تقصد إلى الاقتضاب قصدًا، كأنَّما كانت تحذِّره من أن يلتمس المزيد. وعلى قدر ارتياحه إلى أنَّها طالبة، مثله، شقّ عليه أنَّها الآن تبحث عن غرفة لدى أسرة فرنسيَّة. إنَّها إذن ستغادر الفندق عمَّا قليل. وتخلّفه مرّة أخرى في تلك الوحدة التي حسب أنَّ شبحها المخيف بدأ ينجاب عنه رويدًا.

وهمّ بأن يعبِّر لها عن هذا الشعور، ولكنَّه استدرك نفسه، إذ تذكَّر احتراسها، وبخلها، وحَذَرها. وآثر أن يَدَع ذلك الأمر إلى المقادير، ثم انثنى يتحدَّث عن نفسه وعمَّا لقيه من صعوبات في أيامه الأولى بالعاصمة، وذكر دروسه وكتبه والرسالة التي يُعدّها في الشعر العربي الحديث. وقد كان يوغل في الحديث كلَّما آنس في عينيْ جانين اهتمامًا بأخباره وعناية بالإصغاء له.

وكان يحسب أنَّه نجح في هدم ذلك الجدار من التهيُّب والحيطة الذي كان قائمًا بينهما، إذ فاجأته بالنهوض، وبأنَّ عليها أن تتركه في الحال. يا إلهي! أيّ مزاج هذا! أيكون هذا التردُّد والقلق والحيرة هي طبيعتها الحقّ؟ أو يكون حديثها الأول إليه، وإرهاف سمعها إلى حديثه، واهتمامها بأنبائه، أيكون ذلك كلّه هو التصنُّع الذي ليس في طبعها؟

على أنَّه لم يسقط صريعًا تحت هذه الضربة الجديدة. فهو قد اعتاد في هذيْن اليوميْن هذه الكلمات المفاجئة، وقد بات في طوْقه أن يحتاط لها ويواجهها، أو يداريها على الأقل. فلتبقَ إذن جالسًا، وإن نهضت جانين، ولتأخذ بالريث والإبطاء، ولتقلْ لها بتؤدة:

ـ ولكن علامَ العجلة، يا آنسة جانين؟

فأجابته:

ـ إنَّه موعدٌ مع زميلةٍ لي من طالبات الصحافة.

ثم مدّت يدها تودّ مصافحته، فأدرك أنَّ البطء لا يجدي أمام هذه الكفّ المبسوطة، ولم يسعه إلاَّ أن ينهض، فيقول لها، وهو يتناول كفّها:

ـ حسنًا... ولكن متى نلتقي مرّةً أخرى؟

فاشتدّ بريق عينيها، وإن كان صفاؤهما قد اغتلم، وأجابت في ضيق، وبعد تردُّد طويل لم تتجح في إخفائه أو تبريره:

ـ أخشى ألاّ يكون ذلك في استطاعتي مرّةً أخرى.

وفي اللحظة نفسها، سحبت كفّها من كفّه، كأنَّها شعرت بأنَّ أمد التقائهما كان أطول مما قدّرت، ثم ابتسمت له بسمةً أدرك سريعًا أنَّها كانت تنبض بالتكلّف، إذ استعاد طيف تلك البسمة السمحة العذبة التي كانت ترتسم على شفتيْها من قبل.

وانطلقت جانين مونترو عجلى، دون أن تَعِدَه بلقاء.

أيَّة فتاة هي؟! إنَّك ما تزال تتساءل! ولِمَ تراك تُغرق بعلامات الاستفهام هذه، شخصها هي! لِمَ لا ترتدّ ببصرك إلى نفسك أنت؟ أنا أحسب أنَّك وقعت في خطأ لك معهود. مرّةً أخرى، قذفتَ نفسك كلّها في الحلبة، إذ حدَّثتها عن ذاتك ذلك الحديث الطويل فلم تستبق منها غامضًا يُغري. ما أسهلك من كتاب، وما أيسر قراءتك! تقول إنَّك صادق مخلص، وإنَّها سجيَّة نفسك؟ أنظر إذن إلى العاقبة! أم تُراك قد زللت إذ أنبأتها بأنَّك من الشرق العربيّ! ما يمنعها من أن تُجيل في خاطرها كلّ ما سمعت أو قرأتْ، عن مساوئ العربيّ، فتحسبها ممثّلةً فيك! ألا ترى الغربيّ يخاف دائمًا هذا الشرقيّ، هذا العربيّ، النابع من رمال الصحراء، العائش في حضارات القرون الوسطى؟ وفلوبير نفسه، هذا الذي حنَّت، هي جانين، إلى الشرق بتأثير ما كتبه، ألم يكن حريصًا على تصوير نواحي التأخّر والحيوانيَّة في حياة أهل الشرق؟

وتناول فنجان الشاي، فإذا هو فارغ. ومع ذلك فقد وضع حافته بين شفتيْه. وعلى صفحة الفنجان، خُيّل إليه أنَّه يرى دنيا تنبسط أمامه.. جِمالٌ وصحراء.. صحراء شاسعة، شاسعة، دون بلوغ واحتها سرابٌ كثير...

- ١٢ -

ولم يُفق صباح اليوم التالي إلاّ على طرق باب غرفته، فإذا هي خادمة الفندق تسأله إن كان بوسعها أن ترتِّب غرفته، وقد جاوزت الساعة العاشرة.

العاشرة! وأغمض جفنيه، وقد ذكر أنَّه قضى معظم ساعات ليلته، من غير أن يغمض له جفن. لقد حاول أن يقرأ فصلاً من كتاب في النقد، ولكنَّه أدرك بعد حين أنَّه لا يعي منه شيئًا، فقد كان يتنبَّه إلى نفسه كلّما مرَّ تحت بصره اسم الناقد الفرنسي «برونتيير»، فيتوقَّف لحظة ليستعيد ما قرأ، فإذا هو خالي الذهن من كلّ شيء؛ ثم ألقى الكتاب جانبًا، ونهض إلى سريره فأطفأ النور، واندسّ في الفراش، ولكنَّه شعر بلسعة البرد. أجل. إنَّها لغرفة باردة. وإنَّ التدفئة فيها سيِّئة جدًا. وجذب الغطاء إلى ما فوق رأسه، فكاد بعد لحظات أن يختنق. ثم استوى في سريره وهو واثق من أنَّه لن ينام الساعة. وإذن فلا بأس من إضاءة النور.

وفي تلك اللحظة بالذات، سمع المطر ينقر سقف غرفته، فأحسّ قشعريرة تسري في جسمه، وذكر غرفته في الوطن، هكذا كان هناك يسمع نقر المطر، فيشعر بنشوة دافئة أين منها هذا الإحساس المقرور. ما كان له هناك أن يُحسّ بالبرد، ولو ظلّت الثلوج تتساقط أيامًا. كانت هناك أمّه، وأخوته، وناهدة.. تلك التي رآها منذ يومين، أو سيراها بعد أسبوع، فيظلّ

مثله، بحاجة إلى كلّ درهم مما يبلغهم من ذويهم، ولكنَّه أصرّ عليها، فلم يسعها أن ترفض. ولقد قال لها يومذاك:

- يوم تحتاجين إلى شيء فلا تترددي يا تيريز في أن تطلبي مساعدتي. وأنا أيضًا لن أتردد، هل تعدينني بذلك؟

فأخذت تشيد بلطفه وتدعو له بالسعادة، ثم قالت إنَّها ستستعين به يوم تحتاج إلى ذلك، لأنَّها على يقين من أنَّه يساعدها وهو رضيّ النفس، طيّب الخاطر.

على أنَّه لم يدرك السبب الحقيقي الخفيّ لأنسه بها ورغبته في إكرامها، إلاَّ ذلك اليوم بالذات. فقد أتاه خادم الفندق، بعد دقائق من خروج تيريز، برسالة وصلته من الوطن، فإذا هي من أخته، وإذا فيها نبأ آلمه وأورث في صدره الضيق. لقد أجريت لأمه عمليّة جراحيَّة لاستخراج إسفنجة ربيتْ في معدتها. وكانت الرسالة تقول إنَّ العمليّة قد نجحت، وأنَّ أمّه في دور النقاهة. ولكنّ ذلك لم يحل دون شعوره بلون من القلق يستبدّ بنفسه. وسرعان ما أزمع على أن يبرق لذويه يطلب مزيدًا من الإيضاح. وفيما هو يرتدي ثيابه على عجل، أخذ يفكّر بأمّه، وذكر أنَّه فكَّر بها طوال الليلة البارحة، كأنَّما كان يحدس بأنْ سيبلغه عنها نبأ ما. واستحضر صورة وجهها في ذهنه، ذلك الوجه الصغير الحبيب الذي كان يشيع في نفسه الرضى والاطمئنان، أيًا كان الهم الذي يعتريه.

وكان يرتدي معطفه، إذ توقّف فجأة وهو يذكر وجه تيريز، خادمة الفندق. لا ريب أنَّ في هذا الوجه مَشابه من وجه أمه.

وخرج من غرفته وهو ينادي تيريز، فبرزت له أمام أحد الأبواب، ثم اتَّجهت إليه فخيِّل إليه أنَّها أمّه بوجهها الصغير الحبيب، وذقنها المستديرة، وشعرها الذي وخطه الشيب. ولولا أنَّ تيريز أطول قامة وأصغر فمًا وأرقّ

شفتيْن، لنازعته نفسه، على غير وعي، إلى أن يفتح لها ذراعيه ويأخذها إلى صدره، ويدسّ رأسه في عنقها، ويحمد اللّه على نجاتها وشفائها.

ونسي ما نادى من أجله تيريز، فشعر ببعض الارتباك إذ بلغته، وهي التي بادرته:

ـ أحسب أنّي أستطيع الآن أن أرتّب غرفة الطالب الكسول الذي ينهض بعد الساعة العاشرة!

فابتسم لها ابتسامة باهتة نَدِم عليها وهو يهبط السلّم، ولكنّه التمس لنفسه العذر من حالة قلقه.

وكان يهمّ بمغادرة الفندق، إذ التقى بجانين مونترو داخلة إليه.

ولم تكن رؤيته إيّاها بأشدّ مفاجأة له من أنّها هي التي استوقفته وحيّته بلطف، وبادرته بعبارات سريعة، كأنّما هيّأتها من قبل:

ـ ما بال العربيّ مسرعًا يكاد يعدو؟ ولمَ هذا القلق الناطق في عينيه؟ وإلى أين هو ماضٍ الآن؟

فأحسّ هذا القلق الناطق في عينيه يحول سريعًا إلى بسمة كئيبة على شفتيه، ولكنّها بسمةٌ مستسلمة شعر معها بفتور اندفاعه والتجام انطلاقه. ولكن هذا الفتور نفسه هو الذي هيّأ له أن يعي وضعه من هذه الفتاة التي بثّت في ضميره القلق، وأشاعت التشكّك بتقلّبها وحيرتها وتردُّدها بين الإقدام والإحجام. وعلى شدّة رغبته في أن يستأنف معها هذه التجربة المشكوك في نتيجتها، رأى أن يتكلّف الزهد واللامبالاة، فقال وهو يصرف بصره عن عينيها، خشية أن يخونه عزمه:

ـ لقد رأى هذا العربيّ أنّ من الخير أن يضع حدًا لرغبة بعضهم في خداعه والتغرير به. فهو لذلك يمضي دون ما تردّد إلى شؤونه وإلى غاياته، ولو ضحّى ببعض مسرّاته!

مثله، بحاجة إلى كلّ درهم مما يبلغهم من ذويهم، ولكنَّه أصرّ عليها، فلم يسعها أن ترفض. ولقد قال لها يومذاك:

- يوم تحتاجين إلى شيء فلا تتردّدي يا تيريز في أن تطلبي مساعدتي. وأنا أيضًا لن أتردّد، هل تعدينني بذلك؟

فأخذت تشيد بلطفه وتدعو له بالسعادة، ثم قالت إنَّها ستستعين به يوم تحتاج إلى ذلك، لأنَّها على يقين من أنَّه يساعدها وهو رضيّ النفس، طيِّب الخاطر.

على أنَّه لم يدرك السبب الحقيقي الخفيّ لأنسه بها ورغبته في إكرامها، إلاَّ ذلك اليوم بالذات. فقد أتاه خادم الفندق، بعد دقائق من خروج تيريز، برسالة وصلته من الوطن، فإذا هي من أخته، وإذا فيها نبأ آلمه وأورث في صدره الضيق. لقد أجريت لأمه عمليّة جراحيَّة لاستخراج إسفنجة ربيتٌ في معدتها. وكانت الرسالة تقول إنَّ العمليّة قد نجحت، وأنَّ أمّه في دور النقاهة. ولكنّ ذلك لم يحل دون شعوره بلون من القلق يستبدّ بنفسه. وسرعان ما أزمع على أن يبرق لذويه يطلب مزيدًا من الإيضاح. وفيما هو يرتدي ثيابه على عجل، أخذ يفكِّر بأمِّه، وذكر أنَّه فكَّر بها طوال الليلة البارحة، كأنَّما كان يحدس بأنْ سيبلغه عنها نبأ ما. واستحضر صورة وجهها في ذهنه، ذلك الوجه الصغير الحبيب الذي كان يشيع في نفسه الرضى والاطمئنان، أيًا كان الهم الذي يعتريه.

وكان يرتدي معطفه، إذ توقّف فجأة وهو يذكر وجه تيريز، خادمة الفندق. لا ريب أنَّ في هذا الوجه مَشابه من وجه أمه.

وخرج من غرفته وهو ينادي تيريز، فبرزت له أمام أحد الأبواب، ثم اتَّجهت إليه فخيِّل إليه أنَّها أمّه بوجهها الصغير الحبيب، وذقنها المستديرة، وشعرها الذي وخطه الشيب. ولولا أنَّ تيريز أطول قامة وأصغر فمًا وأرقّ

شفتيّن، لنازعته نفسه، على غير وعي، إلى أن يفتح لها ذراعيه ويأخذها إلى صدره، ويدسّ رأسه في عنقها، ويحمد اللّه على نجاتها وشفائها.

ونسي ما نادى من أجله تيريز، فشعر ببعض الارتباك إذ بلغته، وهي التي بادرته:

- أحسب أنّي أستطيع الآن أن أرتّب غرفة الطالب الكسول الذي ينهض بعد الساعة العاشرة!

فابتسم لها ابتسامة باهتة نَدِم عليها وهو يهبط السلّم، ولكنّه التمس لنفسه العذر من حالة قلقه.

وكان يهمّ بمغادرة الفندق، إذ التقى بجانين مونترو داخلة إليه.

ولم تكن رؤيته إيّاها بأشدّ مفاجأة له من أنّها هي التي استوقفته وحيَّته بلطف، وبادرته بعبارات سريعة، كأنّما هيّأتها من قبل:

- ما بال العربيّ مسرعًا يكاد يعدو؟ ولمَ هذا القلق الناطق في عينيه؟ وإلى أين هو ماضٍ الآن؟

فأحسّ هذا القلق الناطق في عينيه يحول سريعًا إلى بسمة كئيبة على شفتيه، ولكنّها بسمةٌ مستسلمة شعر معها بفتور اندفاعه والتجام انطلاقه. ولكن هذا الفتور نفسه هو الذي هيّأ له أن يعي وضعه من هذه الفتاة التي بثّت في ضميره القلق، وأشاعت التشكّك بتقلّبها وحيرتها وتردُّدها بين الإقدام والإحجام. وعلى شدّة رغبته في أن يستأنف معها هذه التجربة المشكوك في نتيجتها، رأى أن يتكلّف الزهد واللامبالاة، فقال وهو يصرف بصره عن عينيها، خشية أن يخونه عزمه:

- لقد رأى هذا العربيّ أنّ من الخير أن يضع حدًا لرغبة بعضهم في خداعه والتغرير به. فهو لذلك يمضي دون ما تردّد إلى شؤونه وإلى غاياته، ولو ضحّى ببعض مسرّاته!

وظلّ ينظر إلى قبّة «البانتيون» العظيم، وهو يتحرّق شوقًا إلى جوابها. ولكنَّ الجواب أبطأ كثيرًا، ونفد صبره في انتظاره، فالتفت يستلهمه من عينيها. وكان في هاتيْن العينيْن الصافيتيْن أسًى لم يعهده فيهما، أسًى كان يُخمد تلك البسمة التي تحاول أن تنطق بشيء ثم تعدِل. وقالت جانين أخيرًا:

- قد لا تكون على خطأ في أن تتّهمني بما تشاء، فأنت لم تعرفني بعد. ولكن الذي أرجوه منك أن تثق بأنّي لم أرد أن أسيء إليك، إنَّك لا تستحقّ ذلك، بل أنت تستحقّ أن..

وانقطعت جانين، ولم يحسّ بأسف لانقطاعها، فكأنَّه كان يتوقّع أن تنطق بما يشعره بالخجل، وأنَّها لتوفّر عليه ذلك الآن. وغشيه إحساسٌ من رضى، فقال بلهجة رصينة متمهلة:

- ولكن كيف لي أن أفهم تصرُّفاتك؟

- كنت أرجو أن تفهمها يومًا فتعذرني. أما وأنَّك تبدي رغبتك في أن «تمضي إلى شؤونك وغاياتك» فلا فائدة من العودة إلى ذلك...

وأدرك حينذاك أنَّه لا مناص له من أن يكشف خبيئة نفسه، فقال من دون تردُّد:

- اسمعي يا جانين...

وأحسّ بأنَّ وقفتهما هناك قد طالت، فداخله من ذلك بعض الضيق فقال:

- قبل ذلك.. ما تقولين في أن نمشي قليلاً، فنملك حرية أكبر في الحديث؟

فانفتلت وأخذت تسير متريّثة دون أن تجيبه، فمضى إلى جانبها، وهو يُحسّ بأنَّ كيانه كلّه يهفو إليها.

وهمّ بأن يعود إلى ما كان ينوي قوله، ولكنَّها وقفت على حين بغتة، وقالت له، وفي عينيها شبه ضراعة:

- أرجوك.. قل لي.. هل تَعدِني؟..

ثم كفَّت، فسألها بقلق وحنين:

- أتمّي، بم تريدين أن أعدك يا جانين؟

وكذلك هي المرة الأولى التي يتلفَّظ فيها باسمها مجرَّدًا، وقد رآها تنتفض لذلك، وهي تنحي إليه بصرها، ثم ما تلبث أن تطرق، وتستطرد بلهجة استسلام:

- هل تَعدِني بأن نظلّ صديقين؟

فأخذ بكفّها بين يديه، وقال لها في رعشة:

- أعدُك بذلك. صدّقيني يا جانين..

ولم يكن ينتظر أن تقاطعه، ولا أن تسحب كفّها من بين يديه، ولا أن تقول له بنفور:

- أرجوك، لا تذكر اسمي بعد.. ثم.. أرجوك، إنسَ الذي قلته لك يا سيدي. أنا فتاة بلهاء.. إنَّني أطلب إليك أن تَعدني، لأبيح لنفسي أن أثق بك.. فمتى.. متى أصبحت أثق بالرجال؟

وانفصلت عنه فجأة، وقفلت راجعة باتجاه الفندق. ولكنَّه لم يتردَّد لحظة، ولم يأخذ طريقه إلى مكتب البريد حيث كان يريد الإبراق إلى ذويه للاستفسار عن أمه، ولكنَّه لحق بجانين مونترو، فأدركها عند باب الفندق.

وقد دخل معها غرفتها واستبثّها سرّها وجفَّف دموعها بمنديله.

ـ ١ ـ

يا جانين، أيَّتُها الحبيبة المنشودة، أيَّة سعادة هي التي يوفِّرها لنفسي الظمأى حضوركِ وغيابكِ جميعًا! إنَّكِ أنتِ أنتِ الصورة التي تبحث عنها روحي منذ زمن بعيد، فتظلّ تائهة ضائعة بين ركام من الصور الباهتة الحائلة. لِمَ تُراكِ يا جانين ظللت غائبة عن وجودي هذه الأعوام الطويلة؟ وهل ستملئين، بعد الآن، هذا الوجود الفارغ الذي يبحث أبدًا عن معنى ذاته؟

ليلتيّن متواليتيّن، فوجئ وهو يحدِّث نفسه بمثل هذا الحديث، فلا يلبث الوعي أن يرسم على شفتيه ابتسامة تحار بين السخرية والإشفاق. وقد ذكر في المرّتين كلتيْهما ذلك الحدث الغرّ الذي كانه، يوم كان في الرابعة عشرة، فوقع في حبّ تلك الفتاة. لقد كان يبتهل إلى اللّه في صلاته، وكان يومذاك يصلّي، أن يحفظ له حبيبته تلك، ويُبعد عنها كل سوء، ويبقيها له ولحبّه. إذن، فأيّ فرق بين ذلك الغرّ، وبين هذا الشابّ الذي يدلف الآن إلى الخامسة والعشرين؟ إنَّ هذا الذي تحدِّث به نفسك، إذ يضمّك فراشك في المساء، لا يعني، مع فارق السنّ، إلاّ ما كان يعنيه ابتهالك في الصلاة يومذاك!

ويكاد يستشعر لهذا بعض الخجل، ولكنَّه ما يلبث أن ينفر متسائلاً: أليست هذه آية النقاوة والطّهر؟ أليس سموًا الآن أن يحسّ هذا الإحساس البريء، بعد أن تلوَّث حينًا في وحل القذارة أو خيِّل إليه ذلك على الأقلّ؟

ولكن أيَّة قيمة لهذا الإحساس الآن؟ هل تنوي أن تتَّخذ من شخص جانين مطهّرًا تتحلَّل فيه من أوزارك، وتنفض عنده آثامك؟ أتدري حقًا لماذا تحبّها، إن كنت حقًا تحبّها؟ أشفقة وعطفًا على تلك الفتاة التي حطّمتها مأساتها الغراميَّة، ففرّت من قريتها، وكانت تفرّ من الموت، لأنَّ الرغبة عاودتها غير مرّة في أن تنتحر؟ أم إعجابًا بهذه الفتاة اللامعة ذكاءً وحسًا وبصيرة؟ إن كان الأمر كذلك، فليس هو الحبّ بعدُ، ويوم يكون هو الحبّ، فلن تدري إذا كانت جانين مونترو ستبرئ نفسك من شوائبها أم ستوقظ فيها شرّ آثامها!

وتمثّلها أمامه مرّة أخرى، وما كان بحاجة إلى أن يتمثّلها؛ فقد كان على يقين من أنّها داخلةٌ في كيانه، منصهرة في نفسه، ذرّةً من ذرّات وجوده. كان يسمع خفقة قلبه حين كانت تلتفت إليه بين لحظة وأخرى، فيما هو يحدّثها، فيعيش من عينيها الزرقاوين في دنيا حميمة يغترف منها شعور الهناءة اغترافًا. وكان يقرأ في ابتسامتها إخلاصًا لا يتطرّق إليه زيف، وإن كان لا يستعصي على الغموض، شأنه في ذلك شأن دموعها التي التقطها بمنديله يوم روت له مأساتها. بيد أنّ الذي شدّ إليها وثاقه، على ما يخال له، إنّما هو هذا الإرهاف في الشعور، والحضور في الفكر، حتى أيقن بعد برهة وجيزة أنّها تفوقه في سرعة إدراكها وإصدارها للدقيق من لمعات الذهن، والحادّ من شرارات الشعور. وإنّما كان يلمس هذه الأقباس بالحدس لا بالمنطق. وإنّه ليعجز عن استعادتها إذا ما حاول أن يتذوّقها مرّة أخرى في وحدته.

وهو إن كان يستعصي عليه النوم الآن، فذلك من فرط الرضى والطمأنينة، لا من شدّة القلق والشكّ، كما كان في سابق الليالي. إنّ جانين في الطابق الأول من هذا الفندق، وهو في السادس، ولكنّه يُحسّها هنا شديدة الدنوّ منه، حتى ليحسب أنّه بوسعه أن يلمسها. فقد أشعرته أنّها

وثقت به، وتعلم أنَّه غدا يشاركها بعض حياتها، وهو من أجل هذا استعاد بعض ثقته بنفسه.

وشعر أنَّ كُوًى كثيرة تتفتّح له من عالمها على عوالم كثيرة لئن كان يعلم أنَّها كانت قائمة منذ الأزل، فإنَّ دخولها إليها كان أمرًا مشكوكًا فيه. لكأنَّ وجود جانين يوتّر أحاسيسه كلّها، وقد كانت أشبه بالأرض الموات، ويبثّ الروح في عروق نفسه فتستكمل أبعادها جميعًا في مواجهة هذه الحياة.

ومنذ سلّمته جانين سرّها ذاك، أدرك أنَّ خُطاها قد شُدّت إلى خطاه، وأنَّها ستسلك من غير تردُّد الطريق الذي يختاره لها. وقد وجد الدلالة الأولى على ذلك حين سألها عمَّا إذا كانت لا تزال تبحث عن غرفة لدى أسرة، فأومأت برأسها نفيًا، وهي تنظر إليه، ثم أغمضت عينيها، فأدرك أنَّ بودّها ألاّ يفهم ما ستفصح عنه نظراتها لو ظلَّت عيناها مفتوحتين.

ومرَّت ثلاثة أيام أخرى وعى منها أنَّ تعلُّقها به لم يكن دون تعلُّقه بها، ولكنَّه حين تحرَّى صفة هذا التعلّق، أدهشه أنَّهما لم يكونا يعبِّران عنه بغير ذلك الجوّ من الأنس الرهيف. كان بينهما أثيرٌ من الرضى يزيل كل خلاف أو اعتراض أو تردُّد ويجعل نفس كل منهما وترًا مشدودًا يهتزّ لأيّ نَفَس يُرسله أحدهما. وألفى نفسه، كأنَّما على غير وعي، يرافقها في الصباح إلى «معهد الصحافة العالي» في رو دو رين» ثم يُعود أدراجه إلى السوربون ليسمع بعض ما يعنيه من محاضرات. وانقطع في تلك الأيام عن ارتياد مطعم «لوي لوغران» كأنَّما استشعر بعض الخجل من أن يدعوها إلى مطعم للطلاّب، بالرغم من أنَّه هو طالب، وهي طالبة. فكان يدعوها إلى بعض هذه المطاعم الكثيرة المنتشرة في شوارع «سان جرمين» و«سان جاك» و«رو ديزيكول». وهي التي نبّهته بعد ذلك إلى وجوب الكفّ عن تناول الطعام

في تلك المطاعم التي لم تُجعل للطلاّب، وقالت له إنّها ستحاول أن تستبدل ببطاقتها التي تخوّلها أن تتناول طعامها في «المين» بطاقة لمطعمه، فأقرّها على ذلك، وقد شعر أنّه أنفق من المال ذلك الشهر ما جعله يمدّ يده إلى نفقات الشهر التالي، وهو لن يحلّ قبل أسبوعين من يومه ذاك.

أما بعد الغداء، فكانا يعودان إلى فندق «ليغران زوم»، فتلزم جانين غرفتها ساعات ما بعد الظهر تدرس في كتب الصحافة، ويقصد هو مكتبة السوربون أو مكتبة الدراسات الشرقيَّة يطالع في كتب الشعر ويجمع مصادر رسالته. وكانا يتّفقان على اللقاء مساء فيتّجهان إلى دار قريبة للسينما أو إلى مسرح من هذه المسارح التي يحقّ للطلاّب أن يدخلوها بسعر مخفَّض، أو إلى دار من تلك الدور الموسيقيَّة التي تقدِّم أروع الآثار الكلاسيكيَّة.

وقد اقترحت عليه جانين يومًا أن يزورا بعد ظهر يوم الأحد متحف «رودان» الدائم. وهناك اكتشف أنّها فتاة ذات ثقافة فنيّة، وأنّها تتذوّق الأثر تذوُّقًا مرهفًا. وكان يدرك هو أنّه مقبلٌ في ذلك على أمر شاقّ، شأنه في هذا شأن كلّ شرقيّ تعوزه الثقافة الفنيَّة غالبًا. على أنَّه أيقن منذ ذلك اليوم أنَّ الذوق الفني إنَّما يكتسب بالعلم والممارسة والصبر، ولا يُخلق مصنوعًا في النفس، كما أيقن أنَّ بوسعه أن «يتعلَّم» التذوُّق، فيقف مليًا أمام الخطوط والحنايا ويرتشف الأضواء والظلال، ويكتشف سرّ الروعة في لوحة غامضة، أو تفجّر الحياة من ضربة إزميل في تمثال. ثم فهم أنَّ عليه أن يصابر طويلاً ليسيغ الموسيقى الكلاسيكيَّة ويستعذبها، ويعيش منها في ساعات هنيئة. ولكنَّه ظلّ مؤمنًا بأنَّ المسرح كان يوفّر له من المتعة الفكريَّة حظًّا لا تبلغه في نفسه سائر الفنون، وهو لا يذكر أنَّه تردّد يومًا في أن يؤثره على سواه، أو في أن يضنّ عليه بماله، على قلة ماله. والحقّ أنَّه بدأ يشعر بأنَّ حبّ باريس يتغلغل في دمه وهو قابع على إحدى هذه الكراسي

غير المريحة غالبًا، متَّجه الأنظار إلى خشبة المسرح.. أم تُرى قربُ جانين منه هو الذي خيّل إليه ذلك؟

ومساء اليوم الذي زارا فيه متحف «رودان» قالت له جانين إذ بلغا الفندق:

ـ ألا تدعوني إلى زيارة متحفك الصغير؟

فالتفت إليها وقال باسمًا:

ـ تقصدين غرفتي؟ إنَّه متحف فقير جدًا أخجل من دعوتك إليه!

قالت:

ـ أيّ تواضع كاذب هذا! أليس فيه على الأقلّ ديوان شعريّ لك؟

تذكّر فجأة أنَّه أنبأها منذ أيام بأنَّه ينظم الشعر بين حين وحين، ولكنَّه لم يقل لها إنَّه قد ألَّف في ذلك كتبًا. لعلّها إذن تستدرجه. ونظر إليها يقرأ في عينيها، فأردفت:

ـ هذا أكثر من أسبوع أنفقناه معًا، ولا أراك تحدّثني عن شعرك، أو تقرأ لي منه!

فأجاب ضاحكًا:

ـ أردت أن أوفّر عليكِ خيبة لا شكّ فيها!

قالت وهما يرقيانِ السلّم:

ـ أرى أنَّنا سنلزم الليلة فندقنا. وأنا الآن داخلةٌ إلى غرفتي، فإن شئتَ أن تأتيني ببعض شعرك فافعل. إنَّني في انتظارك.

ولم تَدَعْ له أن يقول شيئًا، إذ فتحت باب غرفتها بسرعة، وامّحت.

ورقي السلّم وهو يشعر فجأةً أنَّ إحساسًا جديدًا يستيقظ في داخله.

وحين طرق باب جانين، بعد ربع ساعة، وبيده ديوانه الشعريّ الثاني فتحت له فتاةٌ جديدة قد سرّحت شعرها الأشقر فاسترسل على كتفيها، وركّز في إطار وجهها عينين زرقاويْن تذوبان حنانًا، وشفتيْن تنبضان امتلاءً، وارتدت قميص نوم أنيقًا رقيقًا يكشف عن عنقها وصدرها. وتأتّى له أن يقول وهي تدعوه إلى الجلوس:

ـ أيّ شعرٍ مسكين هذا الذي سيُلقى في هذا الإطار!

واتّجهت إلى سريرها فجلست على حافته وهي تقول:

ـ هات الآن قصيدة.. وسأكافئك عليها بـ...

وقطعت عبارتها، فخفق صدره. ولكنّها سارعت تتمّها:

ـ ... بفنجان شاي!

وانفجرا ضاحكين. ثم أخذ يتحدَّث عمّا تجنيه الترجمة على الأصل، وقال إنّها تفقد هذا الأصل أهمّ ميزاته: الإيقاع، وإنّها ليست آخر الأمر إلاَّ تشويهًا وخيانة. فقالت جانين:

ـ لن يصعب عليّ أن أتمّ الصورة خطوطًا، فهاتها ولو هيكلاً.

وفتح الديوان بتردُّد، فإذا هي قصيدة «الحرمان». وراح يحاول أن يترجمها لها. ورآها بعد لحظات تتأمّله، وهو يبغم بالكلمات بجهد في أن يُخرج منها نغمًا ومعنى وصورة. وكان بين الفينة والفينة يرفع إليها بصره يستطلع على وجهها التأثير، فيقرأ فيه طيوفًا من التأمُّل والأحلام تتجمَّع حينًا في عينيها ذوبًا من نظرات دقيقة، وحينًا آخر على شفتيْها افترارًا لبسمات حالمة. وحين فرغ من ترجمة القصيدة، وقد أجهده ذلك، رآها تنهض إليه على هينة، فتدنو منه، وتضع كفَّيها على كتفيه، وتجعل عينيها في عينيه وتهمس:

ـ ما أروعك يا شاعري!

وانهارت في نفسه جميع أسباب تلك المقاومة التي أرمضت قواه طوال الأسبوع الماضي، وهو يتجاهلها، ويكبتها، ويصرفها عنه بالفيلم والمسرحية والموسيقى والكتاب. ونهض عن كرسيّه، فجذب جانين إليه، وهمهم باسمها مغمض العينين، فيما كانت شفتاه تطبقان على شفتيها.

وأحسّ من نشوة هذه القبلة بمثل الخَدَر. شعر بأنَّ كيانه كلّه تجمّع في شفتيه، فالتصق بشفتي جانين كأنَّما ينزع إلى الفناء فيها. لا، لم يكن ينبض فيه عرق من شهوة ولا إحساس من اهتياج. كان روحًا تعانق روحًا.

وحين انفصلت الشفاه، فتح عينيه، فإذا عيناها لا تزالان مغمضتين وإذا شفتاها نابضتان تخفق بهما الرغبة. ولكنّ جانين ما لبثت أن تململت، وانشقّ جفناها عن نظرة حمّلتها العتاب والندم:

ـ ... والعهد الذي تعاهدنا عليه.. أيُّها الصديق؟

فقال باستسلام وإخلاص شهدت له بهما حواسّه:

ـ أحبّك يا جانين.

ولم يكن يتوقع أن تنتفض جانين بغتة، ولا أن تتحّيه عنها بلطف، وفي تقاطيع وجهها ينطلق ألم صارخ، ثم تقول بتبرّم:

ـ وأنت أيضًا؟ لماذا؟ لماذا تكذبون فتفسدون كل شيء؟

وأحسّ بها طعنة دامية، هو الذي كان منذ لحظات روحًا فانية فيها. وقد شعر من الطعنة بقطرات الدم في قلبه، ثم في فمه فتمصّصها بعذاب ولبث صامتًا. وما عتم أن نهض فوقف أمام النافذة لا ينبس بحرف. ورأى الثلج كمندوف القطن يتساقط بطيئًا عند أحد المصابيح الكهربائيَّة في ساحة البانتيون القريبة.

وكان مرأى الثلج هو الذي هدّأ أعصابه. ينبغي أن تكبت سورتك. إنَّها ما زالت غير واثقة بك. ولكن ألا تراها على حقّ في ذلك؟ إنَّ جرحها

لم يلتئم، وإنَّك لتوشك أن تنكأه، وإن كانت عاطفتك مخلصة. أليست تخشى أن تتجدَّد مأساتها؟ ألا تجد فيك، في الرجال جميعًا، شيئًا من «هنري»، إن لم يكن «هنري» كلّه؟ وذلك الرجل كان، إلى هذا، خطيبها، رفيق حياتها في المستقبل. فأنت، من أنت، إزاءها؟ أفما يحقّ لها أن تشكّ وتخاف وتنفر، وحتى ولو وثقت المرأة الشريفة بالرجل، فهل تبرّر الثقة الاستسلام؟ لقد عرفتَ قصة جانين، وأدركت سبب قلقها الدائم. إنَّها بحاجة إلى من تثق به، بعد أن زُعزعت ثقتها بالإنسان كقيمة، أفما ينبغي لك أن تردّ لها هذه الثقة، وتعمل على شفاء جراحاتها؟ أما تقول إنَّك تحبّها حقًا؟

وسمعها فجأة تنطق باسمه منادية، فلم يتزحزح من مكانه، وظلّ بصره معلَّقًا بالثلج المندوف. ونادته ثانية فأصرّ على ألاّ يلتفت إليها ومضت برهة ساد فيها صمت أصمّ، ثم سمع صوت نحيبها.

ولم يستطيع أن يمضي في تكلُّفه اللامبالاة، فأقبل عليها خافق القلب، وأخذها إلى صدره في حنان وهو يردّد اسمها من غير أن يضيف إليه شيئًا. وقالت جانين وهي تشرق بدمعها:

- أعذرني.. سامحني.. ليس هذا ما أردت أن أقوله.. أنا أيضًا.. أريد أن أحبّ.. لأنِّي أنشد السعادة.. لأنِّي أحبّ الحياة.. ولكن.. ولكنَّه..

وغطّت وجهها بيديها، وانفجرت في سورة من البكاء أورثته ارتباكًا واضطرابًا عظيمين، فأخذ يربّت على كتفها وظهرها، ثم جعل رأسها إلى عنقه، وضغطها إلى صدره في ضمّة مسعورة تراخت لها بين ذراعيه. وشعر رويدًا رويدًا بأنَّها تنهنه دمعها، كأنَّها تأسف على إظهار هذا الضعف. وظلّ ردحًا يحسّ برعشة جسمها تسري عَبْرَ جسمه، فيشدّها إليه، ويمركّفه على ظهرها في شيء من القسوة. ثم سمع صوته، صوت نفسه يقول بتبرّم:

- لا أدري يا جانين.. يُخيَّل إليّ الآن أنَّ علاقتي بك قد أخفقت.

فرفعت إليه عينيها الباكيتين، وقالت في لهجة خائفة:

ـ ولماذا تقول ذلك؟

ـ لقد بذلت جهودي كلّها لأبعد عنكِ صورته، هو هنري، وأعيد إليك حبّ الحياة..

فقاطعته تقول:

ـ أما الحياة، فقد استعدت حبّها، والفضل في ذلك مردود إليك دون ريب.. ولكن أتحسبها ذكرى تافهة لحدث يسيرٍ من أحداث حياتي حتى أنساها بهذه السرعة واليُسر؟

فقال:

ـ أعلم أيّة ذكرى هي.. ولكن هذا الشخص الماثل أمامك ألا يستحقّ أن..

فعادت تقاطعه:

ـ لا تتحدَّث عنه.. إنَّه لا يدري أيّة مكانة له في نفسي!

ـ لِمَ لا تقولين إذن إنَّك تحبّينه بعض الشيء على الأقل؟

ـ لأنَّني أكره النطق بهذه العبارة.

وتلبّثت هنيهة، ثم دسّت رأسها في عنقه، فلامس شعرها أنفه، وأفعمه بعبير خاطف زاده لهفة إلى تشمّم ذلك الشعر المسترسل الرقيق. ثم سمعها تهمس بأذنه غير مرّة. إنَّها تحبّك، من غير شكّ، ولكن هذه العبارة غدت طعنة لها منذ أن وجّهتها مرة إلى هنري. ولعلّها بعد ذلك ما فتئت تتخوَّف.. فما يدريها..

ـ وأنتِ.. ما يدريني أنَّك لستِ كذّابة صغيرة؟

فلم تجب، وإنَّما تناولت كفّه، فحملت باطنها إلى شفتيها، وأخذت تدغدغها على مهل.

وأسبلت جانين جفنيها مرّة ثانية، ثم رفعت إليه وجهها، ولبثت تنتظر أن يأخذ شفتيها، ولكنَّه كان يتأمَّل هذا الوجه النائم الحالم، المضطرم شبابًا ونضارة وجمالاً. وسمعها تقول، بصوت لا يكاد يبين:

ـ أعطني شفتيك..

فهمّ لينحني، ولكنَّه تدارك ليقول بخبث، شقّ عليه فيما بعد أن يُظهره:

ـ والعهد الذي بيننا؟

فافترّت شفتاها وعيناها في وقت واحد:

ـ لقد أفسدته قبلتك الأولى، فهو لاغٍ!

فأخذ شفتيها الباسمتين يلامسهما برفق، ثم جعل يتمصّصهما بنهم، ثم أحسّ بلسانها بين شفتيّه.

وحين سمعها تتنهّد، عزم على أن يملك حواسّه ونهض مترفّقًا، يأخذ بذراعها اللدنة، ثم طوّق كتفيها، وقال وهو يمشي بها إلى الباب:

ـ ينبغي الآن أن أعود إلى غرفتي. إنَّها الحادية عشرة والنصف.

فلم تنغم بحرف واحد. وسألها عند باب غرفتها، وهو يُحلّها من ضمّته:

ـ ماذا؟ ألا تزالين غير واثقة بي؟

فأجابت بصوت غائب:

ـ لا أدري.. وإنَّما أخشى أنِّي بدأت أفقد ثقتي بنفسي.

وكان قد شقّ الباب، فدفعته إلى الخارج بإصرار، وأغلقت خلفه الباب بإحكام.

ـ ٢ ـ

ثم غادرت «جانين» باريس إلى مقاطعة «الهوت سافوي» لقضاء أسبوع الميلاد لدى خالةٍ لها هناك، كانت تحبُّها وتُلحّ عليها منذ غادرت قريتها بالألزاس، في أن تزورها وتنزل ضيفة عندها لبضعة أيّام. ولم يدر لماذا لم يثنها عن عزمها على القيام بتلك الرحلة، بل هو قد عَجِبَ أنَّه شجَّعها عليها، لغير ما سبب واضح.

ولكنَّه أدرك، منذ اليوم الأوَّل الذي غابت فيه جانين، أنَّه إنَّما حثَّها على الذهاب ليمتحن نفسه. وسرعان ما شعر بأنَّه امتحان عسيرٌ لحبّه. كان يُحسّ كيفما توجَّه أنَّه ضائع، كأنَّما فَقَد قسمًا من ذاته راح يبحث عنه دون ما جدوى. وكان العيش في وقائع ذينك الأسبوعين عزاءَه الوحيد من حاضره هذا القاحل. ووعى من غير مشقّة أنَّ هذه الفتاة الفرنسيَّة قد استأثرت بوجوده طوال تلك الأيام، ونجحت في أن تسلخه عن عالمه، وإن لم يكن راضيًا عنه.

واستشعر ببعض الخجل إذ ذكر أصدقاءه، هؤلاء الذين كان أقرب إليهم من ظلّهم، لأيّام خلت. حتى صبحي، هذا الذي ينزل في الفندق المجاور، لم يَرَه منذ عشرة أيام. وفؤاد.. وشعر بالدَّم في وجنتيه خجلاً. أيّ حبّ هذا! بل أيَّة فتاة، هي جانين، لتصرفه عن ذلك الصديق الذي استأثر بفكره وعاطفته جميعًا، منذ أيام قليلة؟ لقد كان يُحسّ بغموض أنَّ صديقه

يشقّ له آفاقًا جديدة من وجوده كان يغشاها ضباب كثيف. أيكون هذا وهمًا استحوذ عليه،إذ ما كادت جانين تدخل حياته، حتى غابت تلك الآفاق، أم أنَّ حبّه هذا، طواه على ذاته من جديد، وأغلق عليه جوانب القوقعة؟

على أن أشقّ إحساس عليه وآلمه، إنَّما أورثته في نفسه تلك الرسالة التي وصلته من أمّه بعد ظهر ذلك اليوم بالذات. لقد شعر بشبه ذُعر، حين فضّ الرسالة فوقع نظره على خطّ أمّه. لا، هو لم ينس أنَّها كانت مريضة، وأنَّه عزم على أن يبرق لذويه مستفسرًا يوم التقى بجانين ذلك اللقاء، ولكنَّه جعل يرجئ الكتابة إليها يومًا بعد يوم، ثم ها قد فاته أن يكتب، وها هي ذي أمّه الحبيبة عاتبة أنَّ كلمة منه لم تبلغهم ذلك الأسبوع، بينما كانوا يترقَّبون أن يوافيهم، بدلاً من رسالته الأسبوعيَّة المعتادة، باثنتين.

وجلس يكتب إلى أمّه، ينتابه شعورٌ كشعور المذنب يسعى إلى تبرير نفسه. حدّثها عمَّا خلَّفه نبأ العمليّة التي أجريت لها من ضيق وقلق في نفسه، ثم روى أنَّه كان ينوي الإبراق لهم، ولكنَّه آثر العدول، توفيرًا للنفقات... وأدرك أنَّ كذبته هذه هي التي أشعرته بهذا الوخز، كمثل وخز الإبر، في جبينه وجلدة رأسه. وتساءل في همّ زافر: لمَ يكذب، ولِمَ لا يصارح أمّه، وهي خير من يحبّه، بحقيقة الأمر؟ لِمَ لا يحدِّثها عن جانين، هذه التي تملأ الآن حياته بالسعادة؟

وابتسم في سخرية مريرة. أنَّى لأمّه أن تقرّه على شيء من هذا؟ وماذا عساه يفيد بعدُ من إطلاعها على ذلك الأمر؟ أما كان يعيش من بيته في جوّ خانق؟ أكان يستطيع أن يخفي على ذويه وعلى أمّه خاصّة، أيّ سرّ صغير؟ ألم تكن حياته نهبًا مشاعًا لهم؟ أكان بوسعه أن يشعر بالاستقلال في حياته، وبالحريّة في مسلكه؟ وهذا الفرار إلى باريس، أما كانت تدفع إليه رغبة في التحرُّر من ذلك الجوّ العتيق، وسعيٌ إلى سوق حياة خاصّة يشعر أنَّها له، أنَّها حياة حميمة لا تعني أحدًا سواه؟

ومضى في رسالته، وسالت تحت قلمه الكلمات: عملٌ مرهق، ومطالعة مستمرّة، واستغراق في المراجع، ومناقشة للأساتذة في تفصيل موضوعات الأطروحة.. وبعد ذلك، وعدٌ بالعودة إلى الرسالة الأسبوعيَّة المعتادة، وسؤال عن أفراد الأسرة واحدًا واحدًا، وختامٌ من القبلات والأشواق.

وطوى الرسالة في زفرة، وأودعها في مغلف، وغادر الفندق.

وفي مركز البريد، غير بعيد عن السوربون، التقى بصبحي فبادره صديقه بما لم يكن ينتظره منه. لم يعتب عليه صبحي، ولم يسأله عن غيابه ذلك الطويل، وإنَّما اجتزأ بالقول:

ـ رأيتك مرةً، وأنا في نافذة غرفتي بفندق البانتيون، خارجًا برفقة فتاة شقراء الشعر، فقلت في نفسي: «إنَّ هناك من يشغله عنَّا!» ولهذا قرَّرنا، عدنان وأنا، أن نطلق لك الحرية كلَّها، وقلنا: «إن كان يبغي لقاءنا، فهو ساعٍ إلينا لا محالة!»

فلم يجد إلاَّ أن يبتسم. وشعر أنَّ بسمته لم تخْلُ من بلاهة فقال:

ـ لا أكتمك يا عزيزي أنَّ هناك من يشغلني، وأنت، ما أنباء فتاتك السويديَّة، وزميلتك طالبة الحقوق؟

ـ أما السويديَّة فقد أصبحت من التاريخ القديم، ولست أدري إن هي عادت إلى بلادها أم لا.. إنَّ بلادها باردة جدًا أيُّها العزيز!

فضحك هو بدوره، ثم سارع يسأله، ليوفِّر عليه الإيضاح:

ـ وأمّا الزميلة المحترمة؟

ـ ما زلت أتوكأ عليها في الطريق! وهذا لم يحل دون مغازلتي زميلة لها من كليَّة الطبّ!

وأردف صبحي وهو يقهقه:

- من يدري.. فقد أصاب قريبًا بصداع الملل، فتشفيني طالبةُ الطبّ!

وخرجا من مكتب البريد محبورين. على أنَّه شعر وهو يذكر كلام صديقه بامتعاض قليل نجح في إخفائه. لقد طفرت جانين فجأة إلى مخيّلته، فآذاه أن يضعَها على صعيد واحد مع هاتيك الفتيات، وآذاه أيضًا أن يفكِّر أنَّ بوسعه يومًا أن يقف من جانين هذا الموقف الذي يقفه صديقه من فتياته. أيّ فحش هذا وأيّ فجور!

ثم خشي أن يظلم صديقه بهذا الحكم. لعلّ الذنب ليس ذنبه.

أتكون هاتيك الفتيات مثل جانين؟ وبَرِم مرّة أخرى أنَّه اضطر إلى مقارنتها بهنَّ. وحرَّره صديقه من اضطرابه إذ سأله:

- هل أنت عائدٌ إلى فندقك؟ أما أنا فذاهب إلى «الكابولاد» للقاء بعض الأصدقاء، فهل ترافقني؟

ولم يكن يدري إلى أين ينبغي أن يذهب، ولكنَّه تذكّر فجأة «فؤاد»، فسأل صديقه عنه:

- عجبًا! لم أفطن إلاّ الآن إلى أنَّنا لم نره في «لوي لو غران» منذ بضعة أيام.

وودَّع صبحي، دون أن يسأله شيئًا، واتَّجه إلى شارع «غي لوساك».

ولم يخنْه حدسه، فقد كان فؤاد في فراشه يشكو الضنك.

ورحَّب به صديقه الأثير بابتسامة شاحبة من أثر المرض، ودعاه إلى الجلوس. وقد وجد هو من الحرج والضيق في مواجهة صديقه بعد هذه الغيبة الطويلة أضعاف ما وجده في الكتابة إلى أمّه. ولكنَّه إذ نظر برقَّة في عينيْ فؤاد، سقط هذا الضيق كلّه، وسُرِيّ عنه. فلم يتردَّد في أن يكاشفه بكل ما حدث له. ولم يشعر أنَّه يؤدِّي بذلك له حسابًا، وإنَّما كان على يقين من أنَّه لن يجد أشدّ إخلاصًا له من فؤاد. وقد بسم له صديقه

بسمة شعر هو بأنَّه ينتزعها من صميم فؤاده، وقال له في عبارة لمس فيها لهجة النبوءة:

ـ أراك تحبّها حبًا صادقًا، فلا تندم ولا تتردَّد. إنَّ هذا الحبّ كفيل بأن يصهر النفس ويزيل عنها كثيرًا من أدرانها... ومثل هذا كان حبِّي الأول..

وأيقظته عبارة فؤاد الأخيرة، فنظر إليه في تطلُّع ودهشة. عجبًا! كيف لم يخطر له مرّة أن يسأل صديقه عن شجونه الغراميّة، كأنَّما قرَّ في لاوعيه أنَّ هذا الإنسان معصوم عن الوقوع في الحبّ! أيّ بليد ساذج هو إذن!

وشاء أن يغادر غرفة صديقه بعد وقت قصير، حرصًا على راحته، ولكنَّ «فؤاد» استبقاه وهو يقول له إنَّ الضنك بدأ يولّي عنه الآن. وأضاف إلى ذلك:

ـ لا أدري سبب هذه الرغبة الشديدة في أن أروي لك بعض حكاياتي الغراميَّة!

وقد شغفته ليلتذاك تلك الحكايات التي ظلَّ صديقه يرويها له حتى ساعة متأخِّرة، وكان في ضميره، وهو يستمع إليها، شبه إيمان بأنَّه لا بُدَّ سيفيد منها فيما هو مقبل عليه من أمر حبّه. وأخذه العجب أن يكون فؤاد قد بلا، وهو في مثل سنّه، هذه المحن الكثيرة التي واجهته بها الحياة، فغرق في الرذيلة إلى أعمق درك، وسما في الحبّ إلى أسمى مرتبة، وكان في الأمرين جميعًا واعيًا تجربته أشدّ الوعي. ولولا أنَّ لصديقه في نفسه منزلة لا يتطرّق إليها ضعف النفوس، لأحسّ له بالغيرة بل بالحسد من أن يكون قد تزوّد من تجارب الحياة بما لم يتزوَّده هو، المتفوِّق عليه في حساب الرتب العلميَّة!

وأدهشه في تلك اللحظة بالذات أن يقول فؤاد، وكأنَّما حدس بفكرته، وإن كان موقنًا أنَّه لا يعنيه:

- إنَّ الكتاب أعجز من الحياة في ميزان التجارب الإنسانيَّة. وإنَّ هذه السنوات الثلاث التي قضيتُها هنا قد علَّمتني من شؤون الوجود ما لم تعلِّمني إيَّاه كتب الأدب والفلسفة، ولكنِّي واثق مع ذلك من أنَّ تجاربي هذه هزيلة مضحكة إزاء تجارب الذين هُيِّئوا لمواجهة ألوف المحن والبلايا!

وألفى نفسه يسأل صديقه، بعد لحظات، سؤالاً حسبه محرجًا:

- ولكنِّي لا أراك الآن في علاقة مع امرأة فهل يعني أنَّكَ رويتَ واكتفيت؟

فضحك فؤاد وأجاب:

- لن أروى من امرأة أبدًا، إنَّ حاجتي إليها لشديدة، كحاجتي إلى الكتاب سواء بسواء..

وكفّ لحظة ثم أردف مستضحكًا:

- ثم ما يدريك أيُّها العزيز أنَّني لست الآن في علاقة مع امرأة؟ أم تراك تريدني أن أتباهى بالظهور معها، هنا وهناك، كما يفعل بعض الرّقعاء من مواطنينا الكرام؟

وأضاف بعد فترة قصيرة:

- أوه.. لو حضرتَ قبل أن تحضر بنصف ساعة، للقيت هنا «فرانسواز»... وأيًا ما كان، فلا بد من أن أعرِّفك بها يومًا... وأحسبها تعجبك!

فلم يتردَّد هو لحظة في أن يعقّب بقوله:

- ولا بدّ من أن أعرِّفك أنا أيضًا بجانين يوم تعود من فرصتها، ولا شكَّ في أنَّها سترضيك!

وفهم أنَّ صديقه يجامله حين قال له:

ـ لا أرتاب في ذلك، فأنا مؤمن بأنَّ لك ذوقًا سليمًا!

وسادت بينهما لحظة صمت، ما لبث فؤاد أن قطعها موضحًا:

ـ قلت إنَّ حاجتي إلى المرأة شديدة. ولكن هذا لا يعني أنَّها لا تزال هي همِّي الأوَّل.. لقد كانت كذلك يوم وصلت إلى باريس. أما الآن، فإنَّ لي همومًا كثيرة أخرى، ليست المرأة إلاَّ أحدها. ولست لأنكر أنَّها تعينني كثيرًا على مواجهة سائر هذه الهموم. وأنا أعتقد على كل حال أنَّ أحدنا لا يبلغ استغلال إمكانياته كلّها، أو أكثرها، إلاَّ إذا كُفيت حاجاته كلّها أو أكثرها..

وتساءل فؤاد بعد ذلك في وضوح وإصرار:

ـ ألا تعتقد أنَّ كثيرين من شبابنا العربي، هنا وفي الوطن، محرومون من استغلال أسمى إمكانياتهم لأنَّ حاجاتهم في الحبّ والجنس غير مكفيّة؟

وبينا كان يومئ برأسه إيجابًا، وما كان له أن يفعل غير ذلك، أخذ صديقه يسعل، ثم اشتدَّت عليه نوبة السعال حتى تشنَّج لها وجهه واحمرَّت عيناه، وحين انسرت عنه قليلاً تمتم في مثل الاعتذار:

ـ ما زلت أحزم أمري على وجوب الإقلاع عن التدخين، أو الحدّ منه على الأقل، ولاسيَّما تدخين مثل هذه اللفائف الثقيلة «الغولواز». وما أشدّ حسدي لك أنَّك لا تدخِّن!

وكان هو قد نهض يُعدّ لصديقه فنجانًا من الزيزفون، ويقدِّمه إليه ساخنًا يتصاعد منه البخار، وينصح له بأن يتناول معه قرصًا من الأسبيرين.

وهدأ فؤاد بعد دقائق، وعاد إلى عينيه صفاؤهما، فاستأذنه بالذهاب ووعد بزيارته في اليوم التالي، متمنِّيًا له ليلة شافية.

وإذ لفظته غرفة صديقه، واستقبله «غي لوساك» شعر بأنَّ شيئًا كالعبء ينزاح عن كتفيه. ولا يدري أيّ إحساس هذا، ولكنَّه يدرك الآن فقط أنَّه أحسّ به من قبل أيضًا، ولعلّه كان يشعر بأنَّ هذا العبء يثقل على كتفيه

كلَّما التقى بفؤاد، ثم ينزاح عنه كلَّما فارقه. لكأنَّها قطعة من وجود صديقه تنفصل عنه وتتَّجه إليه لتشعره بأنَّ حياته ينبغي أن تضطلع بتبعة وتتحمَّل مسؤولية وتسعى إلى غاية. ذلك ما كان يحسّ به كلَّما اجتمع إلى فؤاد، أما الآن فها هوذا يفارقه، فيعاوده الشعور بهذا العوم والطفو فوق أيّ ثقل. إنَّه يكاد يلمس بيديه هذا الفراغ الذي يستخفّ به، فإذا هو يمضي في طريقه خفيف الخطو، كأنَّما لا يحسّ الأرض تحت قدميه.

وكان يفكّر بهذا حين شعر بأنَّ قدميه، هاتيْن القدميْن، تتسمَّران حيث وطئتا. وإذ تنبَّه إلى ذلك، ألفى نفسه واقفًا من فندقه في الممرّ الذي يفضي إلى غرفة جانين.

وخفق صدره، وانتابته رعشة، وانساق في الممرّ بشبه لاوعي. حتى إذا بلغ باب الغرفة الموصدة، وضع يده على المقبض وحاول أن يفتله، فظلَّ المقبض جامدًا لا يلين. ومع ذلك، فقد خيِّل إليه أنَّ الباب يفتح، وأنَّه يدخل الغرفة، فتستقبله جانين بذراعيْن مفتوحتين، وتضمّه إليها بشدَّة، ثم تدسّ رأسها في عنقه، فينبعث في أنفه عبيرٌ من شعرها خاطف يزيده لهفة إلى تشمّم ذلك الشعر المسترسل الرقيق، ثم يسمع صوتها يهمس باسمه، فيتناول شفتيْها، تينك اللتين همستا باسمه، ويشعر بأنَّ كيانه كلّه يتجمَّع في شفتيه... وتمضي لحظات، يرى في أثنائها النعاس يهوّم على جفني جانين، فيردّ على جسمها الغطاء، ويطفئ النور، ثم يخرج مغلقًا خلفه الباب.

وشعر بيده ما تزال على المقبض الذي لا يلين، فجذبه نحوه، كأنَّما ليستوثق من إغلاق الباب، ثم ينفتل فيجتاز الممرّ ثانية، ويدرك السلّم فيرقاه حذرًا، يسترق الخطى استراقًا، كأنَّما يخشى أن يوقظ أحدًا، أو أن يراه أحد.

- ٣ -

وضاقت به باريس، ولمّا يمضِ على غيبة جانين يومان، فاقترح على صديقيه صبحي وعدنان أن يقوموا برحلة إلى قصور «اللوار» الأثريَّة. وكان يودّ لو يصحبهم فؤاد، وكان قد استعاد صحّته، ولكنَّه اعتذر، خشية أن يُصاب بنكسة.

وكان الطقس جميلاً يَعِد بأيّام صَحوٍ ممتعة، وكان ذلك غريبًا في تلك الفترة من العام. ولكنَّهم رأوا الباريسيِّين مبتهجين غاية الابتهاج بذلك الجوّ، خارجين إلى الغابات والحقول، مستقلّين القطارات إلى الضواحي والأقاليم. وكان صبحي وعدنان منطلقين جذليْن، على عادتهما، وإن كان عدنان أقلّ كلامًا وأهدأ انفعالاً.

وكانوا قد زاروا قصرين أو ثلاثة من قصور «اللوار»، حين أحسّ هو بأنَّ نفسه لم تكن لتهتزّ بأيّ شعور أمام تلك القصور، فكأنَّما هي صخرة من صخورها لا تعي. ولكنَّه لم يشأ أن يعبِّر عن ذلك، خوف إفساد الجوّ على رفيقيه، وقد سحرتهما بعض هذه القصور. وانتقلوا في اليوم التالي إلى منطقة تكثر فيها الآثار فتعلّل بصداع ليقضي نهاره في الفندق الذي نزلوه، على أن يوافياه إليه، في المساء. ولذّه أن ينفق الساعات الطويلة وهو يقرأ في كتاب عن الشعر، كان يعرض لمختلف المذاهب الشعريَّة بالتحليل والنقد.

وحين أصبح ورفيقيه، وكان ذلك يومهم الثالث، كانت السماء ملبَّدة بالغيوم السوداء. ولم تمض دقائق حتى أبرقت وأرعدت، ثم انهمرت أمطارًا غزيرة لم يشهدوا مثلها في العاصمة. وقد ظلّ المطر يهطل حتى جرت منه السيول وتكاثفت الوحول. ولم يسعهم أخيرًا إلاَّ أن يقرِّروا العودة إلى باريس، والخيبة مرتسمة على وجوههم أو وجهَيْ صديقيه على الأقل. أما هو فقد ارتاح لهذه الأمطار والعواصف التي ردّته إلى فندقه، وإلى غرفته بالذات.

على أنَّه ما عتم أن ضاق بغرفته نفسها، فغادرها عند الغروب إلى ساحة «الأوبرا» وفي نيَّته أن يشاهد واجهات المخازن المزدانة لمناسبة الميلاد، بكل رائع فتّان من المعروضات. وقد ظلّ ساعة يتنقل أمام الحوانيت المضاءة، حتى أسلمته قدماه إلى جادّة «الشانزليزه»، وكان قد اجتازها مرّة من أدناها إلى أقصاها، فاستشعر لذلك لذّة غريبة. ولكنَّه ما كاد يسير فيها بضع عشرات من الأمتار هذه المرّة، حتى فاجأه المطر في موضع لم يكن فيه غير الأشجار، على حافتيْ الجادّة. وقد اضطرّ إلى أن يعدو في اتّجاه محطة المترو، فلم يبلغها إلاَّ وقد غسله الوابل.

ووقف داخل النفق ينظر إلى ثيابه وهي تقطر ماء، ويحسّ قطرات المطر تسيل على جبينه وخدَّيه، فانتابه شعورٌ بأنَّه مسكين ذليل، يستحقّ الرثاء.

واستقلّ المترو إلى الحيّ اللاتيني وهو يُحسّ مزيجًا من الغيظ والسخرية والعذاب. لماذا ترك جانين تذهب؟ ألم يتكلَّف في ذلك فوق ما كان طبعه يتحمَّله؟ لماذا لم يجْرِ مع سجيَّة نفسه، فيعترض سفرها، بل يبتهل إليها أن تبقى إلى جانبه إن هي أصرّت على الذهاب؟ أيحسب أنَّ موقفه ذلك حريّ به أن ينصبه شخصية ذات طابع خاصّ؟ وهل يَعْني المحبّ أن يُبرز شخصيَّته، إن كان مخلصًا في حبّه؟

وأخرس لسانه بحنق، وفكَّر فيما عساه أن يفعل إن رجع إلى غرفته. وذكر فجأة صديقًا له من أصدقائه اللبنانيِّين، لقيه ذات يوم في الطريق ودعاه إلى زيارته في «البيت اللبنانيّ». وكأنَّما كان يكفي أن يقوم «البيت اللبنانيّ» خلف البانتيون، حتى يقرِّر أن يتَّجه إليه لزيارة صديقه.

وحين طرق باب «نصري» أخذه بعض العجب أن يسمع خلفه همسًا ووشوشة، وترقَّب لحظة، ثم طرقه مرّة أخرى. وبعد برهة وجيزة، انشقّ الباب على مهل فبدت في فرجته عينُ صديقه. وما لبث الباب أن فُتح، فأومأ له نصري أن يدخل على عجل، وأقفل خلفه الباب، وهو لا يفهم من الأمر شيئًا. ولكنّه حين نظر فرأى أربعة شبان أو خمسة جالسين حول طاولة، وفي أيديهم ورق اللعب، وقد بدأوا ينظرون إليه بريبة، حسب أنَّه فهم ما كان يجري. على أنَّ صديقه وفَّر عليه إعمال الفكر في غير ما جدوى، فقال له بعبارة شديدة الإيجاز:

- إنَّنا نلعب «البوكر» ونخشى أن يباغتنا مدير «البيت». فإن كانت اللعبة تروق لك، أو إن كنت تحسنها، فلا تتأخَّر عن مشاركتنا فيها.

وسرعان ما عاد نصري إلى الجلوس بين رفاقه، والاستغراق في تقليب الأوراق.

وأحسّ هو بامتعاض لهذا الاستقبال الجافّ. إنَّ أحدًا لا يهتمّ به الآن، وكلّهم صامتٌ يحدِّث فيما بين يديه. وساورته الرغبة في أن يدعهم ويخرج. ولا شكّ في أنَّهم جميعًا يرغبون في هذا. ولكنَّه لم يجرؤ، ولعلّه خشي إن هو نفّذ فكرته أن يحسبوه قد خرج ليشي بهم لدى مدير «البيت»، فآثر أن يظلّ حيث هو واقفًا، ينظر إليهم ولا يدرك من أمر لعبتهم شيئًا. ولكنَّه لم يلبث طويلاً حتى عزم على التنبُّه لهم وتركيز اهتمامه فيما كانوا يعملون.

وإن هي إلاّ بضع دورات تناوبوا فيها توزيع الأوراق، حتى بدأت أسرار اللعبة تتكشف له، على ضعفه في شؤون الحساب والأرقام، وأيقن أنّ الأمر أمر حظّ يوافي أحدهم فتسقط في يديه الأوراق المتماثلة، فينتزع المال بقدر ما تتكاثر هذه الأوراق المماثلة أو تتسلسل أو تتشابه في الطابع.

وبدأت الرغبة تغلي بداخله في أن يجلس إلى هذه الطاولة التي تستأثر بالنفوس وتجذب الأنظار وتستقطبها حول الأوراق. ولكن كيف له أن يعبِّر عن هذه الرغبة؟ وما يدريه إن كان لا يزعج هؤلاء المستغرقين في ذواتهم أن ينضمّ إليهم هذا الدّخيل؟

ولبث متردِّدًا حائرًا، وهو يتحلّب شوقًا إلى أن يمسّ بأصابعه هذه الأوراق الملساء وتلك الصُفيحات العظميَّة، التي تتجمَّع طورًا عند واحد من اللاعبين، وتنتثر طورًا آخر بينهم جميعًا.

... إلى أن جرفها صديقه «نصري» ذات لحظة، إلى حيث كان يجلس من الطاولة، فبدا على وجهه انشراح ورضى لم يستطع إخفاءهما، وإن لم يُردْ إظهارهما، فإذا هو يلتفت نحوه، ويبتسم له، ويقول في كثير من اللّطف والرقَّة:

- لا تؤاخذنا أيُّها العزيز.. لقد قصّرنا في الترحيب بك، والاهتمام بأمرك... ولكنَّك ترى ما نحن فيه!

فعلَّق أحدهم مسرعًا بقوله:

- بل لماذا لا تقول إنَّك كنت خاسرًا، فما كان يعنيك أحد.. وها أنت ذا الآن «تقشّ» الطاولة، فتشعر بحاجة إلى التعبير عن فرحتك، ولا تجد غير صديقك هذا لتحدِّثه، وهو الوحيد الذي لم يُصَبْ منك بالخسارة؟!

فضحك ثلاثة منهم ضحكات فجّروا فيها غيظهم، بينا استطاع الآخران أن يملكا أعصابهما. ولعلّ «نصري» رأى من الخير ألاّ يعقّب على كلام صاحبه، فعاد إليه، هو، يسأله:

ـ ألا ترغب في أن تتسلّى معنا بعض الوقت؟

ولم ينتظر جوابه، بل سارع يُفسح له مكانًا بجانبه ويدعوه إلى الجلوس. فقال له صديق آخر:

ـ ولكن حذار.. إنَّ نصري بارعٌ في استراق النظر!

فلم يأبه لقوله، وتقدّم فاقتعد الكرسي بجانب صديقه، وتسلَّم عددًا من الصفيحات ودفع ثمنها إلى صاحب الصندوق. وما لبث الصمت أن ساد الجميع.

وكانت قد مضت ثلاث دورات أو أربع، منذ باشر اللعب، حين قال له جورج:

ـ أراك ما زلت ضعيفًا في اللعبة.. فهل تكون هذه هي المرّة الأولى التي تباشرها فيها؟

فتلعثم لحظة، ثم أجاب:

ـ لعبتها قبل الآن، ولكن بضع مرّات فقط.

قال نصري، وكأنَّما يغريه:

ـ لن تلبث طويلاً حتى تبرع بها، فإنَّ حظّك ليس رديئًا كما يبدو لي!

وقال أنطون، بلهجة لا تخلو من سخرية:

ـ سترون، على كل حال، أنَّه لن ينهض إلاَّ رابحًا. لقد علّمتنا التجارب أنَّ المبتدئ في هذه المدرسة، هو الذي يفوز على المتخرِّجين والمنتهين!

وكانت هذه العبارة إيذانًا بالعودة إلى الصمت، والتحديق في الأوراق والصفيحات.

ولم يصدق حدس أنطون، في النتيجة، وإن صدق في بداءة الأمر. فهو قد ربح عددًا وافرًا من الدورات، ولكنَّه ما عتم أن خسر كل شيء في

دورتين اثنتين. وأحصى ما ضاع من ماله، فإذا هو سبعمئة فرنك وقال له نصري، وهو يودّعه:

ـ أكرِّر لك أنَّ حظك عظيم، ولكن ينبغي لك أن تستغلّه. والقضيَّة قضيَّة مراس، قضيَّة زمن!

فأجابه وهو يغتصب ابتسامة:

ـ لقد كنتُ على كل حال بحاجة إلى التسلية، وقد أصبتُها من غير شكّ!

ثم مضى يحثّ خطاه نحو باب الخروج، ولكنَّه سمع صوت صديقه يتناهى إليه بلهجة مخنوقة:

ـ كلّما شعرت بملل أو ضجر، فتعال اصرفهما هنا بالتسلية!

وإذ أصبح في الطريق، نظر إلى ساعته، فإذا هي الواحدة والثلث بعد منتصف الليل. ولم يَهلْهُ أنَّه سهر إلى هذه الساعة المتأخِّرة، وإنَّما راعه أن يمضي الوقت سريعًا فلا يحسّ به. واستعاد ذكرى دورة ربحها، ودورات أخرى خسرها، ثم انتهى إلى الحكم بأنَّها لعبةٌ لذيذة جدًا، لأنَّ الحظّ هو الذي يلعب فيها الدور الأول. ولم يأسف على هذه الفرنكات السبعمئة التي خسرها، على شدّة افتقاره إليها في الإنفاق على حاجاته، فهي قد وفّرت له متعة كبيرة لم يكن يحسب أنَّ بوسعها أن تصفِّي نفسه من قلقها.

وقبل أن يُغلق جفنيه، وهو يشعر بأمسّ الحاجة إلى النوم، تساءل بتلذّذ: «إن كان هذا شأن اللعبة وأنا خاسر، فكيف يكون إذا ربحت؟ هذا ما سنجرِّبه غدًا!»

وفي اليوم التالي، اتَّجه إلى «البيت اللبناني» عند الساعة الثالثة بعد الظهر.. لم يُطِقِ الانتظار حتى يحلّ المساء. كان مشوقًا إلى استطلاع حظّه في الأوراق ذلك اليوم، وإلى ملامسة الصفيحات الملوَّنة. وبالرغم من أنَّه

كان يتمنّى أن يجد الرفاق مجتمعين حول طاولة «نصري» فقد عَجِبَ أن يجدهم كذلك. أيّ سحر هذا الذي ينبعث من الطاولة، فيثير في النفوس جماع هَوَسها!

وجلس بينهم خافق الصدر من النشوة، وكانوا قد حدَّدوا الساعة السابعة موعدًا ينتهي عنده اللعب أو يحقّ لكلّ منهم فيه على الأقل أن يترك الطاولة ويذهب لشأنه.

وقد نسي الزمن يومذاك. وحين تنبَّه فنظر إلى ساعته، كانت قد جاوزت الثامنة. وأدهشه أنَّ أحدًا من رفاقه لم ينبّهه إلى ذلك. ثم أدرك أنَّهم جميعًا راغبون في المضيّ في اللعب لأنَّهم كانوا جميعًا خاسرين. ووحده كان الرابح. لقد وافاه الحظّ كالمطر الهاطل، فلم يكن بحاجة إلى أن يحسن استغلاله. ونظر إلى ساعته مرّة أخرى ثم قال بارتباك:

ـ إنَّها الثامنة والربع. ولقد انتهى الوقت منذ أكثر من ساعة. أحسب أنَّه قد آن لنا أن ننهض..

وواحدٌ منهم فقط، كان دائم الصمت، هادئ النفس، قال وهو يهزّ كتفيه:

ـ كما تشاؤون.. فليس عندي مانع!

وما كان هو بحاجة إلى أكثر من هذه العبارة السمحة، وسط وجوه توتّرت من الغيظ والرغبة المتآكلة في التعويض، حتى ينهض وهو يطلب إلى «نصري» أن يبدِّل له الصفيحات، بما كان يحويه الصندوق من مال.

وإذ خرج من «البيت اللبنانيّ» أرسل زفرة طويلة، كأنَّما هي أنفاس مكبوتة منذ حين. ثم ذكر أنَّ في جيبه أكثر من ثلاثة آلاف من الفرنكات ربحًا، فإذا صدره يخفق خفقًا ثقيلاً بعث في وجهه فورة من دم، وفي حلقه غصصًا لائعة. وأحسَّ أنَّه يوشك أن يتعثّر في مشيته، وأنَّ هذه الأوراق

ـ إنَّ الكتاب أعجز من الحياة في ميزان التجارب الإنسانيَّة. وإنَّ هذه السنوات الثلاث التي قضيتُها هنا قد علَّمتني من شؤون الوجود ما لم تعلِّمني إيَّاه كتب الأدب والفلسفة، ولكنِّي واثق مع ذلك من أنَّ تجاربي هذه هزيلة مضحكة إزاء تجارب الذين هُيِّئوا لمواجهة ألوف المحن والبلايا!

وألفى نفسه يسأل صديقه، بعد لحظات، سؤالاً حسبه محرجًا:

ـ ولكنِّي لا أراك الآن في علاقة مع امرأة فهل يعني أنَّكَ رويتَ واكتفيت؟

فضحك فؤاد وأجاب:

ـ لن أروى من امرأة أبدًا، إنَّ حاجتي إليها لشديدة، كحاجتي إلى الكتاب سواء بسواء..

وكفّ لحظة ثم أردف مستضحكًا:

ـ ثم ما يدريك أيُّها العزيز أنَّني لست الآن في علاقة مع امرأة؟ أم تراك تريدني أن أتباهى بالظهور معها، هنا وهناك، كما يفعل بعض الرّقعاء من مواطنينا الكرام؟

وأضاف بعد فترة قصيرة:

ـ أوه.. لو حضرتَ قبل أن تحضر بنصف ساعة، للقيت هنا «فرانسواز»... وأيًا ما كان، فلا بد من أن أعرِّفك بها يومًا... وأحسبها تعجبك!

فلم يتردَّد هو لحظة في أن يعقّب بقوله:

ـ ولا بدّ من أن أعرِّفك أنا أيضًا بجانين يوم تعود من فرصتها، ولا شكَّ في أنَّها سترضيك!

وفهم أنَّ صديقه يجامله حين قال له:

ـ لا أرتاب في ذلك، فأنا مؤمن بأنَّ لك ذوقًا سليمًا!

وسادت بينهما لحظة صمت، ما لبث فؤاد أن قطعها موضحًا:

ـ قلت إنَّ حاجتي إلى المرأة شديدة. ولكن هذا لا يعني أنَّها لا تزال هي همِّي الأوَّل.. لقد كانت كذلك يوم وصلت إلى باريس. أما الآن، فإنَّ لي همومًا كثيرة أخرى، ليست المرأة إلاَّ أحدها. ولست لأنكر أنَّها تعينني كثيرًا على مواجهة سائر هذه الهموم. وأنا أعتقد على كل حال أنَّ أحدنا لا يبلغ استغلال إمكانياته كلّها، أو أكثرها، إلاَّ إذا كُفيت حاجاته كلّها أو أكثرها..

وتساءل فؤاد بعد ذلك في وضوح وإصرار:

ـ ألا تعتقد أنَّ كثيرين من شبابنا العربي، هنا وفي الوطن، محرومون من استغلال أسمى إمكانياتهم لأنَّ حاجاتهم في الحبّ والجنس غير مكفيّة؟

وبينا كان يومئ برأسه إيجابًا، وما كان له أن يفعل غير ذلك، أخذ صديقه يسعل، ثم اشتدَّت عليه نوبة السعال حتى تشنَّج لها وجهه واحمرَّت عيناه، وحين انسرت عنه قليلاً تمتم في مثل الاعتذار:

ـ ما زلت أحزم أمري على وجوب الإقلاع عن التدخين، أو الحدّ منه على الأقل، ولاسيَّما تدخين مثل هذه اللفائف الثقيلة «الغولواز». وما أشدّ حسدي لك أنَّك لا تدخِّن!

وكان هو قد نهض يُعدّ لصديقه فنجانًا من الزيزفون، ويقدِّمه إليه ساخنًا يتصاعد منه البخار، وينصح له بأن يتناول معه قرصًا من الأسبيرين.

وهدأ فؤاد بعد دقائق، وعاد إلى عينيه صفاؤهما، فاستأذنه بالذهاب ووعد بزيارته في اليوم التالي، متمنِّيًا له ليلة شافية.

وإذ لفظته غرفة صديقه، واستقبله «غي لوساك» شعر بأنَّ شيئًا كالعبء ينزاح عن كتفيه. ولا يدري أيّ إحساس هذا، ولكنَّه يدرك الآن فقط أنَّه أحسّ به من قبل أيضًا، ولعلّه كان يشعر بأنَّ هذا العبء يثقل على كتفيه

كلَّما التقى بفؤاد، ثم ينزاح عنه كلَّما فارقه. لكأنَّها قطعة من وجود صديقه تنفصل عنه وتتَّجه إليه لتشعره بأنَّ حياته ينبغي أن تضطلع بتبعة وتتحمَّل مسؤولية وتسعى إلى غاية. ذلك ما كان يحسّ به كلَّما اجتمع إلى فؤاد، أما الآن فها هوذا يفارقه، فيعاوده الشعور بهذا العوم والطفو فوق أيّ ثقل. إنَّه يكاد يلمس بيديه هذا الفراغ الذي يستخفّ به، فإذا هو يمضي في طريقه خفيف الخطو، كأنَّما لا يحسّ الأرض تحت قدميه.

وكان يفكِّر بهذا حين شعر بأنَّ قدميه، هاتيْن القدميْن، تتسمَّران حيث وطئتا. وإذ تنبَّه إلى ذلك، ألفى نفسه واقفًا من فندقه في الممرّ الذي يفضي إلى غرفة جانين.

وخفق صدره، وانتابته رعشة، وانساق في الممرّ بشبه لاوعي. حتى إذا بلغ باب الغرفة الموصدة، وضع يده على المقبض وحاول أن يفتله، فظلَّ المقبض جامدًا لا يلين. ومع ذلك، فقد خيِّل إليه أنَّ الباب يفتح، وأنَّه يدخل الغرفة، فتستقبله جانين بذراعيْن مفتوحتين، وتضمّه إليها بشدَّة، ثم تدسّ رأسها في عنقه، فينبعث في أنفه عبيرٌ من شعرها خاطف يزيده لهفة إلى تشمّم ذلك الشعر المسترسل الرقيق، ثم يسمع صوتها يهمس باسمه، فيتناول شفتيْها، تينك اللتين همستا باسمه، ويشعر بأنَّ كيانه كلّه يتجمَّع في شفتيه... وتمضي لحظات، يرى في أثنائها النعاس يهوّم على جفني جانين، فيردّ على جسمها الغطاء، ويطفئ النور، ثم يخرج مغلقًا خلفه الباب.

وشعر بيده ما تزال على المقبض الذي لا يلين، فجذبه نحوه، كأنَّما ليستوثق من إغلاق الباب، ثم ينفتل فيجتاز الممرّ ثانية، ويدرك السلّم فيرقاه حذرًا، يسترق الخطى استراقًا، كأنَّما يخشى أن يوقظ أحدًا، أو أن يراه أحد.

- ٣ -

وضاقت به باريس، ولمّا يمضِ على غيبة جانين يومان، فاقترح على صديقيه صبحي وعدنان أن يقوموا برحلة إلى قصور «اللوار» الأثريَّة. وكان يودّ لو يصحبهم فؤاد، وكان قد استعاد صحّته، ولكنَّه اعتذر، خشية أن يُصاب بنكسة.

وكان الطقس جميلاً يَعِد بأيّام صَحوٍ ممتعة، وكان ذلك غريبًا في تلك الفترة من العام. ولكنَّهم رأوا الباريسيِّين مبتهجين غاية الابتهاج بذلك الجوّ، خارجين إلى الغابات والحقول، مستقلِّين القطارات إلى الضواحي والأقاليم. وكان صبحي وعدنان منطلقين جذليْن، على عادتهما، وإن كان عدنان أقلّ كلامًا وأهدأ انفعالاً.

وكانوا قد زاروا قصرين أو ثلاثة من قصور «اللوار»، حين أحسّ هو بأنَّ نفسه لم تكن لتهتزّ بأيّ شعور أمام تلك القصور، فكأنَّما هي صخرة من صخورها لا تعي. ولكنَّه لم يشأ أن يعبِّر عن ذلك، خوف إفساد الجوّ على رفيقيه، وقد سحرتهما بعض هذه القصور. وانتقلوا في اليوم التالي إلى منطقة تكثر فيها الآثار فتعلّل بصداع ليقضي نهاره في الفندق الذي نزلوه، على أن يوافياه إليه، في المساء. ولذّه أن ينفق الساعات الطويلة وهو يقرأ في كتاب عن الشعر، كان يعرض لمختلف المذاهب الشعريَّة بالتحليل والنقد.

وحين أصبح ورفيقيه، وكان ذلك يومهم الثالث، كانت السماء ملبَّدة بالغيوم السوداء. ولم تمض دقائق حتى أبرقت وأرعدت، ثم انهمرت أمطارًا غزيرة لم يشهدوا مثلها في العاصمة. وقد ظلّ المطر يهطل حتى جرت منه السيول وتكاثفت الوحول. ولم يسعهم أخيرًا إلاَّ أن يقرِّروا العودة إلى باريس، والخيبة مرتسمة على وجوههم أو وجهَيْ صديقيه على الأقل. أما هو فقد ارتاح لهذه الأمطار والعواصف التي ردّته إلى فندقه، وإلى غرفته بالذات.

على أنَّه ما عتم أن ضاق بغرفته نفسها، فغادرها عند الغروب إلى ساحة «الأوبرا» وفي نيَّته أن يشاهد واجهات المخازن المزدانة لمناسبة الميلاد، بكل رائع فتّان من المعروضات. وقد ظلّ ساعة يتنقل أمام الحوانيت المضاءة، حتى أسلمته قدماه إلى جادّة «الشانزليزه»، وكان قد اجتازها مرّة من أدناها إلى أقصاها، فاستشعر لذلك لذّة غريبة. ولكنَّه ما كاد يسير فيها بضع عشرات من الأمتار هذه المرّة، حتى فاجأه المطر في موضع لم يكن فيه غير الأشجار، على حافتيِّ الجادّة. وقد اضطرّ إلى أن يعدو في اتّجاه محطة المترو، فلم يبلغها إلاَّ وقد غسله الوابل.

ووقف داخل النفق ينظر إلى ثيابه وهي تقطر ماء، ويحسّ قطرات المطر تسيل على جبينه وخدَّيه، فانتابه شعورٌ بأنَّه مسكين ذليل، يستحقّ الرثاء.

واستقلّ المترو إلى الحيّ اللاتيني وهو يُحسّ مزيجًا من الغيظ والسخرية والعذاب. لماذا ترك جانين تذهب؟ ألم يتكلَّف في ذلك فوق ما كان طبعه يتحمَّله؟ لماذا لم يجْرِ مع سجيَّة نفسه، فيعترض سفرها، بل يبتهل إليها أن تبقى إلى جانبه إن هي أصرّت على الذهاب؟ أيحسب أنَّ موقفه ذلك حريّ به أن ينصبه شخصية ذات طابع خاصّ؟ وهل يَعْني المحبّ أن يُبرز شخصيَّته، إن كان مخلصًا في حبّه؟

وأخرس لسانه بحنق، وفكَّر فيما عساه أن يفعل إن رجع إلى غرفته. وذكر فجأة صديقًا له من أصدقائه اللبنانيِّين، لقيه ذات يوم في الطريق ودعاه إلى زيارته في «البيت اللبنانيّ». وكأنَّما كان يكفي أن يقوم «البيت اللبنانيّ» خلف البانتيون، حتى يقرِّر أن يتَّجه إليه لزيارة صديقه.

وحين طرق باب «نصري» أخذه بعض العجب أن يسمع خلفه همسًا ووشوشة، وترقَّب لحظة، ثم طرقه مرّة أخرى. وبعد برهة وجيزة، انشقّ الباب على مهل فبدت في فرجته عينُ صديقه. وما لبث الباب أن فُتح، فأومأ له نصري أن يدخل على عجل، وأقفل خلفه الباب، وهو لا يفهم من الأمر شيئًا. ولكنَّه حين نظر فرأى أربعة شبان أو خمسة جالسين حول طاولة، وفي أيديهم ورق اللعب، وقد بدأوا ينظرون إليه بريبة، حسب أنَّه فهم ما كان يجري. على أنَّ صديقه وفَّر عليه إعمال الفكر في غير ما جدوى، فقال له بعبارة شديدة الإيجاز:

ـ إنَّنا نلعب «البوكر» ونخشى أن يباغتنا مدير «البيت». فإن كانت اللعبة تروق لك، أو إن كنت تحسنها، فلا تتأخَّر عن مشاركتنا فيها.

وسرعان ما عاد نصري إلى الجلوس بين رفاقه، والاستغراق في تقليب الأوراق.

وأحسّ هو بامتعاض لهذا الاستقبال الجافّ. إنَّ أحدًا لا يهتمّ به الآن، وكلّهم صامتٌ يحدِّث فيما بين يديه. وساورته الرغبة في أن يدعهم ويخرج. ولا شكّ في أنَّهم جميعًا يرغبون في هذا. ولكنَّه لم يجرؤ، ولعلّه خشي إن هو نفّذ فكرته أن يحسبوه قد خرج ليشي بهم لدى مدير «البيت»، فآثر أن يظلّ حيث هو واقفًا، ينظر إليهم ولا يدرك من أمر لعبتهم شيئًا. ولكنَّه لم يلبث طويلاً حتى عزم على التنبُّه لهم وتركيز اهتمامه فيما كانوا يعملون.

وإن هي إلاّ بضع دورات تناوبوا فيها توزيع الأوراق، حتى بدأت أسرار اللعبة تتكشف له، على ضعفه في شؤون الحساب والأرقام، وأيقن أنّ الأمر أمر حظّ يوافي أحدهم فتسقط في يديه الأوراق المتماثلة، فينتزع المال بقدر ما تتكاثر هذه الأوراق المماثلة أو تتسلسل أو تتشابه في الطابع.

وبدأت الرغبة تغلي بداخله في أن يجلس إلى هذه الطاولة التي تستأثر بالنفوس وتجذب الأنظار وتستقطبها حول الأوراق. ولكن كيف له أن يعبّر عن هذه الرغبة؟ وما يدريه إن كان لا يزعج هؤلاء المستغرقين في ذواتهم أن ينضمّ إليهم هذا الدّخيل؟

ولبث متردّدًا حائرًا، وهو يتحلّب شوقًا إلى أن يمسّ بأصابعه هذه الأوراق الملساء وتلك الصُفيحات العظميّة، التي تتجمَّع طورًا عند واحد من اللاعبين، وتنتثر طورًا آخر بينهم جميعًا.

... إلى أن جرفها صديقه «نصري» ذات لحظة، إلى حيث كان يجلس من الطاولة، فبدا على وجهه انشراح ورضى لم يستطع إخفاءهما، وإن لم يُردْ إظهارهما، فإذا هو يلتفت نحوه، ويبتسم له، ويقول في كثير من اللّطف والرقَّة:

ـ لا تؤاخذنا أيُّها العزيز.. لقد قصّرنا في الترحيب بك، والاهتمام بأمرك... ولكنَّك ترى ما نحن فيه!

فعلَّق أحدهم مسرعًا بقوله:

ـ بل لماذا لا تقول إنَّك كنت خاسرًا، فما كان يعنيك أحد.. وها أنت ذا الآن «تقشّ» الطاولة، فتشعر بحاجة إلى التعبير عن فرحتك، ولا تجد غير صديقك هذا لتحدّثه، وهو الوحيد الذي لم يُصَبْ منك بالخسارة؟!

فضحك ثلاثة منهم ضحكات فجّروا فيها غيظهم، بينا استطاع الآخران أن يملكا أعصابهما. ولعلّ «نصري» رأى من الخير ألاّ يعقّب على كلام صاحبه، فعاد إليه، هو، يسأله:

ـ ألا ترغب في أن تتسلّى معنا بعض الوقت؟

ولم ينتظر جوابه، بل سارع يُفسح له مكانًا بجانبه ويدعوه إلى الجلوس. فقال له صديق آخر:

ـ ولكن حذار.. إنَّ نصري بارعٌ في استراق النظر!

فلم يأبه لقوله، وتقدّم فاقتعد الكرسي بجانب صديقه، وتسلَّم عددًا من الصفيحات ودفع ثمنها إلى صاحب الصندوق. وما لبث الصمت أن ساد الجميع.

وكانت قد مضت ثلاث دورات أو أربع، منذ باشر اللعب، حين قال له جورج:

ـ أراك ما زلت ضعيفًا في اللعبة.. فهل تكون هذه هي المرّة الأولى التي تباشرها فيها؟

فتلعثم لحظة، ثم أجاب:

ـ لعبتها قبل الآن، ولكن بضع مرّات فقط.

قال نصري، وكأنَّما يغريه:

ـ لن تلبث طويلاً حتى تبرع بها، فإنَّ حظّك ليس رديئًا كما يبدو لي!

وقال أنطون، بلهجة لا تخلو من سخرية:

ـ سترون، على كل حال، أنَّه لن ينهض إلاَّ رابحًا. لقد علّمتنا التجارب أنَّ المبتدئ في هذه المدرسة، هو الذي يفوز على المتخرِّجين والمنتهين!

وكانت هذه العبارة إيذانًا بالعودة إلى الصمت، والتحديق في الأوراق والصفيحات.

ولم يصدق حدس أنطون، في النتيجة، وإن صدق في بداءة الأمر. فهو قد ربح عددًا وافرًا من الدورات، ولكنَّه ما عتم أن خسر كل شيء في

دورتين اثنتين. وأحصى ما ضاع من ماله، فإذا هو سبعمئة فرنك وقال له نصري، وهو يودّعه:

ـ أكرِّر لك أنَّ حظك عظيم، ولكن ينبغي لك أن تستغلّه. والقضيَّة قضيَّة مراس، قضيَّة زمن!

فأجابه وهو يغتصب ابتسامة:

ـ لقد كنتُ على كل حال بحاجة إلى التسلية، وقد أصبتُها من غير شكّ!

ثم مضى يحثّ خطاه نحو باب الخروج، ولكنَّه سمع صوت صديقه يتناهى إليه بلهجة مخنوقة:

ـ كلّما شعرت بملل أو ضجر، فتعال اصرفهما هنا بالتسلية!

وإذ أصبح في الطريق، نظر إلى ساعته، فإذا هي الواحدة والثلث بعد منتصف الليل. ولم يَهلْهُ أنَّه سهر إلى هذه الساعة المتأخِّرة، وإنَّما راعه أن يمضي الوقت سريعًا فلا يحسّ به. واستعاد ذكرى دورة ربحها، ودورات أخرى خسرها، ثم انتهى إلى الحكم بأنَّها لعبةٌ لذيذة جدًا، لأنَّ الحظّ هو الذي يلعب فيها الدور الأول. ولم يأسف على هذه الفرنكات السبعمئة التي خسرها، على شدّة افتقاره إليها في الإنفاق على حاجاته، فهي قد وفّرتٍ له متعة كبيرة لم يكن يحسب أنَّ بوسعها أن تصفّي نفسه من قلقها.

وقبل أن يُغلق جفنيه، وهو يشعر بأمسّ الحاجة إلى النوم، تساءل بتلذّذ: «إن كان هذا شأن اللعبة وأنا خاسر، فكيف يكون إذا ربحت؟ هذا ما سنجرِّبه غدًا!»

وفي اليوم التالي، اتَّجه إلى «البيت اللبناني» عند الساعة الثالثة بعد الظهر.. لم يُطِقِ الانتظار حتى يحلّ المساء. كان مشوقًا إلى استطلاع حظّه في الأوراق ذلك اليوم، وإلى ملامسة الصفيحات الملوَّنة. وبالرغم من أنَّه

كان يتمنّى أن يجد الرفاق مجتمعين حول طاولة «نصري» فقد عَجِبَ أن يجدهم كذلك. أيّ سحر هذا الذي ينبعث من الطاولة، فيثير في النفوس جماع هَوَسها!

وجلس بينهم خافق الصدر من النشوة، وكانوا قد حدَّدوا الساعة السابعة موعدًا ينتهي عنده اللعب أو يحقّ لكلّ منهم فيه على الأقل أن يترك الطاولة ويذهب لشأنه.

وقد نسي الزمن يومذاك. وحين تنبَّه فنظر إلى ساعته، كانت قد جاوزت الثامنة. وأدهشه أنَّ أحدًا من رفاقه لم ينبّهه إلى ذلك. ثم أدرك أنَّهم جميعًا راغبون في المضيّ في اللعب لأنَّهم كانوا جميعًا خاسرين. ووحده كان الرابح. لقد وافاه الحظّ كالمطر الهاطل، فلم يكن بحاجة إلى أن يحسن استغلاله. ونظر إلى ساعته مرّة أخرى ثم قال بارتباك:

ـ إنَّها الثامنة والربع. ولقد انتهى الوقت منذ أكثر من ساعة. أحسب أنَّه قد آن لنا أن ننهض..

وواحدٌ منهم فقط، كان دائم الصمت، هادئ النفس، قال وهو يهزّ كتفيه:

ـ كما تشاؤون.. فليس عندي مانع!

وما كان هو بحاجة إلى أكثر من هذه العبارة السمحة، وسط وجوه توتّرت من الغيظ والرغبة المتآكلة في التعويض، حتى ينهض وهو يطلب إلى «نصري» أن يبدِّل له الصفيحات، بما كان يحويه الصندوق من مال.

وإذ خرج من «البيت اللبنانيّ» أرسل زفرة طويلة، كأنَّما هي أنفاس مكبوتة منذ حين. ثم ذكر أنَّ في جيبه أكثر من ثلاثة آلاف من الفرنكات ربحًا، فإذا صدره يخفق خفقًا ثقيلاً بعث في وجهه فورة من دم، وفي حلقه غصصًا لائعة. وأحسَّ أنَّه يوشك أن يتعثّر في مشيته، وأنَّ هذه الأوراق

الماليَّة في جيبه تكاد تحرق فخذه. هذا المال، أيّ حقّ له فيه؟ أتراه يختلف في شيء عن المال المسروق؟ وهل المقامرة إلاَّ سلبٌ وسرقة؟ وأولئك الرفاق، أليسوا طلاّبًا مثلك يحتاجون إلى كلّ فرنك من هذه التي انتزعتها منهم؟ وما عساهم يقولون عنك الآن؟ ألم يكونوا يلتهبون شوقًا لمتابعة اللعب، من أجل أن يعوِّضوا هذا الذي خسروه؟ وأنت.. تجاهلت هذه الرغبة، وانتهزت تلك الفرصة التي أتاحها لك أحدهم، وما يدريك أنَّه كان كاذبًا، فإذا أنت تمضي بمالهم دون ما اكتراث! أيَّة أنانيَّة هذه؟ بل أيَّة نذالة؟!

وأحسّ بقدميه تستديران. أجل! ينبغي أن تعود إليهم، فتنفض أموالهم بين أيديهم، وتستميحهم العذر فيما فعلت. ولكنَّه ظل واقفًا لا يريم. لقد خسرت بالأمس فلم يتآكلني الغيظ، كما يخيَّل إليَّ أنَّه يتآكلهم. أترى نصري وجورج قد عانيا أمس، إذ ربحا، مثل هذا الشعور؟

وأحسّ بقدميه تستديران مرّة أخرى. أجل! إنَّ هذا وهم. إنَّهم مثلي أتوا يلتمسون التسلية، وليس لأحد منهم رغبة في اتِّخاذ الربح والخسران عنوانًا للاتجار.

ومع ذلك، فكم كان يتمنّى لو أنَّه عاد خاسرًا كالأمس.

إنَّه لم يُحسّ، وهو خاسر، بهذا الندم والاضطراب اللذين يحسّهما الآن، وهو رابح..

ودخل فندقه بَرِمًا بنفسه. وإذ ألمّ بلائحة الرسائل القائمة في الجدار، خطفت بصره قصاصةٌ بيضاء في علبته الصغيرة فتناولها على عجل وقرأ فيها:

«لقد عدت بعد ظهر اليوم. أنا بانتظارك في غرفتي ـ جانين».

- ٤ -

قالت له جانين، وهي مستسلمة إلى ذراعيه:

- ما تقول في أن نحضر الحفلة الراقصة التي يقيمها الليلة في السوربون طالبات كليَّة الآداب وطلأَّبها؟

فأنهضها بعجلة، وتوجَّه مسرعًا إلى الباب وهو يقول:

- لن نضيّع لحظة واحدة. أنا صاعدٌ إلى غرفتي لأرتدي ثوب السموكن!

وسمع ضحكتها تتبعه. كان من واجبك أن تقترح عليها السهرة، أيَّة سهرة. لقد كنت ترجو أن تعود جانين من «الهوت سافوي» هادئة النفس، قريرة البال. أتراها الآن كذلك؟ إنَّ نفسها لتقطر أسًى مما لقيته من زوج خالتها أمس. وها هي تؤثر أن تعود إلى باريس، قبل أن تنتهي فرصتها، على أن تبقى في تلك القرية، حيث اكتشفت في زوج خالتها، وخالتها بالذات، عدوّين جديدين. لقد أدركتْ يومذاك فقط سرّ إلحاح خالتها في استضافتها: لكأنَّها تآمرت مع «هنري» ذلك الذي بدأ إذلالها، على أن تمضي، هي خالتها، في هذا الإذلال. ثم ألا ترى أنَّها ترجع لتلقاكَ أنتَ، ولتجد بين ذراعيك أمنًا وطمأنينة وأملاً، تُصرّ الحياة على أن تحرمها إيَّاها؟

وذكر لقاءهما العاصف. كانت ترتعش بين ذراعيه، فيما كان يذوّب نفسه كلّها في ضمّها إليه. وقرأ في عينيها الشوق والحنين، ثم قرأ أنَّها

عـادت لتـمتـزج به، لتـسلم إليـه قـيـادهـا، لا تردّد ولا خـوف ولا نـدم. وانحى عليـها باللائمـة أنَّها لم تؤذنه بموعـد رجوعـهـا، وبذلك فـاته أن يسـعى إلى لقـائها على المحطّة، فأجابته أنَّها لم تكن هـي نفسـه تقـدّر أن تعود اليـوم... وتصمت جانين لحظة، ثم تلتمع في عينيها الدموع.

ويقبل هو عليها إقبال الراغب في الافتداء، مهما غلا الثمن، ولكنَّها سـرعان مـا تكفكف دمـوعـهـا، وترتدّ إليـه تحاول أن تكسـو وجـهـهـا بسـمـة مشرقة. غير أنَّه لم يُطق أن يتغاضى عن النفاذ إلى ما يُرمض نفسها، فألحّ عليها يسائلها وهي تمتنع وتداور، ثم سمعها تقول له بعصبيَّة:

ـ دَعْك من ذلك. أنا لا أودّ أن أثقل نفسك بهـمـومـي، ولا بدّ أنَّ لك من همومك ما يغنيك عن شجون سواك.

ثم أسبلت جفنيها فعلم أنَّها عـادت إلى البكاء. وأمسكها من كتفيها يهزّها ويأخذ عليها أنَّها تحاول أن تقيم دونه جدارًا من الإغلاق والصمم، ويؤكِّد لها أنَّها هي أول همومه الآن، وأنَّه يؤذيه أن ترفض معونته، إن كانت بحاجة إلى معونة. وإذ ذاك انهارت جانين بين ذراعيه، وأجابت أنَّها لا ملجأ لها بعدُ سواه، ولا ثقة لها بأحدٍ غيره. ثم روت له، وهي تنشج، ما أصابته من سـوء لدى تلك الخـالة التي كـانت تحـسـب أنَّهـا تعطف عليـهـا وترثي لمأساتها.

وحين فرغت جانين، أدرك أنَّ تبعة شفائها من جراحاتها إنَّما تقع على عاتقه، هو الذي لم يبق لها في الدنيا سواه. وما كان يستطيع في تلك اللحظة أن يقدر ثقل هذه التبعة، ولكن خُيِّل إليه أنَّه قادرٌ على حملها، فهيّأ النفس للاضطلاع بها. على أنَّها هي التي بادرته بعد لحظات من صمت ثقيل، كأنَّما شاءت بغير وعي أن تيسّر له هذه المهمة التي أصرّ على القيام بها، فاقترحت حضور حفلة السوربون الراقصة.

❖

وشدهته جانين بجمالها وزينتها، حين هبط إلى غرفتها، ولم يقف ليتملّى هذا الوجه الرائع، أو ليتأمّل ثوب السهرة الأنيق، وإنّما اندفع إليها بشبه جنون، فاحتملها بين ذراعيه، وهي تصرخ ضاحكة وتحذّره من أنّه مفسدٌ زينتها.. وما كادت قدماها تطآن الأرض، حتى انحنى فقبّلها في عنقها قبلة محمومة، ثم انحدر بشفتيه متمهّلاً يلثم أعلى صدرها هذا الذي ينشقّ الثوب عن ملتقى نهديه الأنوفين.

وتحلّلت جانين من ضمته بنغمة دلال، ثم ألفت على كتفيها فراءً أشهب أتمّ خطوط الإطار الشعري الأشقر، ووقفت إزاء الباب بعد أن فتحته، وأومأت له أن يتفضّل بالخروج، وهي تزوي ما بين حاجبيها وتزمّ شفتيها ببسمة تُخفق في أن تتحوّل عبسة.

وشعر بالفخر والاعتزاز إذ دخل قاعة السوربون الكبرى، وجانين إلى جانبه. ولقد رأى العيون تلتفت إليهما وتتابعهما بنهم لا يتنزّه عن الغيرة. وأيقن إذ ذاك أنّ إحساسه بروعة جمال جانين لم يكن مبعثه أنّه يحبّها، وإنّما هو قبسٌ من إحساس هؤلاء الناس الذين لا يكادون يصرفون عنها نظرهم، حتى لقد شعر هو نفسه ببعض التهيُّب والارتباك، وهي إلى جانبه باهرة ساحرة. أتراك جديرًا بجمال هذه الفتاة، وهل يرتاح الناظر، وهو يراكما جنبًا إلى جنب؟

لا، لم يكن جميلاً! وقد كان واثقًا من ذلك. ولكنّه يحسب أنّ سُمرته كانت تُكسب وجهه طابعًا من الرجولة لا تقابله المرأة باللامبالاة. وإنّ الغرور ليدغدغه إذ يذكر أنّ الشقرة لا تتنافر مع السمرة! أم أنّها تعلّةٌ يُحسّ الآن بحاجته إليها، ليثبتَ إزاء هذا الوسط الشامخ بالرفعة والأرستوقراطيّة والجمال، هذا الوسط الذي يخيَّل إليه أنّه يتحدَّى خيبته وتهيُّبه؟

على أنّه لم يُحسّ هذه الخشية، إذ بدأت الموسيقى تعزف، ووقف يدعو جانين إلى الرقص. وقد عجب أن تأخذها النشوة بمثل هذه السرعة،

فإذا هي ترقص كأنَّها لا تُحسّ بمن حولها، ولا تعيش بغير دقّات الموسيقى، وأيقن، وهي بين ذراعيه، أنَّه لن يحيا بعدُ أحلى من هذه الدقائق مذاقًا في وجوده، فأسبل جفنيه. كأنَّما كان يخشى أن تنفر من عينيه صورةٌ أثيرة تدفأ بها أعماقه، وشدّ إليه جانين في حرص ولهفة. لكأنَّه يخاف أن تفلت من بين ذراعيه، أو كأنَّما يودّ أن يستوثق من أنَّه ليس حلمًا، هذا الذي يعيش فيه.

ولقد ظلّ يراقصها زهاء ساعتين، وشوقه إلى احتوائها بين ذراعيه يتفاقم بعد كل رقصة. ولم تنطق جانين إلاَّ بكلمات قليلة، كان معظمها جوابًا على سؤال له. وقد تساءل عن سرّ هذا الزهد في الحديث. أتراها قد استغرقت مرّة أخرى في شؤونها الحزينة، أم أنَّها..

وهمس يقول:

- جانين.. إنَّكِ لا تستطيعين أن تدركي مبلغ سعادتي..

فوضعت سبابتها على شفتيه وهي تومئ له بفمها أن يصمت، ثم أجابته متمتمة:

- إنَّ هذه لحظاتٌ يفسدها الكلام، لأنَّه عاجزٌ لا محالة عن التعبير..

فضغطها إليه. ولكنَّها استعصت على الضمّة وأشارت بعينيها إلى الناس حولها، كأنَّما تحذِّره من فضول العيون. وسألته بعد برهة:

- أشعر بجفاف في حلقي، أفلا يدعوني العربيّ السخيّ إلى كأس من البيرة على البار؟

فتناول كفّها ومضى بها خارج الحلبة وهو يجيب:

- بل إلى كؤوس من الشمبانيا!

وإذ حاولت أن تعترض، قال لها بتؤدة:

ـ لا تشفقي على جيبي... لقد هبطت عليّ اليوم نعمةٌ من السماء لم أكن أنتظرها!

ولام نفسه، أوّل الأمر، أنَّه استعجل البوْح لها، ولكنَّه ما لبث أن روى لها قصة مقامرته بالأمس واليوم. وكأنَّما خشي أن توجِّه إليه النقد، فسارع يقول:

ـ إنَّكِ أنتِ المسؤولة عمَّا وقع. لقد شئت أن أقتل الوحدة المعذَّبة التي خلَّفتني فيها بعد سفرك..

فأجابته وهي تنظر إلى الساقي يصبّ الشمبانيا في كأسها:

ـ لم أكن شديدة الرغبة في السفر. ولكنَّكَ أنت لم تحاول أن تثنيني عنه.

ودارت في رأسه فجأة بقيّة العبارة التي لم تنطق بها «بل إنَّك قد شجّعتني على القيام به». وخشي، هو أيضًا، أن ينظر إليها. وأدرك إدراكًا عميقًا أنَّها كانت خطيئة. ورأى يده تمتدّ إلى يدها، فتناول كفّها فوق خشبة المشرب، وضغط عليها في إحساس من التقديس. ثم سمع صوته يتمتم بإخلاص:

ـ أعاهدكِ يا جانين على أن لا أدعكِ، بعد الآن، ما دمت في باريس.

فدنت منه في حنين، ووضعت كفَّها فوق كفّه، وسألته في غصّة ملهوفة:

ـ أصحيح أنَّكَ لن تتركني وحدي؟ أتظلّ إلى جانبي ما دمتَ هنا؟..

ولم تترقّب جوابه، بل حنت رأسها تلامس بشفتيها أصابعه المنقبضة على كفّها. وفي الوقت نفسه، شعر بدمعة حرّى على يده.

ووقفا لحظات أمام باب غرفتها لا يسمعها تنطق بحرف، ولا هو يدري ما يقول. وكانت ذراعه لا تزال متأبِّطة ذراعها، ثم لم يسعه إلاَّ أن يظلّ على صمته.

ـ لا بدّ أن تكوني متعبةً من أثر السفر أو أنَّ الرقص..

فقاطعته:

ـ كنت حقًا متعبةً من السفر، ولكن الرقص هو الذي أزال تعبي وجدَّد قواي..

وعاد الصمت يُلقي بأحماله بينهما فترة قصيرة.

ـ وأنتَ، هل تشعر بالنعاس، أم أنَّ بوسعك أن تترجم لي بعض شعرك؟

ـ إن شئتِ هذا فإنَّه يسرّني.. ولكن أخشى أنَّكِ تبالغين في مجاملتي بطلب الاستماع مرة أخرى إلى شعري..

فاكتفت بالقول:

ـ لا، لست أجاملك، فإنَّ أحلامك الشرقيَّة تسحرني...

ـ إذن، فأنا ماضٍ لإحضار ديواني..

وهمّ أن ينصرف، ولكنَّها استوقفته وهي تقول:

ـ بل أرقى معك. إنَّني أحبّ غرفتك الصغيرة الحميمة وأوثرها على غرفتي الكبيرة التي ليس لها طابع خاصّ.

وأخذت ذراعه، فمضيا يرقيان السلّم.

ولكنَّها توقفت لحظة، إذ بلغا باب غرفته:

ـ على أنَّ لي شرطًا واحدًا!

ـ قوليه دائمًا...

ـ هذه الليلة... لن تترجم لي «الحرمان»!

وتلك الليلة، لم يترجم لها الحرمان.

ـ ٥ ـ

لم يترجم لها «الحرمان» ولم يترجم أيَّة قصيدة سواها. فقد بدأ يعيش في ينبوع العطاء الذي لا يوحي غير الأخذ، فيعطِّل الفكر ويُخرس اللسان.

وهي أيضًا كانت تأخذ بقدر ما تعطي، وما أكرم ما كنت تعطي!

وضاقت بهما الدنيا لفرط السعادة، فعالجا الواقع الضيِّق بالخيال الفسيح، يستمدَّان منه زادهما للغد. وحين كان يرى إلى عينيها مغمَّضتين على أحلام هناءتها، وإلى شفتيها مفترّتين عن بسمات الرضى الغامر، يتساءل: «أيُّنا أسعد»، ثم يشفق من الجواب، فيصمت.

وكان الليل مملكتهما الأثيرة، يركنان إليه ليتلذَّذا فيه بالدفء والظلام والحبّ. الحبّ، هذا الحبّ الذي لم يعرف منه إلاَّ أحد شطريْه: فإمَّا النشوة الروحيَّة وحدها، وإمَّا اللّذة الجسديَّة وحدها، بل هو لم يعرف أيّ الشطريْن إلاَّ في أسوأ أشكاله: إما كبت وانغلاق وتآكل، وإما أنانية وحيوانيَّة وانحطاط. ولم يكن يتصوَّر أنَّ بوسع إنسان أن يدرك إلى جانب أنثى، اللّذتين كلتيهما، كما أدركهما هو إلى جانب «جانين».

وكانت هي من رهافة الأنوثة بحيث كانت تعي كيف تُعالَج الأخذ والعطاء، وكيف تدفع الضجر والملل بتغليب إحدى اللّذّتين في الوقت المناسب.

وكان قد مضى عليهما أربعة أيام وهما في عالمٍ شبه معزول، إذ أيقظته هي ذات ساعة:

ـ لقد آن لنا أن نعود إلى عالم الناس، إلى أشيائنا اليوميَّة الصغيرة. إنَّ المؤسف أنَّنا حيوانات اجتماعيَّة!

وذكّرته بأنَّ فرصة الميلاد قد انتهت منذ يومين، وأنَّه قد فاتها حضور بعض الدروس الهامَّة في معهد الصحافة، فذكر هو بدوره أنَّه انقطع عن ارتياد المكتبات، وترك موضوع رسالته في سبات. وصحَّ عزمه على أن يعاود نشاطه، ويستدرك ما فاته بمضاعفة الجهد والعمل. والحقّ أنَّه أقبل على كتبه في شوق ورغبة، ونظَّم أعماله تنظيمًا دقيقًا هيّأ لها جريًا طبيعيًا موفور النتاج.

وفي مطعم «لوي غران» عرَّف أصدقاءه إلى جانين، فراقت لهم جميعًا، وساقوا لها من الثناء ما ملأه اعتزازًا بها. وإن هي إلاَّ أيام قليلة حتى انخرطت جانين في جوّهم بمرونة أدهشته ووفَّرت لها إعجاب الجميع، بَلَه احترامهم.

ولاحظ، منذ عودته إلى المطعم، أنَّ أصدقاءه صبحي وعدنان وفؤاد كانوا يجلسون إلى مائدة واحدة، وقد انضمَّ إليهم شابّان كان قد عرفهما معرفة سريعة في أول عهده بباريس هما: «ربيع» التونسي، وكان يتخصَّص في السوربون بالتاريخ، وأحمد العراقي، وكان يدرس في كليَّة الطب. وقد بادره أحمد منذ رآه للمرّة الأولى في المطعم:

ـ أوه... أهذا أنت؟ إنَّ صديقنا «كامل» مازال حتى الآن يبحث عنك! أتذكر ليلة «السوربريز بارتي»؟ إلى أين هربت يا أخي؟

فضحك وهو يذكر تلك الليلة الأولى التي بلغ فيها شعوره بالوحدة أبعد ذرواته، ثم أجاب أحمد:

ـ لقد خرجت أبحث عن.. هذه!

وأشار إلى جانين التي كانت جالسةً إلى يمينه.. واحتجَّت جانين على تحدّثهما باللغة العربية، في أمر يعنيها. وإذ روى لها قصّة هربه ليلتذاك، أغرقت في الضحك وهدأ بالها. ولكنَّها سألته ببعض الدلال:

ـ وبعد ذلك، ألم تندم قطّ على أنَّك خرجت تبحث عن... «هذه»؟

وأشارت إلى نفسها. فأجابها ضاحكًا، وهو ينظر إليها بشغف:

ـ لن أندم أبدًا!

ثم همَّ بأن يدني شفتيه من خدّها. وفي تلك اللحظة التي أبعدت فيها وجهها عنه، ارتفعت من حناجر أصدقائه جميعًا نغمة استنكار ممطوطة لفتت إليهم أنظار الكثيرين من الطلاّب حولهم، وسرعان ما نفر الدم إلى خدَّيه، وقال وهو يواري وجهه:

ـ فضحتموني. فضحكم اللَّه!

ولم يلبث طويلاً حتى عاد إلى أحمد يسائله عن صديقته، فيعلم منه أنَّها تركته لتعاشر زنجيًا من زنوج أفريقيا! والتفت إلى ربيع، فإذا طيف بسمة هادئة كانت قد جذبت اهتمامه في تلك الليلة المشؤومة، يراود شفتيه، فسأله:

ـ وأنت، ما فعل اللَّه بصديقتك؟

فأجابه ربيع، وبسمته المطمئنّة لا تغادر فمه:

ـ إنَّ اللَّه لا شأن له بهذا الموضوع. ولئن لم تأت «سيمون» الآن إلى المطعم، وكان المفروض أن تأتي، فأحسب أنَّ ذلك لا علاقة له بالقدرة الإلهيَّة!

وفوجئ هو بهذا الجواب الغريب، ونظر إلى رفاقه حوله، فلاحظ أنَّ عدنان كان يتململ في مجلسه، ثم يقول بلهجة تضاهي لهجة ربيع اطمئنانًا:

ـ لا أدري ما مناسبة هذا التجديف؟ إنَّ صديقك يسألك عن فتاتك وإنَّ اسم اللَّه لم يرد إلاَّ عرضًا، فلماذا تقحم رأيك فيه؟ أم تحسب من الضروري أن تعتزّ بأنَّك مُلحد، في مناسبة وفي غير مناسبة؟

وعلى الرغم من أنَّ ردّ عدنان على ربيع كان في غاية الهدوء، فقد خشي، هو، أن يتطوَّر النقاش في موضوع هو الذي أثاره، على غير قصد منه، وكان أبدًا يعتبره «موضوعًا شائكًا»، فرأى أن يحوّل الحديث في مجرى آخر. ولكن أدهشه أن يقاطعه فؤاد بقوله:

ـ لماذا تحاول أيُّها العزيز صرفهما عن الموضوع؟ دعهما يتناقشان فيه. فإن لم يصلا منه إلى نتيجة، فلا أقلّ من أن يصيبا من محاكمتهما تركيزًا في الرأي.. وهذا وحده خير كثير!

وانصرفت أعينهم عن فؤاد، لتستقرّ مرة أخرى على ربيع، فإذا هو منصرف إلى طعامه يلتهمه بنَهم. وقد رفع بصره إليهم لحظة قصيرة ليقول:

ـ أعتقد أنَّ لقمةً تسدّ جوعي، خيرٌ من المناقشة في أمثال هذه الموضوعات!

فاجتزأ عدنان ببسمة ساخرة، واكتفى بقوله:

ـ حجّةٌ مقنعة تحسم الخلاف!

❖

وتفرَّق الجميع، وبقي هو وجانين مع فؤاد، فرأى أن يدعوه إلى مشاهدة المسرحيّة التي كانا قد عزما على حضورها تلك الليلة في «الكوميدي فرانسيز» بقاعة اللكسمبورغ، ثم أردف يسأل صديقه:

ـ ما رأيك في أن تدعو صديقتك «فرانسواز» فنتعرَّف إليها أولاً، وتشاهد معنا هذه المسرحيّة الطريفة؟

قال فؤاد:

ـ ليس هذا اقتراحًا رديئًا، فإنَّ بيني وبين فرانسواز موعدًا عند الساعة الثامنة، وقد كان المفروض أن نقضي السهرة معًا، وأحسب أنَّها ستكون سعيدة بتلبية دعوتكما، والتعرُّف إليكما، ولاسيَّما إلى جانين.

ـ إذن فلا بدّ الآن من أن نستأذن، لننطلق فنحجز أربعة مقاعد.

واتَّفقوا على أن يتمّ اللقاء عند باب المسرح في الثامنة والنصف.

وفي طريقهما إلى شبّاك التذاكر، أخذت جانين تبدي رأيها في أصدقائه، فكان يضحك كلَّما لفظت أسماء «عدنان» أو «ربيع» أو «صبحي» ويحاول عبثًا أن يقوّم نطقها بالعين والحاء اللتين كانت تلفظهما همزةً وهاءً. وكان مجمل رأيها أنَّهم جميعًا يتحلُّون باللطف والمؤانسة، ولكنَّها لم تحبّ في صبحي طابع الاستهتار، وتحسب أنَّ عدنان لا يخلو من عصبيَّة دينيَّة. أما «ربيع» فينقصه الاعتدال في آرائه المتطرِّفة.

وصمتت جانين لحظات، ثم أردفت:

ـ وأما فؤاد، فلا أودّ أن أتسرَّع في الحكم عليه. إنَّ شخصيَّته تدعو إلى التأمُّل، وأنا أعتقد أنَّها شديدة الغنى بإمكانيَّاتها.

فأسعده أن يوافق رأي جانين رأيه في مآثر أصدقائه إليه، ومضى يحدِّثها عنه، وعن تلك الجذوة التي تضطرم في أعماقه، فتلقي على نظرته إلى الحياة ضوءًا هاديًا يربط الأحداث فيما بينها، ويتوجَّه نحو غاية واحدة هي...

وقاطعته جانين:

ـ هي خدمة القضايا الوطنيّة في بلاده.

فالتفت إليها دَهشًا، ولكنَّه صحَّح عبارتها:

ـ بل خدمة القضيَّة القوميَّة في بلاد العروبة كلِّها.

وهو نفسه قد عجب لنطقه بهذه الفكرة التي بدَتْ له كشفًا لم يعه قبل الآن. كان يؤمن بهذه الجذوة التي تلتهب بها جوانح فؤاد، ولكنَّه الآن فقط يرفع النقاب عن ينبوعها وعن مصبّها، فيجدهما واحدًا.

❖

ولقيا فؤاد وصديقته حيث تواعدوا، فإذا فرانسواز، وهي أمينة إحدى المكتبات في باريس، فتاة على جانب كبير من جمال الوجه وجاذبيَّة الجنس. ولم يُتَح لهم أن يتحدَّثوا إلاَّ بعبارات المجاملة التي يقتضيها التعرُّف الأول. فسرعان ما بدأ تمثيل المسرحيّة في «الكوميدي فرانسيز». وكانت «ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف» للكاتب المسرحي الإيطالي لويجي بيراندللو. وقد فوجئوا جميعًا بأنَّ المسرح كان مرفوع الستار، خاليًا من أي ديكور، ثم أدركوا أنَّ المسرحيَّة تبدأ كذلك حقًا، وهكذا ثار فضولهم من اللحظة الأولى وتابعوا الفصول باهتمام شديد.

وإذ انفضّوا من المسرح، أخذوا يعقّبون على المسرحية. وحين فرغت فرانسواز من الإدلاء برأيها، أيقن أنَّ أمامه فتاة رفيعة الثقافة، ناضجة الحسّ.

لقد أخذت تتحدَّث عن فنّ بيراندللو في التأليف المسرحيّ، وتشير إلى مواقف معيَّنة من مسرحيَّته فتحلِّلها بعمق، ثم تنوّه بالحسّ النقديّ الذي يملكه هذا المؤلِّف، ذلك الحسّ الذي لم يمنعه من أن يهاجم نفسه في هذه المسرحيّة التي تهزأ إجمالاً بالمؤلِّفين.

وقد ظلُّوا، ثلاثتهم، يقرُّونها على آرائها حتى أخذت على المؤلف تعقيده للأحداث في آخر المسرحيَّة، فعارضها فؤاد في ذلك وذهب إلى أنَّ هذا التعقيد ضرورةٌ تقتضيها الرؤية التي يرى بها المؤلّف أبطاله. على أنَّ فرانسواز راحت تفنِّد رأي فؤاد بإظهار الطابع المجانيّ لبعض أشخاص الرواية الثانويِّين، حتى أنَّ المسرحيَّة لا تفقد شيئًا من جمالها، بل لعلّها

تزداد جمالاً، إن أُسقِطوا منها. وكانت فرانسواز من قوّة الحجّة بحيث انتهت إلى إقناع فؤاد بوجهة نظرها.

ومضت دقائق، وهم يسيرون ببطء في اتِّجاه البانتيون، قبل أن تنخرط جانين وفرانسواز في حديث نسويّ، فانتهزها هو فرصة ليحدِّث صديقه ويثني على هذه الفتاة ثناء عظيمًا. وقد علَّق فؤاد على ذلك بقوله:

ـ الحقّ أنِّي شديد الإعجاب بفرانسواز، ولست لأكتمك أنَّها ترضي معظم نزعات نفسي..

وألفى نفسه يسأل صديقه سؤالاً ما كان يقفز إلى ذهنه حتى أداره على لسانه:

ـ إن كان الأمر كذلك، أفلا تفكِّر في الزواج بها؟

قال فؤاد:

ـ فكَّرت طويلاً في هذا، ولكنَّني انتهيت إلى إلغاء هذه الفكرة. إنَّنا مدعوون في المستقبل يا عزيزي إلى مواجهة كثير من قضايانا القوميَّة التي لا تعني أحدًا سوانا. وأنا لا أعتقد أنَّ زوجة أجنبيَّة تستطيع أن تعين زوجها في معاناة مثل هذه القضايا. إنَّني أريد أن تكون زوجتي رفيقة حياتي حقًا، بكل ما في الرفقة من معنى. ولئن أنا تزوَّجت يومًا، فلن أتزوَّج إلاَّ فتاة عربية، وإنَّ فرانسواز لتعرف ذلك الآن!

- ٦ -

إنَّها المرَّة الثالثة التي يهمّ فيها بأن يسأل تيريز، ثم يعدل. هو لا يخشى أن ترفض أو أن تعتذر، ولكنَّه مُشْفِقٌ من أن يحمِّلها فوق ما تحتمل. ولكنَّه إذ يذكر ما قالته له يومًا، يُحسّ بأنَّ تردُّده يوشك أن يزول، على أنَّه ما يلبث أن يعدل مرّة أخرى.

طرحه أخيرًا، سؤاله. ولا يدري على وجه التحقيق ما الذي دعاه إلى حسم الموقف بالإقدام.. قد يكون ذلك لأنَّ تيريز كانت تنظِّف زجاج النافذة، فكانت موليةً إيَّاه ظهرها. إنَّه إذا ألقى سؤاله، وهي في ذلك الوضع، فلن يرى سريعًا انفعالاتها تطفر على وجهها. سيمضي وقت قبل أن تلتفت إليه فتجيبه. ولعلّها تجيبه دون أن تلتفت إليه. سيظلّ ظهرها إذن في وجهه. وظهرها، هذا الذي لن ترشح عليه الأرجاع، هو الذي أنطقه بعبارته على الأرجح.

ولكنَّ تيريز التفتت إليه في شبه انتفاض. وسرعان ما انطلق في فمها سيل العتاب والسؤال. إنَّك لست لطيفًا. لِمَ تردَّدت طويلاً في أن تطلب إليَّ ذلك؟ لا بُدّ أنّك محتاجٌ إلى المال منذ أيام كثيرة. إنَّك فتى غير لطيف بالإجمال. ألم تعاهدني على ألاَّ تتردَّد في طلب معونتي يوم تشعر بالحاجة؟ أنت شاب رديء دون شكّ. ألف فرنك: صحيح أنَّني لست صاحبة ملايين، ولكنَّ بوسعي أن أستغني عن ألف فرنك. ومن حسن الحظّ أنَّني قبضت هذا الصباح بالذات أجرتي الأسبوعيَّة. إنَّ بوسعي أن أتنازل منها

عن ألف، بل عن ألف وخمسمئة. وتكفيني الألف الباقية، إذا أضيفت إلى الآلاف الثلاثة المدّخرة، لنفقات هذا الأسبوع. خذها يا سيِّدي، ولا تَعدْها إليّ قبل أسبوعين أو ثلاثة، ولعلّني أستطيع أن أعيرك مثلها في مطلع الأسبوع القادم، ولكن لا تنسى أنِّي عاتبة عليك. إنَّك لم تكن لطيفًا أبدًا حين احتجت إلى المساعدة وتردّدت في طلبها.

وظلّ يبتسم لها بحنان. ما أطيب هذا القلب! ولكن لم أتردَّد يا تيريز، ودليل ذلك أنِّي طلبت مساعدتك بكلّ صراحة. ذلك أنِّي أنتظر منذ عشرة أيام وصول المال من الوطن، ولا أفهم سببًا لتأخُّره. وقد تلقَّيت أمس رسالة من أهلي يؤكِّدون لي فيها مرَّة أخرى أنَّ مرسوم القسط الثاني من المنحة التي أقرَّتها لي وزارة المعارف قد أحيل على وزارة الماليَّة لتوقيعه وتحويل المال. فلا أدري حقًّا يا تيريز.. حسبُكَ شكوى يا صديقي المسكين! أليست هي معاملة حكوميَّة؟ إنَّها قد تبطئ، ولكنَّها لا بدّ أن تُنجَز.. ثم لماذا تحدِّثني بذلك؟ هل سألتك أن تقدِّم لي تقريرًا عن سبب طلبك؟ لا. إنَّك حقًّا غير لطيف. ألم تعاهدني؟ إنَّك شاب، وإنَّ لك لنفقات كثيرة. مدرسة، مطعم، سينما، مسرح، سهرة مع..

وسكتت تيريز أخيرًا. فتنفَّس الصعداء. إنَّها لطيفة ومخلصة. ولكنَّ هذا لا يمنع أنَّها.. تحمد للقدر أنَّها قرَّرت أخيرًا أن تصمت. ولكن ما عتم أن تبيَّن له أنَّها إنَّما صمتت لترتاح قليلاً، ولتحوّل الحديث إلى وجهة أخرى:

- سهرة مع الآنسة جانين مثلاً..

وافترّ فم خادمة الفندق عن بسمة عريضة. ثم أقبلت تربّت على كتفه ملاطفة:

- أتريد الحقّ يا سيِّدي! إنَّها فتاة تُعبد. جميلة ورشيقة ومتعلّمة.. ويبدو أخيرًا أنَّها تحبّك! لقد سألتها أكثر من مرّة، فكانت تجيب دائمًا أنَّك شابّ لطيف جدًا.. وهذه عبارة تعني كثيرًا!

ورأى تيريز تكفّ لحظة، ويبين في عينيها الاهتمام، ثم تضيف:

ـ أتريد آخر دليل على أنَّها تحبّك؟ لعلّك تعرفه. ومع ذلك فاسمع: قبل ظهر أمس، سمعتها تتحدَّث إلى صاحب الفندق، فتسأله عن غرفة في الطابق السادس، لرغبتها في الانتقال من الطابق الأول. وحين قال لها إنَّ غرف الطابق السادس صغيرة كلّها، لم تجد في ذلك مانعًا، بل قالت إنَّها تؤثر الغرفة الصغيرة... فأجابها أنَّ من المنتظر أن تُخلى عمّا قريب إحدى غرف ذلك الطابق، وحينذاك سارعت ترجوه أن يحجزها لها حالما تفرغ.. فما رأيك في ذلك؟!

فلم يجب. ولكأنَّ تيريز قد فطنت إلى أنَّه انصرف عنها، فلقد رآها بعد برهة، وكأنَّها خلف ضباب، تمسح مقبض الباب بحركة فارغة، وتستأذنه بالخروج، قائلة إنَّها انتهت من تنظيف غرفته. ولا يدري إن هو شكرها أم لا. جانين. لقد شعر ببعض الغبطة لدن سمع أنَّها منتقلةٌ بعد أيام إلى مقربة منه، ولكن فكرةً ما لبثت أن أقلقته: أتكون رغبة جانين في أن تزداد قربًا منه هي التي تدفعها إلى الانتقال، أم أنَّ هناك سببًا آخر؟ أتراها تشكو الضيق المالي، كما يشكو هو، وإن كانت شكواه مؤقتة؟!

وذكر حديثها إليه يومًا من أنَّها حين غادرت ذويها، حملت معها كلّ ما ادّخرته في القرية من مال، لتستعين به على العيش واستكمال أسباب دراستها في باريس. ولكنَّ جانين لم تُشِر إلى المدّة التي تحسب أنَّ هذا المال يكفيها فيها. أيكون المبلغ قد أوشك على النفاد؟ ولِمَ تراها لم تحدِّثه عن رغبتها في الانتقال، وقد كانت معه طوال الأمسية الفائتة؟ أمن أجل هذا كانت ساهمة بالأمس؟

ودفع فكرته إلى أبعد: لئن كانت جانين تشكو الضيق حقًا، فأيّ مدى يبلغه استعداده لمدّها بالمعونة؟

ولم يُطق أن يتـردّد في الإجـابة على هذا السـؤال. سـوف يُشـارك جانين حياته نفَسًا نفَسًا. سيقاسمها لقمته. سيبذل في سبيلها فوق ما يحتمل.

وفكّر في أن يترك لها أمر مفاتحته بهذا الشأن. ولكنَّه إذ لقيها في غرفتها مساء ذلك اليوم، لم يستطع أن يكتم ما في صدره، لاسيَّما وأنَّه لاحظ أنَّ جانين كانت منطلقة الأسارير، وقد اكتفت أوّل الأمر بأن ابتسمت له وهي تقول:

- لقد أخبرتك تلك الشيطانة إذن؟ كنت أودّ أنا نفسي أن أفاجئك بالنبأ!

ولكنَّها سارعت فأوضحت أنَّها آثرت إرجاء إعلامه بذلك حتى تتمّ لها الغاية التي كانت تسعى من أجلها. وحين سألها الإيضاح قالت إنَّه كان يشقّ عليها أن يعرف سريعًا أنَّ ما أدخرته من مال أوشك أن ينفد بعد هذه الأشهر الأربعة التي سلختها في باريس، وأنَّه كان ينبغي لها منذ البدء أن تنزل في إحدى دور الطالبات، أو لدى أسرة لا تكلِّفها السكنى في منزلها على أيّ حال ما تكلِّفها إيَّاه السكنى في فندق. ولكنَّها كانت لا تطيق أن تفكِّر بالابتعاد عنه، وكانت تتجاهل غالبًا أنَّ هذا المال الذي بين يديها يذوب رويدًا رويدًا. وحين بات الإغضاء عمَّا هي مقبلةٌ عليه من ضيق، لا جدوى فيه، عزمت على أن تبحث عن عمل تُعينها أجرتُه على متابعة درسها. وهي لم تشأ أن تستبدل غرفتها، فتكشف له عن حقيقة الأمر، وتحمّله همًا هو في غنًى عنه، قبل أن توفّق إلى هذا العمل المأجور.

وانتهت جانين إلى القول، وهي لا تترك له المجال مفتوحًا لأيّ تعليق:

- كنت إذن أنتظر أن أجد عملي لأبلّغك نبأ عزمي على الانتقال من غرفتي إلى مثل غرفتك تواضعًا... ولو تريّثت تلك العجوز الطيِّبة حتى هذه

الساعة فقط، لما أفسدت عليّ وعليك المفاجأة. وبوسعي الآن على أيّ حال أن أخبرك بأنِّي سأكون في جوارك عمًّا قليل..

فسألها بلامبالاة لا يدري حقًا إن كانت مصطنعة أم طبيعيَّة:

ـ وهل..

فأتمّت سؤاله جوابًا:

ـ وجدت عملاً. نعم، وجدت. بائعة في فرع ثياب الأطفال بمخزن «البرانتان» خلف الأوبرا..

وضحكت جانين ثم أردفت:

ـ أتحسب أنِّي أرضى بأن أقاسمك قرشك إذا كان بوسعي أن أحصِّل مثله بالعمل؟

ثم صمتت لتقول ببعض الأسى:

ـ على أنَّني سأحرم منذ الغد أن ألقاك صباحًا كما كنت ألقاك من قبل. إنَّ عليّ أن أغدو باكرًا إلى عملي. ولا أدري إن كنت أملك من الوقت عند الظهر ما يتيح لنا لقاءً هادئًا، إلاَّ إذا تمَّ هذا اللقاء في المترو بين «الأوبرا» و«لوي لوغران»!

فهمَّ بأن يقول لها إنَّه لن يقصّر في دعوتها إلى الغداء بأحد مطاعم الأوبرا، كلَّما سنحت له الفرصة، ولكنَّه ذكر أنَّه مدينٌ لتيريز بألف وخمسمئة فرنك، ولصديقيه صبحي وعدنان بأربعة آلاف، وأنَّ المنحة التي ستأتيه، يوم تأتيه، لن تفي بحاجاته الضروريَّة.. ذكر هذا كلّه، فغيَّر فكرته وقال لها:

ـ إنَّ لنا ساعات المساء والليل كلّها..

فابتسمت جانين بسمتها تلك الصافية وأجابت:

ـ أما المساء، فسأخصِّصه لمتابعة درس الصحافة في غرفتي، وإن كنت أخشى أن يسلبني تعب النهار ما قد تنطوي عليه ساعات المساء من راحة..

واعتصمت جانين بالصمت، ولكنَّه قطعه عليها يقول:

ـ وأما ساعات الليل؟

ـ أفّ ما أشدّ إلحاحك! تعمَّدت أن أطيل عبارتي حتى تنسى كلمتك الثانية... وقد كدت أنا أنساها، وأنت لا تني تلاحقها! أما الليل...

وفتحت له ذراعيها.

- ٧ -

ولكن لم تمضِ بضعة أيام حتى بان الإجهاد في عينيْ جانين.

ولقد حاول مرّات أن يثنيها عن مطالعة دروس الصحافة، إذا ما عادت مساءً من عملها، ولكنَّها كانت تصرّ على الجلوس إلى كتبها محاولة استدراك ما كان يفوتها من محاضرات المعهد. وقد قالت له مرّةً إنَّها غير راضية بعملها التافه في ذلك المخزن الكبير، وإنَّ لها أملاً كبيرًا في أن تلتحق بإحدى الصحف الأسبوعيَّة في مطلع العام القادم، ولو بأجر زهيد أول الأمر، وإنَّ ذلك يقتضيها أن تضاعف الجهد لتفوز بشهادة المعهد في السنة الأولى، ودبلومه في السنة الثانية. ولقد حدَّثته طويلاً عن شوقها إلى أن تتولَّى كتابة الريبورتاجات الطريفة، فقد شهد لها سكرتير المعهد بأنَّها تملك أسلوبًا عصبيًا حيًا. وقد رآها هو نفسه غير مرَّة تنتقد بعض الريبورتاجات التي تنشرها صحفٌ فرنسيَّة كبرى كـ «الفيغارو» و«فرانس سوار» و«لوموند»، فتبيّن مناقضات ومفارقات مضحكة وقع فيها المحرّرون.

ولكنَّه لم يستطع، مع ذلك، أن يَدَعَها تمضي في بذل هذا الجهد الذي كان يستنفد قواها الفكريَّة، من السادسة حتى العاشرة، ورجا إليها أن ترحم صحّتها. وإذ أدرك أنَّ كلامه ذاهبٌ أبدًا سُدى، عزم ذات ليلة على ألاّ يطرق عليها الباب، فلم تمض ربع ساعة حتى كانت هي تطرق بابه، وكانت لم تنتقل بعد إلى الطابق السادس، وتُقبل فتجلس على ركبتيه، من غير أن تنبس بحرف. ويظلاَّن برهة صامتين، ثم يسمعها تقول:

- أراك تحاول يا عزيزي أن تخيّرني بين أمرين، وذلك حرصًا على صحّتي دون ريب، فإما أن أنصرف عن الدراسة، وإما أن أكفّ عن لقائك. أمّا هذه الأخيرة، فلست أطيقها، وأعتقد أنَّك توفّر لي نعمة لا تعدلها في وجودي نعمة. ولكنَّ الحياة أصعب من أن تقدِّم لنا عطاياها من غير ثمن. ألا تظنّ أنَّ استحقاق هذه النعمة يقتضينا بذل أعظم ما نستطيعه من جهود؟

- ولكنَّكِ يا عزيزتي تبذلين فوق ما تطيقين في عملك طوال النهار.

- هذا صحيح، غير أنّي قلت لك إنَّ هذا العمل لا يرضيني. وتراني من أجل ذلك أحاول أن أمهِّد الطريق لعمل يرضيني، وإن كان في ذلك إرهاق لي.

ولا يجد هو ما يردّ به عليها.

إلى أن سقطت جانين، بعد أسبوعين، صريعة هذا الإرهاق الذي ارتضته عن وعي.

ولقد أمرها الطبيب أن تلزم فراشها أسبوعًا على الأقل، تنشد فيه الراحة إلى أقصاها. ووجد هو لذّة كبيرة في أن يلازم غرفتها وكانت قد انتقلت إلى جوار غرفته. معظم ساعات النهار. كان يسعده أن يجلس على كرسيّ قرب سريرها، ليتأمَّل عينيها المتعبتين العذبتين، ويأخذ بيديها الباردتين، ويقبِّل شعرها المرسل، ثم ليمنعها من أن تتكلَّم وتسهر.

ولكنَّه أدرك بعد حين أنَّه لم يكن يستطيع أن يمنعها من التفكير. وكأنَّ هذا الانغلاق في غرفة، يسدّ عليها منافذ نفسها، فعاشت في داخلها، وعادت إلى دنياها الملبّدة.

وكان يختلس النظر إليها أحيانًا، فيراها تغمض جفنيها تارةً فيكتسي وجهها إشراقة من سناء، كأنَّما هي تعيش في واقع حالم، وتفتح عينيها تارة أخرى، فترفّ فوق وجهها غمامة جاهمة، كأنَّها ظلال الواقع الحقيقيّ. أتراها تحاول أن تنيم هذا الواقع، حين تسبل جفنيها، أوأن تكفّ عن سمعها صوته، فما يلبث أن يستعصي عليها، ويهزّها، ويخرجها من أحلامها؟

وأتاها ذات صباح، بعد يومين، فداخلته الغبطة للنضارة التي كانت تشعّ من وجهها، واستبشر بها خيرًا. وقد استقبلته هي بلهفة متفانية، كأنَّها لم تره منذ أشهر، ورجته أن ينحني، فمدّت إليه ذراعيها، وشدّت إليها وجهه، وقبّلته في عينيه، ثم سمعها تعبّر عن شعورها بأنَّها تبلغ معه ذروة السعادة التي تصبو إليها..

ولكنَّ الحديث الذي ساقته له بعد ذلك، أنبأه أنَّ الجرح القديم في قلب مرهف لا ينكأه مثلُ الإغراق في السعادة:

- أترى يا حبيبي كيف استغرقنا في لذاذاتنا وأهوائنا؟ نسينا من نحن، فلم نحفل الناس والواقع، وكلّهم حولنا قيود خانقة. نسينا من أنا، ونسينا من أنت...

وهزّتها إشارتُها إليه بالذات. وتململ ولم يدْرِ بِمَ يجيب، وحسب أنَّه سيخرج من ضيقه إذ قال:

- وما يعنينا أن نعرف من نحن؟ ألا يكفينا أنَّنا كائنان يعيش أحدنا بالآخر، ألا تشعرين أنَّكِ تحقّقين لي الآن غاية وجودي؟ وأنا كذلك؟ لماذا تبتعدين يا جانين؟ لماذا تستشرفين الآفاق القاصية؟

وابتسمت بسمة حزينة، لم يكن فيها غير الرثاء لنفسها، ثم راعه أن تقول:

- كم أودّ يا حبيبي لو أنِّي الآن أموت..

فهتف يقاطعها وهو راعش الأطراف:

- جانين.. أيّ كلام هذا؟!

ولكنَّها تابعت كأنَّها لم تسمع هتافه:

- كم أودّ لو أنِّي الآن أموت، إذن لنسيت مستقبلي، وقتلت فكري. لو أنَّه لم يكن لي ماضٍ لما حلمت بغير الحاضر. ولكنَّ ذلك الماضي الذي

تعرف، ماضيّ المثخن، هو الذي يخلق لي المستقبل، ويجسّمه بعينيّ شبحًا رهيبًا يُفسد عليّ كل لذّة.

ثم نظرت إليه بأسى، وأغمضت عينيها من جديد لتقول:

ـ أُعذرني يا حبيبي. أنا أعرف أنَّ حديثي هذا يشقّ عليك. ولكن إذا استطعت أنتَ أن تُخلي فكرك من أشباح المستقبل فهل تراني أنا أستطيع؟

ورأى شفتيها تتضمّان ثم تنفرجان لتستدركا:

ـ لا.. لا يستطيع أحدٌ أن يخلي فكره من المستقبل.. ولكنّ مستقبلك أنت لن يكون غير طيوف بيضاء ناعمة.. أما أنا، فهل تراه يكون غير أشباح مخيفة سوداء؟

ونفد ما كان يدخره من صبر، فتناول كفّها يشدّ عليه بعصبية:

ـ جانين، أيَّة أفكارٍ سوداء هذه التي تعيشين اليوم فيها؟

وقالت جانين في صمم:

ـ هذه زهاء خمسة أشهر تنقضي منذ تعارفنا، وقد عشنا فيها خارج حدود الزمان والمكان! ولكن هل نسمح لأنفسنا أن نعيش كذلك أبدًا؟ من أنا في حياتك؟ هل أكون غير طيف عابر؟

ولكن يا إلهي. لِمَ تحرص هذا الحرص الشديد اليوم على تفتيح الآفاق الغائبة؟ ما الذي أرهف حواسّها للمستقبل المكنون؟

ـ لا، لا تأخذك الأوهام. إنَّني سعيدٌ بك ملء وجودي، ولكنّ خوفي من إضاعة هذه السعادة هو الذي يحدو بي إلى التفكير بالقادم من الزمن..

أتراك تدرك ما تعنيه جانين؟ أو تَشكّ لحظةً في أنَّها قد منحتْ حبّها إيَّاك كلّ إمكانيات وجودها، حتى لم تستبقِ لها في مواجهة تصاريف الزمان أيّ رصيد؟ أيكون طبعها غير هذا: إخلاص يساوي التفاني، وعطاء يستنفد الغنى كلّه، فيكاد يفضي إلى الفقر؟ لا ليس لها في هذا الطبع يد،

وليس لها من إطاعته مناص، وإنَّ في ذلك لقوتها جميعًا، فأين أنت من ذلك؟

لا، ليست هي في حياته الطيف العابر، وإنَّما هي الصورة الكبرى تملك عليه خياله.

ومع ذلك، فمن عساها تكون بعد حين، يوم تهدأ ثورة العاصفة، وتتقلَّص فورة الشباب، ويُطرح السؤال الكبير: إلى أين هما يسيران؟

ـ منذ حين، تتملّكني رعشة من الخوف كلَّما فكَّرت أنَّك ستعود يومًا إلى بلادك، إلى الشرق البعيد.

وأحسّ أنَّ شيئًا في نفسه ينهار، عرقًا يُقطع، أو عظمة تُكسر، أو لكأنَّها غشاوة تزول فجأة عن عينيه، فتطلعه على دنيا جديدة تناسى وجودها طويلاً.

العودة. ما أصفق حسّ الواقع عنده، وما أرهفه عند جانين! كأنَّما هي التي ستعود! وما أقدرها بَعْدُ على تعذيبه! في لحظة واحدة، ينهدم صرح الاطمئنان والاستقرار في نفسه، هذا الصرح الذي دميت روحه في إقامته. العودة. إنَّها تفكِّر بالعودة النهائيَّة وهو لم يحدِّثها، حتى تلك اللحظة، عن العودة القريبة، عودة الصيف الزاحف. العودة التي تتحدَّث عنها كلّ رسالة من رسائل أمّه وإخوته وأصدقائه في الوطن.

وأدهشه أن تكون هذه الفكرة قد تأصَّلت جذورها في أعماقه وهو يكاد لا يعيها. كأنَّها أمرٌ لا مجال للنقاش فيه. كأنَّها قدرٌ محفوظ. ولكن لِمَ لا يناقشها، وإنَّها الآن لترعشه؟ صحيح أنَّ شوقه بالغ إلى ذويه، إلى أمِّه وإخوته، إلى تلك الأماكن الأليفة الحبيبة. ولكن باريس هذه، الحياة الحرَّة العذبة هذه، وهذا الحبّ، وجانين...

ويشدّ على يد جانين. لا، لن يطيق ذلك. إنَّه سيشقى إذا تركها، ستفرغ حياته، سيسقط مرة أخرى في الفراغ. لماذا أيقظتني يا جانين؟ لماذا هدمتِ هذه الأحلام؟ لماذا...

ـ آه... إنَّك توجعني يا عزيزي!

وتتراخى قبضتِه، وتتزايل من عينيه آخر الأحلام، فيُحني رأسه ويطرق. ثم يتناهى إلى سمعه صوتها كأنَّها قادمٌ من بعيد بعيد:

ـ مَنْ أنا في حياتك؟ هل أكون غير طيف عابر؟

ولا يدري لماذا أجابها، وكأنَّ الجواب يجول في حلقه منذ حين:

ـ وأنا أيضًا، ينبغي ألاّ أكون في حياتك، يا جانين، غير طيف عابر..

وشعر بأنَّ أصابع يدها تنفرج وتنفلت من يده. وإذ ينظر إلى وجهها، يروعه أن يعلوه الاصفرار والشحوب، وقد كان إلى ساعة نضرًا مورّد الوجنتين.

وظلّت جانين مطبقة الشفتين، فرأى أن ينهض ويستأذنها بالخروج ليدع لها أن تأخذ نصيبًا من الراحة، فتغمض عينيها إيماءة الموافقة.

تقول إنَّك ملتاث الذهن، مضطرب الأفكار. حاول قليلاً أن تنظِّم فكرك. ألا ترى أنَّ جانين قد طرحت عليك اليوم قضية حياتها كلّها، كأنَّما تطلب إليك أن تصدر فيها حكمك؟ لستَ قادرًا على أن تقول شيئًا؟ أيَّة بلاهة هذه! ألست فريقًا أساسيًا في هذه القضية؟ أم لعلّك لم تحدس يومًا بأن ينتج عن هذا الحبّ قضية؟ إنَّها تواجهك الآن بالسؤال الكبير: «وماذا بعد؟» ولكن لِمَ تطرح هذا السؤال؟ أهي تحبّني حقًا؟ أو ما تدرك أنَّ إثارة هذا الأمر تنغصّ عليّ هناءتي؟ هكذا إذن؟ أيّ أناني أنت! ألا تعدّ جانين فتاة شريفة؟ ألم تطلعك على سرّ ماضيها، وتنفض إليك ذات نفسها بثقة وإخلاص؟ أتشكّ في شرفها وقد صدّقتها حين روت لك أنَّها كانت عظيمة الحب لخطيبها هنري، ولكنَّها نجحت في أن تخنق هذا الحبّ يوم رأته يخونها قبيل الزواج بأسبوع، ألم يندم هنري ويستغفرها ويَجْثُ على قدميها مبتهلاً أن تسترجع حبّها إيَّاه، وثقتها به؟ لقد كانت مؤمنة أعمق الإيمان أنَّها ستسوق معه حياة ذليلة إذا ارتبطا بالزواج. فما الذي يضمن لها أنَّ هذا الخطيب الحبيب الذي يخونها قبل العرس، لن يخونها بعد أن يصبح زوجًا

معرَّضًا للبرودة والضجر؟ ثم إنَّها لم تتردَّد في أن تعترف أمامك بأنَّها قد سلّمت جسدها لخطيبها في ساعة من ساعات الضعف البشري... فلو لم تكن فتاة شريفة، أما كانت تتعلَّق بهنري، ولو كان قد خدعها، لاسيَّما وأنَّه أتاح لها الفرصة إذ أعلن ندمه؟ ألم تقتنع بعد؟ إذن ما تقول في مجيئها إلى باريس، فرارًا من ضغط ذويها الذين كانوا يريدون قسرها على أن تتزوَّج ذلك المخادع؟ أليس هذا دليلاً على أنَّها تقيم للشرف وزنًا لا يقيمه الكثيرون في فرنسا؟ وماذا ترى في أنَّها قدمت العاصمة، وهي على يقين من أنَّها ستواجه مشاقّ كثيرة كثيرة ومصاعب عظيمة من أجل بناء الحياة التي قرّرت أن تحياها؟ أتنسى أخيرًا أنَّها حاولت كثيرًا أن تهرب منك، يوم تعارفتما، وتبتعد عنك، حتى لا تقع مرّة أخرى في التجربة... ولكنَّك كنت أنت بأشدّ الحاجة إلى هذا الحبّ، فسقتها إليه سوقًا، ثم إذا هي أوفر منك إخلاصًا لهذا الحبّ، وأعظم وعيًا لأثره في حياتها الشّاقّة؟

وأصيب من هذه الأسئلة بدوار طمس عليه معالم الفكرة التي كان ينشد جَلوها. ثم جلس يهدِّئ أعصابه ليستصفي الفكرة من ضباب الدوار. أجل، إنَّ ما يستأثر الآن بوجود جانين هو هذا السؤال: ما طبيعة العلاقة التي تربطها به؟ أتظلّ هكذا حبيبته وخليلته، حتى يخطر له أن يعود إلى بلاده، فيخلِّفها محطّمةً بائسة؟ ألا يفكِّر في أنّ...

وتوقَّف عند الكلمة.. «يتزوَّجها». يتزوَّجها؟ أيَّة كلمة مخيفة هي! وسرعان ما طفرت إلى ذهنه صورة أمّه. وأحسّ بضيق شديد يأخذ بخناقه. ينبغي أن يُنحّيها، الآن على الأقل، هذه الفكرة الكابوس. ينبغي له ألاَّ يبقى وحده، مع أمّه.

وعاد يدقّ باب جانين، فعجب أن يجدها قد غادرت سريرها ووقفت عند المرآة تسرّح شعرها. وفاجأته بالتفاتة ضاحكة، ولكنَّ إشعاع عينيها سرعان ما خبا وهي تنظر إليه:

ـ ما بالك شاحب الوجه؟

ثم أقبلت عليه تحاول أن تكسو ملامحها بسيماء الانطلاق والجذل:

ـ ألا تراني قد استعدت نشاطي وصحّتي؟ إنَّني عائدة إلى العمل منذ صباح الغد، ولن أرهق نفسي بعد الآن. سأنقطع عن متابعة دروس الصحافة... وبذلك يتاح لي...

ثم رأى جانين تكفّ فجأة، وتزداد دنوًا منه وهي تسأله باضطراب:

ـ ولكن ما لي لا أجدك مسرورًا بهذا الذي أقول؟... أتراك تشكو شيئًا؟ قلْ يا حبيبي، تكلَّم.

وأحسّ بأنَّه يستيقظ، ويشعر بألم. إنَّه لم يقابل نهوضها من فراشها بالغبطة والانشراح، وقد أسرع إليها وهو يراها تتراجع فتجلس على حافة السرير، فطوَّق كتفيها، فإذا هي تحني رأسها على صدره في هدوء:

ـ بلى يا حبيبتي، كم يُسعدني أن يعود إليك نشاطك... ولكنَّني كنت أفكِّر بشيء آخر...

وسمع جانين تتمتم:

ـ أجل.. أعرف ما تفكِّر به. إنَّك تفكِّر بما قلته لك..

ثم رأى عينيها تتَّجهان إلى عينيه في تعبيرملهوف:

ـ سامحني أيُّها الحبيب. إنس الذي قلته لك عن الغد، عن المستقبل.. أنا أيضًا سأحاول أن أنساه، كما أحاول أبدًا نسيان الماضي... سامحني يا حبيبي. لقد كنت شديدة الأنانية.

وشعر بأنَّه يتضاءل، يتضاءل، حتى يصبح حشرة، ذبابة قذرة. ولكنْ لم يتأتّ له أن يقول شيئًا. وقد زعم لنفسه فيما بعد أنَّ جانين لم تدعه يقول شيئًا، لأنَّ شفتيْها أطبقتا على شفتيه.

- ٨ -

هذه الغيبوبة التي شاء الاستغراق فيها لينسى التفكير بالغد وبالعودة، غدِه وغدٍ جانين، وعودته القريبة إلى الوطن لقضاء فصل الصيف، هذه الغيبوبة قتلتها رسالة أمه التي تلقَّاها ذلك الصباح الربيعيّ المشرق.

وقد اعتصرت الرسالة قلبه، إذ حملت إليه نبأً حاول ذووه أسابيع أن يخفوه عنه. ولم تجد أمّه أخيرًا بدّاً من كشفه له. ذلك أنَّها ظلَّت أيامًا طويلة، بعد تلك العمليّة، وأصابع المرض تنوشها بالحمّى. لقد التهب الجرح الذي شُقّ في بطنها، فراحت تعاني منه ألوانًا من الآلام أرمضت قواها وأوهنت عزيمتها، فشعرت أنَّها تشيخ في أسابيع.

وقد لاحظ أنَّ الرسائل الأخيرة التي وردته، قد كتبها إخوته. وكانت أمّه تكتفي بتسجيل بضعة أسطر في طرف بعض الرسائل، معتذرة تارة بالعمل البيتيّ المنهك، واعدة تارةً أخرى بأن تكتب له مطوَّلاً في الأسبوع التالي.

«لقد كان إخوتك يا ولدي يُصرّون على أن أحمِّل رسائلهم إليك ولو عبارة واحدة تخطّها يدي، حتى لا تتتابك الظّنون في صحّتي، فكنت أخطّ هذه العبارة التافهة، والدمعة تكاد تطفر من عيني. ولكنِّي بتّ لا أطيق هذا الصمت الكاذب. إنَّني مريضة جدًا يا ولدي، وأنا أتألَّم أبدًا، وأشعر بأنَّ أيامي باتت معدودة. وكل ما أتمنّاه على اللّه أن يمدّ في حياتي إلى يوم تكتحل عيني برؤيتك. فهل سيطول مكوثك في البلد البعيد؟ رحماك يا ولدي. إنَّني أعيش على أمل عودتك القريبة».

ولم تمكّنه الدموع التي ترقرقت في محجريه من متابعة الرسالة، فآثر أن يترقّب حتى يُفرغ لوعته في عينيه، وحتى تُفرغ عيناه عبراتهما. وكان يتمتم باسم أمّه في غصّة. وفي تلك اللحظة بالذات صحَّ عزمه على أن يضع حدًا لتردُّده، ويسافر إلى الوطن في أقرب فرصة ممكنة، بعد شهرين، بل قبل ذلك على التدقيق.

ويعود إلى الرسالة، وقد هدأ بلباله. ولكنْ ما بال أمّه تنسى مرضها وابتهالاتها إليه، لتعرض لذلك الموضوع:

«أخشى يا بنيّ، أن يصرفك الغرب عنًّا. وأخشى فوق ذلك أن تسحرك امرأة من هناك فتقع في شباكها، وتخيّب أمل أمّك الصغيرة بك. إنَّ «ناهدة» تنتظرك يا ولدي. أقرأ ذلك في عينيها كلَّما زارتنا، وأرى الحنين فيهما كلَّما جرى الحديث عنك، وإن كانت تمسك عن ذكرك، وأنت تعرف خجلها. ومع ذلك، فإن لم تكن راغبًا في «ناهدة» فهناك «نعمت» و«ثريا» و«هدباء» ابنة خالتك. هناك كثيرات. عُدْ يا بنيّ لأخطب لك أجمل فتاة هنا، وأشرفها، وأطهرها...»

أيكون هذا هو حدس أمّه الذي يعرفه؟ أتراها ترتاب بأنَّ هناك علاقة تربطه بامرأة يعيش منذ حين في نعيم حبّها؟ لقد كان يعجب دائمًا لهذا الحسّ الذي يتيح لأمّه أن تتنبّأ بكثير من الشؤون الخفيَّة التي تَمسّه وتمسّ إخوته. ولعلّ هذا هو الذي جعلهم يجدون صعوبة كبيرة في الكذب أو الرياء.

وانتفض الخوف، الذي كان قد أنامه، من التفكير بالزواج، كأنَّما الإشفاق على أمّه من الخيبة التي تحدس بها، هو التبرير الصحيح.. وتمثّلها أمامه، هي أمّه، تتحدَّث إليه، وقد علمت أنَّه يحبّ امرأة فرنسيَّة ويفكِّر أحيانًا بالزواج منها. واستوعب في لحظاتٍ جميع أفكارها وحركاتها، وحججها و...

وسمع دقّاً على بابه، ثم أطلّ وجه تيريز:

ـ أأستطيع أن أدخل، فأنظِّف غرفة سيدي، أم أنتظر خروجه؟

ـ أنا خارج بعد دقائق يا تيريز.

ـ إذن، فأنا داخلةٌ لأنظِّف غرفة الآنسة جانين.

وسرعان ما عاد إليه وجه أمّه، في وجه تيريز هذه، التي أغلقت خلفها الباب. ورآها، هي تيريز، تستعيد حركات أمّه وأفكارها وحججها، ولكنْ بالفرنسيَّة أول الأمر، ثم اختلطت الكلمات باللغتين.

وأحسّ أنَّه يصاب من هذا الحديث بمثل الدوار الذي أصيب به من التساؤل في شأن جانين. وقلَّب بين يديه رسالة أمّه وهو بَرِم، ثمَّ وقع بصره على عبارتها: «إنِّي مريضة جدّاً يا ولدي، وأنا أتألَّم أبدًا». كيف تراها تتألَّم، كيف يكون وجهها حين تتألَّم؟ يا إلهي..

وأحسّ بقدميه تدفعانه إلى غرفة جانين، يريد أن يرى وجه تيريز، ثم يتخيَّل عليه طابع الألم. ودخل الغرفة، فأحسّ رائحة جانين، ومذاقها، وحبّها. ورأى أن يقول شيئًا لتيريز:

ـ تيريز... كيف حال الأولاد؟

وانطلقت خادمة الفندق في محاضرتها. وكان يودّ إطالة التحديق في وجهها، ولكنَّها لم تكن تلتفت إليه إلاَّ قليلاً. ولفت بصرَه بغتةً دفترٌ كثيف، موضوع على الطاولة الصغيرة بجانب السرير، فاقترب وتناوله وقرأ على الصفحة الأولى، بالفرنسيَّة «مذكرات باريس» وفي الزاوية السفلى «جانين مونترو».

لا، ينبغي لك ألاَّ تقرأ فيه. الصفحة الأخيرة، الصفحة الأخيرة فقط. ليس إلاَّ الصفحة الأخيرة؟

وفتحه. «٢٣ نيسان. صباحًا» تاريخ اليوم.

«كانت ليلتي هادئة النوم. أكاد الآن أعرف طريقي. ما كان لي بالأمس أن أحدِّثه ولو بغموض عن الغد. إنَّه لم يفكِّر به، وأعتقد أنَّه ليس مستعداً للتفكير به. لقد قال لي العبارة التي كنت أخشاها: «وأنا أيضًا، ينبغي ألاَّ أكون في حياتك غير طيف عابر». استغفرته، ورجوته أن يسامحني، وأن ينسى الذي قلته له عن المستقبل. وقلت إنَّني سأحاول أنا أيضًا أن أنساه، هذا المستقبل، كما أحاول أن أنسى الماضي. أيكون هذا صحيحًا؟ لست أدري. ولكن يجب عليّ أن أحاول. من أجله هو، من أجل حبّه. أصبحت أحبّ هذا الحبّ، وأحبّ نفسي التي تحبّه، أحسب أنِّي أعيش في أنانيَّة لم أكن أعتقد أنِّي أقدر عليها، قلت له مثل هذا تقريبًا. ولماذا، في الحقّ، يعنيني ما سوف ينتهي إليه حبِّي؟ أليس هو حسْبي وغايتي كلّها؟ ألستُ به أعيش، ومنه أستمدّ أسباب حياتي؟ ألا يكون من الحماقة آخر الأمر، أن أنظر إلى بعيد، ما دامت السعادة بين يديّ، أترشَّف منها وأتلذَّذ بها، وأكاد أنكر أنَّ بوسع إنسان أن يدرك منها ما أدرك؟

«أعتقد أنِّي لم أُزِلْ من نفسه كلّ أثر سيِّئ خلَّفه حديثي إليه عن الغد. سأحاول أن أفتح اليوم هذا الموضوع مرَّة أخرى لأصارحه. سأصارح حبيبي العربيّ بأنِّي سأحبُّه كما تحبّ المرأة الرجل في الشرق، لا تطلب مقابلاً، ولا تنتظر عروضًا. لا أدري أين قرأت هذا. ولكنِّي أعتقد أنَّه الحبّ الصحيح، لأنَّه التفاني كلّه والإخلاص... أم أراني على خطأ؟ مهما يكن من أمر، فسأقول له إنَّه لا يخيفني بعد أن يذهب، فقد زوَّد حياتي بزاد من الحب لا أحسب أنَّه سيجفّ يومًا.

«أنا ذاهبة الآن إلى عملي بعد هذه الأيام العشرة من المرض.. أحسّ بنشوة في صدري، وأشعر بهذه السماء الربيعيَّة الصافية تدخل إلى قلبي فتملأه أملاً وحياة ورغبة. أظنّ أنِّي لن أدع المرض يتغلَّب عليَّ بعد الآن. إنَّني أستشعر ذخيرة غنيَّة من رصيد المقاومة. شكرًا لك أيُّها الحبيب، شكرًا لك يا حبيبي العربيّ».

وحين أغلق الدفتر، سمع صوت تيريز:

ـ وأما الصغير جان..

ـ ستحدِّثينني عنه غدًا يا تيريز. فينبغي لي الآن أن أسرع بالخروج.

❖

ـ لِمَ لَمْ تصحب جانين، ما دمت تنوي أن تقضي السهرة معنا؟ أما كان الأفضل أن نكون فتاتين، وأنتما شابّان! إنَّني أكاد أخاف على نفسي بينكما!

وانفجرت فرانسواز ضاحكة، وهي تلتصق بفؤاد، وتكشّر في وجهه تكشيرة مصطنعة.

وأجاب هو:

ـ كم كان يسعدني أن تصحبني جانين. ولكنَّ الواقع أنَّها مدعوَّة الليلة إلى سهرة لدى أسرة فرنسيَّة من صديقات أسرتها.

قالها ثم ندم. كان بوسعه أن يتحاشى الجواب عن سؤال فرانسواز بتحويل الحديث إلى وجهة أخرى، وبذلك لا يُدفع دفعًا إلى الكذب. وكأنَّه حسب أنَّ بإمكانه استدراك قوله، فسأل فرانسواز:

ـ قولي الحقّ يا فرانسواز: أصحيح أنَّ الفتاة الفرنسيَّة إجمالاً تخشى من الشرقيّ؟

ـ نعم صحيح! لست أتملَّقكما إذا قلت إنَّ هذا أمرٌ مؤسف حقّاً. على أنَّ الخطأ ليس هو خطأ الفتاة الفرنسيَّة. هكذا علَّموها في بعض مجتمعاتهم..

ودُقّ الباب في تلك اللحظة، ودخل بالتتالي عدنان وربيع وأحمد فالتفت فؤاد يقول:

ـ ها أنَّ الشمل قد اجتمع.. لا ينقصنا سوى صبحي حتى نؤلِّف جوقة موسيقيَّة عربيَّة!

وفكَّر فجأة أنَّ الأحرى به، هو، أن يقول «حتى نركِّب طاولة بوكر!» وراقت له الفكرة، وحدَّث نفسه أنَّ من اليسير عليه أن يمهِّد لها متى حانت المناسبة. وقال عدنان معلّقًا:

ـ قد تعجبون إذا علمتم أين هو صبحي الآن!

ـ في المرقص؟

ـ في السينما؟

ـ في كهف من كهوف «السان جرمان؟»

فظلّ عدنان يومئ برأسه نفيًا، ثم قال بهدوء:

ـ في غرفته!

فضحك بعضهم، وعدَّها الآخرون نكتة بائخة.. ولكن عدنان قال برصانة:

ـ لم أرد أن أضحككم، وإنَّما أن أنبِّئكم بأنَّ صديقنا العزيز قد تطوَّر منذ صباح أمس تطوُّرًا عجيبًا! إنَّه الآن في غرفته، لا مع امرأة وإنَّما مع كتاب! وقد ألححت عليه في أن يصحبنا، ولكنَّه رفض رفضًا شديدًا.

وروى عدنان كيف أتاه صبحي بالأمس يعلن أنَّه منصرف منذ يومه عن اللهو والعبث، وأنَّه سيسلك مسالك الجدّ والعمل! فهو لم يكد ينجزْ خلال هذه الأشهر الستة أيّ مادّة من موادّ الشهادات التي سيقدِّمها في دورة حزيران، ثم إنَّه قد أصيب من المرأة في باريس بالنفور بل بالغثيان وأنَّه..

فقاطعه أحمد:

ـ أما أنَّه لم يفعل شيئًا في كليّة الحقوق، فهذا لا مراء فيه! وأما أنَّه أصيب من المرأة بالغثيان، ففي هذا كلّه المراء! بضعة أيام، وسترون! سيعود إلى المرأة أشدّ لهفة وأوفر اندفاعًا.. إنَّه أيُّها الأعزاء يعوّض عمَّا فات، وعمَّا هو آت!

وانفجرت ضحكتهم، فاهتزّت لها الجدران. ولاحظ ربيع ذلك، فسأل فؤاد:

- نرجو ألاّ نزعج بأصواتنا صاحبة البانسيون أو بعض نزلائه.

- لا، ليس في ذلك أيّ إزعاج. كلّ ما سيقولونه إنَّ هؤلاء العرب لا يتعلَّمون الكلام في مدارس الشرق، وإنَّما يتعلَّمون الصراخ والزّعاق!

وتذكّر هو ما كانت فرانسواز قد بدأته من حديث عن نظرة الفتاة الفرنسيَّة إلى الشرقيّ، حين دخل الأصدقاء فقطعوا عليها الكلام. ورجاها أن تستأنفه، فابتسمت فرانسواز وقالت:

- كنت أتحدَّث عن خوف الفرنسيَّة - إجمالاً - إذا وُجدت مع شرقيّ واحد.. فكيف يكون خوفها إذا وُجدت مع خمسة!

وبعد أن كفكفوا ضحكتهم، وهم ينظرون إلى الباب في خشية، استطردت تقول:

- لقد علَّموا الفتاة الفرنسيَّة، في بعض مجتمعاتهم، أن تخشى هذا الشرقيّ السَّاكن في الصحراء، القائم في مجتمع متأخِّر، لا بدّ أنَّه متوحِّش وأعتقد أنَّكم مقصّرون جدًا في الدعاوة لأنفسكم..

فقال فؤاد، وكأنَّه يقاطعها:

- هذا صحيح، ولكنَّا سنظلّ مقصَّرين في هذا السبيل، ولو بذلنا ملايين الفرنكات، ما دام اليهود هم الذين يستولون برؤوس أموالهم على أهمّ المرافق الفرنسيَّة!

فقالت فرانسواز:

- إنَّني أقرّك يا عزيزي على رأيك. ولكن إلى حدّ. فليس مال اليهود هو كل شيء في القضية. وأنا أؤكّد لك أنَّ أعداء اليهوديَّة والصنهيونيَّة في فرنسا أكثر ممَّا يتصوَّر البعض. ولكنَّ هناك أمرًا آخر تعذرونني إذا

صارحتكم به. إنَّ بعض العناصر الشرقيَّة، والعربيَّة بصورة خاصَّة، تعطي في كثير من الأحيان فكرة سيِّئة عنكم، بما يرافق مسلكها من شذوذ وخرق للمواضعات الاجتماعيَّة، ولولا ذلك...

وهنا قاطعها ربيع بسؤال هادئ:

ـ ولكن هل لكِ أن تحدِّدي «بعض» هذه العناصر؟ لعلّكِ تقصدين الأفريقيِّين الشماليِّين؟

ـ لم يكن بعض هؤلاء الأفريقيِّين الشماليِّين بعيدًا عن ذهني، وأنا أقول ما قلت!

ـ أؤكِّد لك أيَّتها الآنسة أنَّ هؤلاء الأفريقيِّين من تونسيِّين وجزائريِّين ومراكشيِّين، الذين يسكنون هنا، في أحياء خاصّة لهم، هم أبعد من أن يمثِّلوا حقيقة السكّان في تلك الأقطار. وقد بات معلومًا اليوم أنَّ السلطة تشجِّع قيام هذه الأحياء الخاصَّة في باريس وتترك لها أن تعيش حياتها الخاصَّة، بما فيها من جهل وفقر وانحطاط ـ ولا تنسوا أنَّ معظم هؤلاء السكّان من العمّال والباعة المتجوِّلين، ومن طريدي العدالة والجناة.. إنَّ السلطات تشجِّع هذه الأحياء، وتدع لها طابع الحياة المستقلّة، لتقيم الدليل على أنَّ هؤلاء المقيمين في باريس، لا يستحقّ مواطنوهم أن ينعموا بالحريَّة والاستقلال. إنَّه الاستعمار، أيَّتها الآنسة فرانسواز، يتوسَّل بكلّ وسيلة ليظلّ ثابت الأقدام في بلادنا..

قالت فرانسواز، وهي تفرك يديها:

ـ آسف يا سيِّد ربيع إن كنت قد أوهمتك أنِّي أودّ أن أمسّ حسّك الوطني بما قلت. لم أقصد إلى ذلك إطلاقًا.. وأنا أرى أنَّ الموضوع قد تطوَّر فخرج عن النطاق الذي قصدناه. أليس كذلك يا فؤاد؟

والتفتت فرانسواز إلى فؤاد، فإذا هو يقول:

ـ ما رأيك يا عزيزتي في أن نقوم، أنتِ وأنا، بإعداد الشاي لهذه الذئاب الكاسرة؟

فاحتجَّ أحمد يقول:

ـ لِمَ الشاي؟ وزجاجة الخمر الأحمر التي هناك في الزاوية، لمن تستبقيها يا فؤاد؟

ـ لعلّ أحدًا منكم لا يرى شرب الخمر في هذه الأيام من رمضان، فهو يؤثر شرب الشاي! عدنان مثلاً... لقد قيل لي إنَّك تصوم رمضان هنا في باريس...

قال عدنان:

ـ هذا صحيح. فأنا أصومه لأنّي أؤمن بالفائدة الصحيَّة التي يحملها..

فقال فؤاد:

ـ وللخمر أيضًا فائدة صحّية هنا، فهو يبعث الدفء، ويجدِّد النشاط..

فأجاب عدنان وهو يضحك:

ـ ومن قال لك إنّي لن أشربه؟ إنَّ اللياقة تقتضي «المسايرة»...

فعلَّق ربيع، وضحكته تتصادى مع ضحكات الأصدقاء:

ـ إنَّك تؤمن بكلّ شيء أيُّها العزيز.. وتؤمن على الخصوص بقول النواسي:

فخير هذا بشرّ ذا فإذا اللّه قد عفا!

وكانت فرانسواز وفؤاد يتعاونان على صبّ الخمر في أكواب الشاي وفناجين القهوة، حين طُرق الباب طرقات خفيفة. فخفتت الأصوات، ثم صمتت، وكان الداخل صبحي.

فصاح أحمد:

ـ أهلاً بزاهد النساء وعاشق الكتب!

ولكنَّ صبحي اجتزأ بابتسامة مقتضبة وقال:

ـ إنَّ عندي لكم نبأ لا مجال فيه للمزاح على ما أعتقد!

وبسط لهم الطبعة الليليَّة الأخيرة من جريدة «فرانس سوار» فقرأوا بعنوان ضخم: «انقلاب عسكريّ جديد في سوريا». ثم أخذ يقرأ لهم تفاصيل النبأ.

وظلُّوا صامتين دقائق، بعد أن طُويت الصحيفة، وعادت إلى جيب صبحي. ثم هزَّ فؤاد رأسه، وقال وبسمة ساخرة على شفتيه:

ـ لقد كنَّا نتوقَّع ذلك منذ حدث الانقلاب الأول. لقد انتهى الأمر وسارت بلادنا في طريق الديكتاتوريَّة العسكريَّة. ولكنَّنا لم نفقد الأمل، ولن نفقده أبدًا، وإلاَّ لن يكون لوجودنا أيّ معنى!

قال أحمد:

ـ صحيح أنَّ الديكتاتوريَّة العسكريَّة أمرٌ لا يستحقّ إلاَّ الشجب. ولكنَّه يظلّ خيرًا من الاستعمار الأجنبيّ الذي يلعب من وراء ستار في بلاد مستقلّة اسميًا!

أما عدنان فراح يدافع عن الانقلاب الأول، وعن ضرورته في هذه الفترة من تاريخ البلاد، ثم قال كلامًا كثيرًا يؤيِّد فكرة «المستبدّ العادل».

ولم ينهضوا ليتفرَّقوا إلى غرفهم إلاَّ وقد جاوزت الساعة منتصف الليل.

وقد سمع هو، صديقه فؤاد يقول لأحمد وهو يودِّعه:

ـ قبّحك اللّه.. أنت الذي جنيت على زجاجة الخمر.. فما أشدّ حاجتي إليها الآن!

وبلغ هو فندق «ليغران زوم» فرقي السلّم مسرعًا، حتى إذا ما أدرك الطابق السادس، تمهّل في سيره، وراح يسترق الخطى استراقًا.

ولقد هدأت أنفاسه حين رأى النور مطفأ في غرفة جانين.

ـ ٩ ـ

كان يشعر ـ إذ هما جالسان على ضفّة السين ـ أنَّهما يعيان وجودهما هذا وعيًا ثقيلاً لا يكادان يطيقان تحمُّله. كان يقرأ ذلك في عينيها الزرقاوين، فهما مضطربتان مفتلمتان. وإنَّه ليُحسّ أنَّها تجهد في أن تتفادى من النظر إليه، فيما هي تحدِّق فيه، وكأنَّما تبتهل إليه أن يكفّ عن محاولته سبر أعماقها.

هذا الحضور الشفّاف، كانت نفسه شديدة الضيق به. وقد شقّ عليه أن يشعر بذاته متفتّحة هذا التفتُّح الصارخ لتقبُّل كلّ خلجة من خلجاتها. وكان موقنًا بأنَّ جانين في مثل حاله، وأنَّ نفسها تتمزَّق الآن لتخرج من هذا الوعي لوجودها ووجوده، إلى إغلاق أو نسيان.

ـ ما رأيك في أن نقصد سينما بلزاك، على الأوبرا، فنشاهد «قصر الزجاج»؟

والتفت إليها دَهشًا: إنَّها تسرق فكرته مرَّة أخرى. وضحك في نفسه: لو تأخرتُ لحظة لاعتقدتُ أنَّه هو الذي سرق فكرتها. أليس هو التجاوب المصدي في جوِّكما هذا المكشوف؟ لعلّ الستار ينسدل عليه فيغيِّبه، حين يرفع الستار عن الشاشة البيضاء.

ومن غير أن يجيب، أمسك بذراعها، فأنهضها عن ضفّة السين واستقلاّ الأوتوبيس رقم ٢٧ إلى الأوبرا، ودخلا سينما بلزاك.

❖

غدًا الأربعاء، وبعد غدٍ الخميس. يومان اثنان، بل يوم واحد، فاليوم الثلاثاء قد انتهى، وصباح الخميس الباكر، سيستقلّ القطار إلى مرسيليا ليبحر إلى وطنه.

ومع ذلك، فإنَّه يأخذ على نفسه هذا الانخذال. لقد بالغ في التودُّد إلى جانين، وهي التي أيقظته على مرارة هذا الضعف:

ـ منذ يومين، ألمس فيك من اللطف والودّ ما يُشعرني ببعض التكلُّف. أيكون دنوّ الفراق شاحذ العاطفة، ومرهف الحسّ إلى هذا الحدّ؟

وللدفاع عن نفسه، لم يجد خيرًا من أن يردّ التهمة فيلصقها بها. ولكنَّه اقتنع بأنَّها كسبت القضيّة، فصمت حين أجابته:

ـ ذلك كان شأني دائمًا: ضعيفة غاية الضعف في حبّك. أمّا أنت، عزّتك هذه التي تحبِّب إليّ الشرق وتبغّضه في آن واحد!

حقٌّ ما تقول، وليس إلى إنكاره من سبيل. لكأنَّك عاشق في يوميه الأوَّلين. لقد كانت هي دائمًا كذلك. وذكر ما قالته له منذ أيَّام: «لقد طبعتني بطابعك، وسأظلّ أبدًا أسيرة قيودك. إنَّ مصيري تقرَّر منذ رأيتك. لم تبق لي إرادة، وسأجري مع الزمن كما سيتقاذفني الزمن». ولقد تمثَّلها في تلك اللحظة صخرة كبيرة تتدحرج في منحدر من الأرض، لا يقودها غير خطّ الانحدار، حتى تبلغ قعر الوادي. وحين أخبرها منذ أسابيع أنَّه مغادرٌ باريس عمَّا قليل لقضاء فصل الصيف في وطنه، ألم تبْتسم تلك البسمة الواثقة لتقول له بكل هدوء:

«إذهب أو فابقَ هنا، وعدْ عمَّا قليل أو لا تعُدْ أبدًا. إنَّك هنا في جلدي، لن تموت إلاَّ يوم أموت». أكان ذلك استسلام العاجز المطمئنّ، أم هدوء الشقيّ يكظم ثورته ويحبس أساه هزءًا بالقدر؟

ولكن، أصحيح أنَّه كان يصطنع التودُّد إليها؟ إنَّ هذا افتراء دون ريب. ألست أستجيب، وأنا إلى قربها، لأصدق شعوري؟ هل شعرت لحظة،

وأنا أقبّلها، أنّي أغتصب القبلة اغتصابًا، على فرط ما التصقت شفتاي بشفتيها؟ إنَّ لكلّ لثمةٍ نكهة خاصة ومذاقًا جديدًا. إنَّ الشعور المتكلّف المغتصب، إنَّما هو عزّتك هذه الشرقيَّة. لتواجه واقعك هذا، ولتواجه واقعك بعد يومين أو ثلاثة، ساعة تقف وحيدًا على جسر الباخرة، لتنظر إلى البحر وتفكِّر.

ويضمّ جانين إليه، كأنَّما ليُذهب الغصّة الصاعدة إلى حلقه. وتفرغ هي إلى ذراعه مرتعشة الضلوع. وأحسّ بعد لحظات بأنفاسها يقطِّعها النحيب الصامت. أتريدها على أن تقاوم طويلاً بعد هذه الدفقة من الدموع الجائلة في عينيها؟

وأيقن أنَّه سيفقد مقاومته، هو أيضًا، إذا طال الصمت. وظلَّت في نحيبها الراعش. وجعل يتكلَّم. وقال أشياء كثيرة تافهة أدرك أنَّها لم تكن خيرًا من الصمت. بل هو فاجأ نفسه يروي لجانين مغامرة الليلة الماضية في مهرجان «ليلة باريس». ذكر لها دون أن يتلعثم أنَّه بادل فتاة سمراء، عَلِمَ فيما بعد أنَّها إسبانيَّة، نظراتها الحادّة ساعة كانت على مقربة منه، على العشب الممتدّ في الساحة تجاه المسرح المكشوف. وحين بدأت الأسهم الناريَّة تشقّ عنان السماء، منطلقةً من برج إيفل، كانا منتصبين يراقبان بجذل هذه الأنوار الضاحكة التي تملأ الدنيا...

ـ مسكينة هذه الإسبانيَّة! كان في عينيها الأنس بي والرغبة في اللقاء. وقد واعدتها بالفعل مساء اليوم التالي.

ونظر إلى ساعته، ثم ضحك:

ـ أي الآن. أعتقد أنَّها منذ ربع ساعة تنتظر قدومي إلى محطَّة «الأوديون».

ثم فاجأ نفسه يتحدَّث هذا الحديث الثقيل الذي يرشح منه الغرور. ولكنَّه لم يندم كثيرًا إذ رأى جانين تمسح عينيها بأناملها، فعلم أنَّه صرفها

عن شؤون نفسها. غير أنَّها ما لبثت أن سألته:

- ولماذا يُخلف «دون جوان» وعده؟ ما رأيه في أن أذهب الآن، لأفسح له المجال؟

فألقى رأسه على صدرها الحارّ وهو يتمتم:

- أتحسب جانين أنَّ «دون جوان» يؤثر عليها أحدًا؟ تلك كانت تسلية عابرة.. وإنَّ جانين لتعلم أنَّها أجمل حبّ في حياتي وأنَّني..

فغطّت فمه بيدها، وعاد النحيب يهزّها، وما يلبث أن يتحوَّل إلى نشيج:

- لا، لا تقلها.. ماذا يفيدني أن أكون أجمل حبّ في حياتك؟ وأيّ فرق بين هذا، وبين تلك التسلية العابرة؟..

يا إلهي! ما بالها اليوم! كأنَّما رأت عبثًا أن تستمرّ في تحدِّي القدر، أو أن تبقي ثورتها مكبوتة، فإذا هي تؤثر إلقاء آخر ورقة.. كأنَّما هي الآن تستعدي كل شيء، حتى نفسها.

- إنَّك ذاهب إذن، غائب عنِّي.. بعيد..

وضحكت بتشنّج وعصبيَّة.. ثم خفت صوتها.. ثم هدأت.. هدأت حتى عاد لا يسمع صوت أنفاسها. هدأت حتى حسب أنَّها لن تتكلَّم بعدُ، أنَّها ستصمت إلى الأبد، ثم قالت كلمتها اليائسة:

- إذن، أيَّة فتاة ضائعة سأكون؟

انتهى الأمر، وانفقأت الدملة. تلك هي الكلمة التي كان يترقَّبها منذ أسابيع، يترقَّبها ويخشاها، منذ حال حبّ جانين إلى استسلام وانقياد وخضوع. «Fille perdue». وددتُ أن أسحق وجهكِ قبل أن تنطقي بها. ضائعة، كلمةٌ لا يقولها إلاَّ من يحلم بالضياع، من ينشد الضياع.

ونفـرت إلى ذهنه، مـرَّة أخـرى، تلك الصـخـرة التي يقـودها خطّ المنحـدر، حتى إذا بلغت قعر الوادي، فتحطَّمت وتطايرت شظايا، لم تكن إلاَّ هذه الفتاة، هذه الفتاة الضائعة، جانين.

وامتلأ غيظًا وحقدًا أن تكون من الضعف والاستسلام حيث هي. لا، لستِ فتاة ضائعة، أحسَبُك أن أتركك لتضيعي؟ أكانت حياتكِ فارغةً هذا الفراغ المخيف يوم لقيتك؟ وهل ستفرغ هذا الفراغ المخيف يوم أتركك، ولو لبضعة أشهر؟ أيَّة فتاة تكونين؟

أحسّ أنَّ بودّه أن ينفـجـر بهـذا كلّه، أن يدمي جـوّه وجـوّها. ولكن رويدك. وذلك الحبّ، أتنسيك إيَّاه تلك العبـارة؟ أينسيك إيَّاه هذا الحـقـد؟ اضغط على أعصابك وفكِّر قليلاً ماذا عساك تقول لها؟ دَعْ شفتيْك إذن مطبقتين. منذ أسابيع، وأنت تعيش راضيًا، في شبه غيبوبة عن عالمك هذا. إنَّه بدأ يثقل عليك، ويعكّر صفو هدوئك، ويفسد عالمك ذاك الهنيء الذي حملته معك من الشرق، وإن كنت تظنّ أنَّك تركته هناك، أو ألقيته في اليمّ. أيَّة ثورة هذه التي تحسبها الآن إذن؟ أكبتْها، كما اعتدت أن تكبت كثيرًا من عواطفك، فما تلبث طويلاً حتى تخمد. بضع دقائق. أترى؟ لقد ذهبتْ نارها. لحظات أخرى. أرأيت؟ هل هناك غير الرماد؟ انهض الآن، ولا بأس في أن تَدَع جانين تسقط على الوسادة. اذرع الغرفة مرتين أو ثلاثًا، ولا تنسَ أنَّهما يومان فقط، بل يوم واحد. بعد غد. فهل يحسن أن تدمي نفسها جراحات؟

وذرع الغرفة خمس مرّات. وشعر بأنَّ جوّ الغرفة ثقيل، ففتح النافذة. ولكنَّ جوّ الغرفة ظلَّ ثقيلاً. وسألها:

ـ ما تقولين في نزهة على شاطئ السين؟

فنهضت تسرِّح شعرها وتصبغ شفتيها دون أن تنبس بكلمة.

وغادر الفندق متأبِّطًا ذراعها.

❖

حين خرجا من السينما تكلَّمت هي أولاً:

- أوه... لقد هبط اللَّيل سريعًا. كم الساعة؟ التاسعة إلاَّ ربعًا.. قال:

- نذهب فنتناول العشاء في «الرالي»، ثم...

فقاطعته:

- ثم ماذا؟ لا تتمّ.. البقية عليّ.

- وما هي البقية؟

قالت بجذل وهي تشدّ كفَّيه:

- نصحتك ألف مرَّة بألاَّ تكون ملحاحًا كالأطفال.

وتوجَّها إلى «الرالي». وقال ليتكلَّم:

- لم أفهم تمامًا القصد من تكسّر «قصر الزجاج».

- أوه.. أصحيح ما تقوله؟

- نعم، صحيح.

- ألا ترى في ذلك رمزًا لتحطُّم آمال «إيميه»؟

فشعر بالندم على سؤاله. وحين جلست قبالته في المطعم، عاد إليه الوجود الثقيل. حقًا إنَّ السينما وفَّرت له الغيبة التي يطلب؛ ولكنْ هنا، هاتان العينان المضطربتان، المغتلمتان، كيف له أن يكفّ عنه هذه الأعماق التي تُطل منهما؟ كيف له ذلك بغير أن تغمض هي عينيها، ويغمض هو عينيه، وهما لا يفعلان؟

كان يراها، بين لحظة وأخرى، تبتسم. ولكنَّه لم يكن يحسّ ابتسامتها. إنَّه موقن أنَّها لم تكن تقصد إلى الابتسام، إلاَّ أن تكون بسمة سخرية. سخرية من شيء لا يفهمه، أو لا يريد أن يفهمه.

وسألته جانين حين غادرا «الرالي»:

ـ أظنّك لا ترفض دعوتي؟

ـ دعوتك؟ إلى أيّ شيء تدعينني؟

فأجابت بمرح، أو بما خيّل إليه أنّه مرح:

ـ إلى «الكوبول»، نشرب ونرقص و..

وانقطعت لحظة، ثم أقبلت فجأة بوجهها على وجهه، وقالت بصوت مرتعش:

ـ ونعيّد عيد فراقنا الوشيك.

ثم صرفت عنه بصرها بلفتةٍ انتفض لها شعر رأسها كلّه. وأدرك أنّها تجهد لكي تزيل عن وجهها طابع اللوعة. وأنت أيضًا.. ألا تفكّر بالفراغ الذي.. سارع يغيّر الحديث:

ـ إذن نأخذ المترو إلى «الكوبول».

وقبل أن يبلغا مدخل المترو، ألمّت بهما امرأة طويلة جميلة، يشيع منها جوّ عطريّ حادّ. ونظر إلى جانين، فألفاها تتابعها ببصرها. وابتعدت عنهما «فتاة الرصيف» في مشيتها المتهادية، لا تزال تجرّ خلفها موكب العطر والأناقة والجمال.

واستقلاّ المترو صامتين. ولم يلبثا طويلاً حتى استرعى نظرهما في إحدى زوايا الحافلة شابّ وفتاة قد استغرقتهما ضمّةٌ وقبلة.

ـ أي «سنوبيسم» هذا. إنّه أشدّ ما أكره في باريس!

قالت، وكأنّها لم تسمعه:

ـ إنّني عطشى إلى الخمر. بودّي الليلة أن أثمل.

ففهم ما كان يخشى أن يفهمه. هي أيضًا تنشد الغيبة.

ـ وأنا أيضًا..

أحسّ أنَّها أفلتت من شفتيه، فنظرت إليه جانين، وخيِّل إليه أنَّ عينيها تضحكان. وهي التي أمسكت ذراعه إذ وقف المترو عند محطة مونبارناس.

❖

وخرجا من «الكوبول» حوالى الثانية بعد منتصف الليل.

كان ينبغي أن تمنعها من فتح زجاجة الشمبانيا الكبيرة الثانية. أترى كيف أنَّها تتهادى الآن، فتكاد تسقط لولا أن تسندها بذراعك؟ ولكنَّها ألحّت إلحاحًا شديدًا، بل آلمتني إذ ذكَّرتني بأنَّها هي التي قد دعتني، وهي التي ستدفع الثمن. وهل كان بوسعي، إلى ذلك، أن أمنع عنها الكأس، وقد انفلتت عقدة لسانها، فبدأت أنظار الناس تتَّجه إلينا؟ وما كنت أظنُّ أخيرًا أنَّها سريعة السكر.

وقد أحسّ أنَّه يكاد يذوب خجلاً إذ كان يراقصها. لقد كان الكثيرون يومئون إليهما ضاحكين. ورآها فجأة تقف، وتنظر إليه بعينيها الذاهلتين، وتميل عليه تسائله وهي تضحك ضحكة فارغة:

- ألا تعتقد أنَّ أولئك... سعيدات؟

فسألها مندهشًا:

- من... أولئك، يا عزيزتي؟

- أوه... لماذا لا تفهمني الليلة؟ أولئك... أقصد أولئك اللواتي رأينا منذ ساعات إحداهنّ... في شارع «الأوبرا».. تلك.. فتاة الرصيف؟

فشعر بضيق يأخذ بخناقه. وزادته كثافة الجوّ اختناقًا. ودخان السكاير. ومع ذلك، فلم يجب، مؤثرًا الصمت. ولكنَّها هي جانين، تسائله بصوت ممطوط:

ـ قلْ.. ألا تعتقد ذلك.. ألا تعتقد أنّهنَّ سعيدات؟ أما أنا.. نعم أنا.. فإنّي أحسدهنّ! أتفهم، ما معنى أحسدهنّ؟ إنّي أحسدهنّ لأنّه.. لأنَّه لا همَّ في صدورهنّ!

فهزّها يودّ منعها من الكلام، ثم قال لها مشفقًا:

ـ دعيك منهنَّ يا جانين.. إنَّهنَّ لا يستحققن مثل هذا الاهتمام!

فالتفتت إليه، وقد اتّسعت عيناها، اتسعتا حتى كادتا تجحظان:

ـ لماذا؟ من قال إنَّهنَّ لا.. لا يستحققن الاهتمام؟ من يستحقّ الاهتمام إذن؟ أنا؟ نحن؟ أأستحق أنا الاهتمام؟ اهتمام من؟

ثم صمتت لحظة، فرأى الزبد قد بدأ يخرج من شفتيها.. وظلّ آخذًا بجسمها بين ذراعيه، يضغطه، ويشدّه، ليوقظها، ويمنعها من المضيّ. ولكنَّها لم تصمت، بل أردفت تقول:

ـ أنا أرى، على العكس، أنّهنَّ.. جديرات بكل اهتمام. لماذا؟ لأنّهنَّ يعشن كما يُردن.. يعشن عيشة خالية.. من كل همّ، من كل ضيق.. ولأنَّهنَّ أيضًا..

وتوقَّفت جانين وسط الشارع، ونظرت إليه نظرات حسب أنَّها بلهاء:

ـ أتعرف لماذا أيضًا؟ لأنَّهنَّ يعشن كلّ يوم على حدة، كلّ يوم بيومه، لا يفكِّرن، أجل، لا يفكِّرن بالغد..

وخانه صبره، فأمسكها من كتفيها يخاطبها بإلحاح:

ـ جانين! قلت لك أن كفِّي عن هذا الحديث!

فقالت وهي تتشبّث بذراعه:

ـ أوه.. لا. لا تغضب.. يا حبيبي! إذا كنت تعتقد.. غير الذي أقوله، فأنت، بكل بساطة، مخطئ.. مخطئ يا حبيبي!

ثم سكتت.. وأحسّ كابوسًا ينزاح عن صدره.. وأسرع يجيل نظره باحثًا عن سيّارة. وكانت الطريق شبه خالية من المارَّة. ثم استعاد سيره البطيء، وجانين ما زالت معتمدة ذراعه. وكأنَّها أغراها خلوّ الطريق، فعادت إلى هذيانها. وبدأت بصوت منخفض كأنَّما تحدّث نفسها:

ـ نعم يا عزيزي.. هؤلاء.. هؤلاء.. أولئك الفتيات! أليس خيرًا لهنَّ... أن لا يكنّ ذوات ضمائر؟ إنَّهنَّ.. يُردن أن يعشن، أن يوفِّرن اللقمة.. فإذا ظلّ ضميرهنَّ حائلاً دون ذلك..

وكفَّت جانين لحظة، ثم صرخت في وجهه:

ـ فماذا يعملن؟ أيمتنَ.. أم يقتُلْن ضمائرهن؟ أجبني.. قل!

ونظر إليها مذعورًا، وشعر بمثل الخوف، وهو يرى إلى وجهها، وقد كلحت ملامحه، حتى كاد يكون قبيحًا، بشعًا. ثم تشبَّث بفكرة سؤال: أهي حقّاً سكرى، أم تراها تزعم السكر؟ أتقول ما تقوله عن وعي، أم هو هذيان؟

ونظر إلى عينيها يستقرئهما، ولكنَّه لم يبلغ منهما معنًى، على اتّساعهما وجحوظهما. كأنَّهما لوحة سوداء لم ينجرّ عليها خطٌّ بعد. كأنَّهما كتاب مغلق لم تُفَضّ أوراقه.

ـ ما يدريك.. يا عزيزي.. أنَّ فتاة الأوبرا.. تلك.. ليست هي.. ضحية حبّ؟ ضحيّة رجل أحبَّته، ثم تركها.. ثم فقدت أملها.. في حبّه. ما يدرينا، يا عزيزي.. أنَّ ذلك الحب.. لم يكن رغيفها الذي تقتات به؟ ثم ملّت الشقاء، تعبت من البؤس.. فلم تجد.. إلاَّ.. أن تخنق ضميرها. ويومذاك هانت لديها الدنيا.. والسعادة.. والحبّ.. والرغيف.. وهكذا.. هكذا أصبحت فتاة ضائعة.

وانفجرت جانين بالبكاء، وسترت وجهها بيديها، وراحت تردّد بعصبيَّة:

ـ ضاعت.. هكذا.. هكذا أصبحت.. فتاة ضائعة!

❖

كان يحسب أنَّها ستسقط مغشيًا عليها بعد أن امتدّت كفّه إلى وجهها بتينك الصفعتين الشديدتين. ولكنَّها ظلّت متماسكة دون أن تقول شيئًا في الشارع الصامت. ولم يكن يحسب أنَّ الصفعة الثانية ستكون على هذه القوّة. لكأنَّها ذروة امتداد للصفعة الأولى. ولبث ينظر إليها، وقد أخذت تُمرّ يدها ببطء على خدّها. وإن هي إلاَّ لحظة، حتى انقصفتْ على وسطها، ثم إذا بها تقيء قيئًا كثيرًا في جانب الشارع. وأحسّ برشاش القيء على وجهه ويديه.

ومرَّت سيارة، بعد دقائق، فاستقلاّها إلى الفندق.

وأوصل جانين إلى غرفتها، وهو ممسك بذراعها في عناية، وترقّب حتى أغمضت عينيها، فأغلق الباب واتَّجه إلى غرفته القريبة.

ولم ينم تلك الليلة إلاَّ غرارًا.

وفي أثناء سهاده، كانت تُفغم أنفه، لحظة بعد، رائحةُ عطر ينسحب على ذيل ثوب أنيقٍ أسود، يتخطّر به جسمٌ ممشوق في شارع «الأوبرا»، وما تلبث أن تختلط بهذا العطر رائحةُ قيء، قذفته من جوفها فتاةٌ كانت تتشبَّث بذراعه في شارع «مونبارناس».

- ١٠ -

لم تأت جانين إلى محطَّة ليون لتوديعه، مساء غادر باريس إلى مرسيليا. وقد ظلَّ طوال يومه يترقَّب عودتها إلى الفندق الذي غادرته إلى عملها في الصباح الباكر، على عادتها. وكان موقنًا أنَّها لن تأتي، فقد وجد في علبة غرفته، في لوحة الفندق، ورقة مطويَّة قرأ عليها هذه الكلمات:

«حاولت عبثًا أن أنام بعد أن غادرتني قبيل الفجر، ومنّيت نفسي طويلاً بأن تعود إليّ لنقضي معًا هذه الساعات القليلة التي تسبق الفراق. ولكنَّك غرقتَ، أنت التَعِب، في نومٍ عميق عميق. ولقد ظللت دقائق أسمع صوت تنفُّسك عبر باب غرفتك. ولبثت طويلاً وأنا متردِّدة بين أن أطرق بابك وبين أن أعود إلى غرفتي. ثم عدت إلى غرفتي، لأبقى حتى الصباح، مفتوحة العينين أحدِّق في الظلام.

لا تنتظرني اليوم يا حبيبي، فلن آتي إلى المحطَّة لتوديعك. لا أريد أن أرى القطار وهو يتحرَّك بك إلى بعيد. ثم إنِّي أودّ أن أحتفظ بذكريات الليلة. أما أنت، فاسعد يا حبيبي العربيّ، في شرقك الحبيب. ـ جانين».

ولكنَّه ظلّ يمنِّي النفس بأن تعدل جانين عن عزمها على ألاَّ تراه قبيل سفره. وبقي نصف ساعة، في باحة الانتظار بالمحطَّة، يسمع صوت أصدقائه يحدِّثونه وهو معلَّق البصر بالمدخل. وقال له صبحي ذات لحظة:

- خيرٌ لك ألاَّ تأتي جانين.. وخيرٌ لها أيضًا! ألا تخشى، بعد أن نودِّعك، أن يتأبَّط أحدنا ذراعها، بحجَّة رغبته في مؤاساتها، ثم تتطوَّر الأمور، بحيث تحتاج أنت، بعد عودتك، إلى من يؤاسيك؟! فضحك وأجاب:

- لو كان أصدقائي هم فقط عدنان وفؤاد وأحمد وربيع.. لما كنت أخشى أن يحدث مثل هذا!

فشارك صبحي الأصدقاء في الضحك، ولكنَّه عاد يقول:

- أرى أنَّك لم تؤمن يا عزيزي بأنَّ صبحي الذي تحدِّثه الآن، هو غير صبحي الذي كنت تعرفه من قبل!

فعلَّق ربيع بقوله:

- لم نرَ حتى الآن مظاهر هذا التغيّر. فماذا فعلت مثلاً؟ هل أنت غارقٌ ليل نهار في المعاجم والقوانين؟ أم هل أصبحت تصلِّي الجمعة في مسجد باريس؟

فسارع صبحي يجيب:

- أما هذه، فقد تركناها لأخينا الشيخ عدنان! وهو يؤدِّيها عن جميع المثقَّفين العرب في فرنسا، لاسيَّما وأنَّ صلاة الجمعة، في بعض المذاهب فرض كفاية: إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر!

ومرَّت لحظات قبل أن يقول أحمد، موجِّهًا إليه الحديث:

- أمّا صديقنا المسافر فهو مضطرٌّ إلى أن يصوم ثلاثة أشهر الصيف.. وأنا لا أقصد طبعًا الصوم الدينيّ.. وإنَّنا كما نشكر أخانا عدنان على أنَّه يؤدِّي عنَّا الصلاة، فلا بدّ أن نشكر هذا المسكين لقيامه عنَّا بالصوم أيضًا!!

وضحك هو لفكرة الصوم هذه، ثم حالت ضحكته إلى بسمة حزينة: أتراه لن يشعر كذلك بالجوع إلى هذا الحبّ الذي ملأ روحه رضًى وحنانًا

وسموّاً؟ ألن يشتدّ حنينه إلى جانين، بعد أسابيع، حين يلتفت فلا يرى بسمتها العذبة، ولا شبابها الناضر النشوان، بل بعد يومين، حين يلتفت فلا يرى حوله إلاّ الأمواج المتلاطمة الزرقاء التي ستذكّره بلون عينيها؟

وانتشله فؤاد من خيالاته إذ قال:

ـ على أيّ حال إنَّ صديقنا يُرجى، وهو عائدٌ إلى لبنان، أن يحافظ على هدوئه المعهود، وعلى عدم بذل أيّ نشاط، في هذه الأشهر الثلاثة، قد يؤدّي إلى انقلاب عسكريّ!

فاتَّجه له أن يسارع بالجواب:

ـ إنَّ هذا الخوف لا محلَّ له أيُّها العزيز! فما دامت الطائفية قائمة في لبنان، فلن يحدث أيّ انقلاب عسكريّ، بل لن يحدث أيّ انقلاب مهما كان نوعه!

فضحك فؤاد، وأردف:

ـ ومع ذلك، فإنَّ هناك من يحارب الطائفيَّة في بلدكم وينسى لها هذا الفضل! ألا ما أقصر نظر هؤلاء!

وارتفع بعد لحظات صوت مكبِّر الصوت في المحطَّة، يُعلن أنَّ القطار المتَّجه إلى مرسيليا منطلق بعد دقيقتين، فيرجى من المسافرين فيه أن يلزموه.

وسارع هو يصعد إلى الحافلة التي حجز فيها مقعداً له، وكان قد حمل إليها أمتعته، ثم وقف على بابها يتطاول ويمدّ بصره نحو المدخل. وقد لاحظ أنَّ أصدقاءه يتهامسون فيما بينهم ويتبادلون البسمات. فلم يسعه إلاَّ أن يدخل، فيجلس في مقعده عند النافذة.

وإذ تحرَّك القطار، بدأ فؤاد وأحمد يلوِّحان له بيديهما. أما صبحي، فقد صاح وهو يكاد يهرول:

ـ لا تخش شيئًا! فلئن أتت جانين، فلن ترفض أن أصحبها إلى فندق «ليغران زوم» ما دامت طريقنا واحدة... اطمئن بالاً أيُّها العزيز!

ثم أتيح له أن يسمع صوت ربيع يصيح:

ـ إنَّ عدنان يرجوك أن تجلب له مسبحة!

ومضى القطار في زحفه، واسترخى هو في مقعده.ولم يلبث طويلاً حتى استولى عليه النوم، كأنَّما قد أرهقه طول الانتظار.

وأفاق في الليل لدى توقُّف القطار عند إحدى المحطات الصغيرة. لم تكن هناك غير سيِّدة عجوز، هرولت ثم صعدت إلى الحافلة الأماميَّة، وخلت المحطَّة من كل إنسان، وانقطع كلّ صوت. كانت المحطَّة كأنَّها مقبرة. ثم صفر القطار صفرتين، وجرى على مهل.

والتفت إلى خلف، إلى المحطَّة المقفرة، حتى اختفت عن عينيه. وأنت، ألم تقفر نفسك الآن، كهذه المحطَّة؟

وجالتْ في عينيه دمعة، إذ طافت بذهنه صور أولئك الذين خلَّفهم جميعًا: جانين وأصدقاؤه، وحتى تيريز خادمة الفندق.. وسرعان ما طافتْ بذهنه بعد ذلك صور أولئك الذين سيستقبلهم بعد حين، كأنَّما تيريز هي التي ذكَّرته أمه، فظلَّت الدمعة جائلة في عينيه...

❖

... إلى أن ذرفتها عيناه، حين أطلّ عليه، بعد سبعة أيام، «رأس بيروت»، أرض الوطن.

وظلّ ساعة، وهو يرى الشاطئ الذي سترسو عنده الباخرة، فلا يتبيَّن إلاَّ طيوفًا صغيرة، مختلفة الألوان، تهتزّ فوقها، بين حين وحين، نقطٌ بيضاء. ولم يعرف أنَّ ذلك الجمع الصغير الأبيض هو جمع أهله، إلاَّ حين أصبحت الباخرة على بُعدٍ يسير من الشاطئ.

وتقترب الوجوه منه رويدًا رويدًا، ثم ينبثق منها وجه أمّه الصغير العذب، بجبينه الذي بدأت التجاعيد تطمئنّ فيه، وشعره الذي اشتعل عند فوديه الشيب، وحجابه الرقيق الأسود الذي ارتفع فوق الجبين، وانعقد عند العنق. ويظلّ هذا الوجه الحبيب يكبر، وينمو، ملامح وتقاسيم هزيلة شاحبة، حزينة باكية، ويرتفع ويسمو، حتى يحتلّ الشاطئ، وكل شيء من ورائه ظلّ، ثم يملأ الأفق كلّه فلا ترى عيناه من دونه شيئًا.

ويكون هو أوّل وجه يعانقه ويقبّله ويدفن وجهه في عنقه، ويشاركه النشيج والتنهّدات والدموع. ثم تتثال عليه وجوه إخوته وأقربائه وأصدقائه.

ويسمع أمّه تقول له، وهو محوّط كتفيها بذراعيه، في طريقهما إلى السيّارة:

- ما شاء اللّه، ما شاء اللّه يا بنيّ. إنّ صحّتك لجيّدة ووجهك ناضر. أما أنا، فيا لي من مسكينة! ألا ترى كيف أهرم وأشيخ وأمشي إلى قبري بخطى حثيثة؟!

فيشدّها إليه ويغمرها من جديد بقبلاته وهو يتمتم:

- أطولُ العمر لكِ يا أمّي. دعيكِ من هذا الحديث. إنّك ستشفين عمّا قريب بإذن اللّه. وقد عُدت في الحقّ لأعنى بك وأسهر على صحّتك، ولن أتركك قبل أن تستردّي عافيّتك كلّها.

فتتمتم وهي تستعين بذراعه للصعود إلى السيّارة:

- رضي اللّه عنك يا بنيّ، وفرّحني بك عمّا قريب.

وتلتفت إليه أخته الكبرى هدى، فتربّت على كتفه وهي تقول:

- ما شاء اللّه! ألا ترون كتفيه كيف أصبحتا عريضتين، وصدره كيف امتلأ؟

فلا يتحرّج أخوه الأكبر من القول:

ـ كل هذا من كثرة الضمّ والعناق!

فينفجر سائر إخوته ضاحكين، بينا تحدث أمُّه بلسانها صوتًا متتابعًا، علامة الاستنكار والتعنيف.

وحين يبلغون البيت، ويدخل هو غرفته، فيجد فيها أشياءه القديمة كلّها، لم يكد شيء منها يُزاح من مكانه، يغمره شعور الارتياح وترتسم على شفتيه بسمة الرضى.

القسم الثالث

ـ ١ ـ

دخلت عليه أمّه الغرفة، أصيل اليوم الأوَّل من وصوله، وكان في سريره يأخذ لنفسه بعض الراحة من عناء السفر، وكانت واضعة يدها خلف ظهرها كأنَّها تخفي شيئًا، فأقبلت عليه تعانقه من جديد، وتعبِّر عن سعادتها الغامرة بعودته، ثم مدَّت له يدها، وهي تقتعد حافة السرير:

ـ هذه بطاقة لك وصلت أمس الأول.

وخفق قلبه إذ تناولها منها ورأى عليها صورة «البانتيون». ثم قلبها وقرأ:

«أكتب إليك هذه البطاقة من غرفتي، وأنا أتمثَّل القطار ماضيًا بك إلى مرسيليا. ومع ذلك، فأنت هنا قريب منِّي، أسمعك في غرفتك تروح وتجيء، وتدمدم بعض أنغامك الشرقيَّة الحزينة الرتيبة. ستظلّ أبدًا معي، في غرفتك، ولو شغلها سواك. أما أنا، فأحسب أنِّي سأسهر الليلة طويلاً لأكتب في مذكراتي. وقد يُتاح لك يومًا أن تقرأ في هذه المذكّرات. طابت ليلتك، وإلى اللقاء في رسالة مطوّلة. ـ جانين».

ـ مَنْ هي جانين هذه، يا ولدي؟

ـ ولوى رأسه لصوت أمه، وأحسّ بعض الغمّ. لقد قرأت البطاقة إذن (وكانت أمّه تلمّ بالفرنسيَّة). ولكن لعلّ الخطأ خطأ جانين، إذ أرسلتها بطاقة مفتوحة. على أنَّ لها غاية في ذلك. البانتيون العظيم، هذا الذي

رعى حبَّهما، والذي كانت غرفته تطلّ عليه.. ومع ذلك، أما كان يحسن بأمّه..

- لم تُجبني يا حبيبي. من تراها تكون جانين هذه؟

- آه.. عفوًا يا أمّي. شردت قليلاً.. جانين، نعم.. إنَّها.. إنَّها زميلة في السوربون.

وأتى السؤال الثاني سريعًا:

- وهل تسكن معك، في فندق واحد؟

- لا.. أقصد.. نعم.. إنَّها في فندقي..

قالت أمّه في هدوء يثير الحنق:

- الظاهر أنَّه ليس لها أهل؟

فأجاب، وهو يكظم ثورة أخذت بصدره:

- كيف لا يكون لها أهل يا أمّي؟ كلّ ما في الأمر أنَّهم ليسوا في باريس.

وأحسّ بأنَّ لهجته قد صدمت أمّه، فمدّ ذراعيه يجذبها إليه:

لنترك باريس وأهل باريس.. أريد أن أعيش معكم الآن، معك أنت يا أمِّي.. حدِّثيني.

قالت وقد ارتسمت على وجهها خيبة:

- عفوك يا بنيّ.. أنا لم أشأ أن أزعجك، ولم يمض على وصولك ساعات... عفوك يا حبيبي.

وأخذا يتحدَّثان بعد ذلك في شؤون البيت وأخبار الأقارب والأصدقاء. وانشرح صدره لأنباء نجاح أخته وأخيه الأصغرين في المدرسة، وقرب خطبة أخته الوسطى لشابّ ينتمي إلى أسرة محترمة، ولكنَّه شعر

ببعض الانقباض للتأخُّر المادي الذي يُصاب به متجر أخويه الكبيرين. وقد قرأ على قسمات أمّه الأسى لذلك، وسمعها تحدِّثه عن الضيق الذي يعانونه منذ أشهر، وتعبِّر عن حزنها من أنَّهم لن يتمكَّنوا هذا العام من ارتياد المصيف على مألوف عادتهم. وقد رأى من واجبه أن يخفِّف عن أمِّه، فأخذ يؤمِّلها بالمستقبل القريب.

- لا بأس عليكم يا أمِّي. سوف أتنازل للبيت عن قسم من منحة التخصُّص التي سأتسلَّم القسط الأوَّل منها في أواخر هذا الصيف، وكذلك تقتطعون جزءًا آخر من القسط الثاني في أواخر الشتاء، ولعلّ ذلك يفرِّج بعض ضيقكم..

وصمت وهو يستمع إلى أمِّه تدعو له برضى اللَّه، ثم أردف:

- ولن تطول غيبتي كثيرًا يا أمِّي. إنَّهما عامان مدرسيَّان ينقضيان سريعًا، كما انقضى هذا العام..

ورآها تقاطعه فجأة، وقد بدا الجزع في عينيها:

- تقول إنَّهما عامان؟ ولكن.. كان العهد يا بنيّ أنَّه يبقى لك عام واحد تقضيه في الغربة! وسرعان ما ترقرقت الدموع في عينيها، وأخذت تعاتبه وتتَّهمه بأنَّ حبَّه لهم قد خبا، وأنَّ بلاده باتت لا ترضيه، وأنَّ الغرب قد سلبهم إيَّاه.. الغرب ونساؤه وفتياته وطالباته..

وراح يبذل جهدًا كبيرًا لتهدئتها وإزالة هذه الأوهام من رأسها وإقناعها بأنَّ بقاءه هذا العام الثالث الذي لم يكن مقدَّرًا، إنَّما فُرض عليه فرضًا من قبل أساتذته الذين يشرفون على رسالته، والذين يعتقدون أنَّ إنجازها، وهو ما زال الآن في فصولها الأولى، لن يتمّ بأقلّ من عامين بعد..

وقد رأى أنَّ في فم أمّه كلامًا كثيرًا، ولكنَّ أخته أقبلت تؤذنهما في تلك اللَّحظة أنَّ بعض أقربائهم أقبلوا يزورونه، فمضت أمّه لاستقبالهم

بينما انشغل هو بارتداء ثيابه. وقد شعر، إذ هو يجيل بصره فيما حوله، أنَّ غرفته أضيق ممَّا كان يعرف، وأنَّها تورث صدره بعض الانقباض.

❖

- إذن فقد نجحت «ناهدة» في البكالوريا هذه الدورة.. أكرِّر لك تهانئي يا ناهدة، والعقبى لشهادة الفلسفة.. وبعدها لشهادة.. أيّ فرعٍ تنوين أن تتخصَّصي فيه؟

فقلبت ناهدة شفتها السفلى ولم تجب.

- كيف؟ ألا تعرفين؟ أهو حقوق، أم الطبّ، أم..

وكانت أمّها هي التي أجابت:

- ليس في النيّة أن تتمّ ناهدة التخصُّص..

ويكاد يقاطع أمّها ليسألها: «ليس في نيَّة مَنْ؟ نيَّتها هي أم نيَّتكم أنتم؟» ولكنَّه حبس سؤاله إذ رأى الفتاة لا تحرِّك ساكنًا، كأنَّ الأمر لا يعنيها. واستطردت أمّها:

- وما جدوى أن تمضي في التخصُّص العالي؟ إنَّها لن تصبح محامية، ولا طبيبة، ولا كاتبة.

وشعر بأنَّه يجهد لحبس بضعة أسئلة أخرى تجول في حلقه. ثم انتهت أمّها إلى القول وهي تضحك:

- غدًا يأتيها ابن الحلال، وقد آن لذلك الأوان!

ولاحظ هو احمرارًا يصبغ وجنتي ناهدة، ثم سمعها تسأله، كأنَّما لتخفي خجلها واضطرابها:

- وأنت، أين وصلت في رسالتك عن الشعر العربي؟

- ما زلت في فصولها الأولى.

ـ وهل سيقتضيك إنجازها وقتًا طويلاً؟

فنفرت أمّه تجيب عنه:

ـ يقول إنَّه ما زال يحتاج إلى عامين.. أتسمعون ما يقوله العاقّ؟

وبدت على وجه أمّه غمامة من الأسى. وكأنَّما لحظت الخيبة التي كست قسمات أمّ ناهدة، فاستدركت تقول:

ـ ولكنّي لن أدعه يبقى عامين.. وإذا أصرّ على ذلك، فلن أتركه يذهب في الخريف!

فضحك هو ضحكة هادئة، وقال:

ـ كما تشائين يا أمّي.. لن أقوم إلاَّ بما يرضيكِ!

وأحسّ بعض الضيق لاضطراره إلى هذه المجاملة. ثم ساد الجميع الصمت. وقد شعر بجناحيه، هذا الصمت، يرفَّان فوق تلك الرؤوس التي يجول في كلّ منها فكرٌ مختلف. ثم قطعت أمّه السكون مرة أخرى:

ـ لماذا لا تنهض إلى غرفتك، فتري ناهدة هذه الكتب الكثيرة التي جلبتها معك؟ لا شكّ في أنَّها تحبّ أن تقرأ بعضها.

ثم التفتت إلى ناهدة، تومئ لها برأسها مشجّعةً إيَّاها على النهوض. ولم يسعه هو إلاَّ أن يقوم، على عدم رغبته، وقد شعر بمزيج من الحنق والخجل إذ رأى ناهدة تتردَّد طويلاً في النهوض وهي تنظر إلى أمّها. وحين انفتل متَّجهًا إلى غرفته، سمع صوت أمّه يقول:

ـ اتبعيه يا ناهدة. لقد أخبرني أنَّه يحتفظ لك بهديَّة!

وكاد يرتدّ مذعورًا، لولا أنَّه سمع خلفه وقع خطى ناهدة. ودخل غرفته وهو يشعر بأنَّه يوشك أن ينفجر غيظًا. لِمَ أحرجتني يا أمي هذا الإحراج؟ بل لِمَ تزعمين أنّي..

وكان ينظر بلا وعي إلى ركام الكتب في زاوية غرفته حين قالت له ناهدة:

ـ لا تصدِّق أنَّه ليس في نيَّتي أن أتمّ تخصُّصي..

فالتفت إليها التفاتة كان يحرص على ألاَّ يظهر عليها طابع الاهتمام. ثم صرف نظره إلى كتبه وهو يسألها:

ـ لِمَ لَمْ تقولي ذلك إذن؟

فأجابت وهي تغضي ببصرها:

ألم ترهما، أبي وأمّي، كيف كانا ينظران إليّ؟

وصمتا برهة، ثم خشي أن تقول شيئًا، أيّ شيء، فسارع يقول:

ـ أيّ نوع من الكتب..

ولكنَّ كلامه اختلط بكلامها:

ـ إذا كنت تريد..

والتقت أعينهما إذ أحسّ كلّ منهما بأنَّه يقاطع الآخر. ثم رآها تتراجع فجأة وفي عينيها أثر من خوف، كأنَّما شعرت بأنَّها قريبة إليه قربًا لم تكن تقدِّره. ولا يدري أيَّ عالم انفتح له في هذه الخطوة المتراجعة: لقد رأى الفتاة الشرقيَّة، الفتاة العربيَّة، تتراجع أمام الشابّ، أيّ شاب، عربيّاً كان أم أجنبيّاً، أمام «الرجل»، وعيناها طافحتان بالخوف منه، رواسب من الخوف تجمَّعت أجيالاً في هذه الخطوة.

ولم تكن هذه ظاهرة جديدة تتكشَّف له. إنَّه يعرفها منذ حين، منذ غادر وطنه إلى باريس، ولكنَّها الآن تبدو له في ذروة تكشُّفها وغاية انحسارها. وقد ظلَّ برهة طويلة ينظر إلى ناهدة، فلا يراها هي، وإنَّما يرى آلافًا وآلافًا من هاتيك العربيات المنتشرات في أرجاء الوطن الكبير، يقيم

الحذر بينهن وبين الرجل حواجز صفيقة يستحيل معها كلّ تعاون مثمر وكلّ مشاركة مجدية.

ثم مسح على عينيه، كأنَّما لينحي هذه الرؤية، وألقى نظرة أخرى على ناهدة، فإذا هي تنتصب الآن أمامه جسدًا، وإذا هو موقنٌ بأنَّ سرّ ذلك الخوف، إنَّما هو كامنٌ في هذا الجسد.

لقد تراجعت ناهدة، لا لشعورها بأنَّها هي كإنسانة، قريبة منه هذا القرب الذي لم تكن تقدِّره، وإنَّما لشعورها بأنَّها هي كذلك، كجسد. ولقد تعلَّمت أن تقدِّس هذا الجسد، لا تقديس حبّ وعبادة، وإنَّما تقديس خوفٍ وحذر. إنَّه مستودع عواطف ونزوات، ومخزن مشاعر وشهوات، حُكم عليها بأن تكبتها وتعيش في تآكُّلها، لأنَّه حرّم عليها أن تعيشها كما هي، وأن تعانيها كما تتيحها لها، بل كما تقتضيها طبيعتها، طبيعة البشر. هكذا خافت جسدها، هذا الذي ينبض بتلك المشاعر والشهوات المحرَّمة، وهكذا انتقل خوفها من جسدها، إلى كل من يحاول أن يثير هذا المستودع، ويفجِّر فيه كوامنه المقدَّسة. كذلك أصبحت المرأة العربيَّة، تخاف الرجل، تخاف الكائن الذي ينبغي أن تثق به، لأنَّها تخاف الجسد الذي ينبغي لها أن تحبّه.

وقفزت إلى ذهنه صورٌ كبيرة، بعيدة، لم يَلْقَ كبير جهد في تقريبها وتجسيمها. صور نساء عرفهن بشرًا أناسيّ، لا يخشيْن أجسادهنَّ لأنَّهنَّ لا يُقدِّسن كبت نوازعها، ولأنَّهنَّ يشعرن بأنَّهنَّ شيء آخر غير جسدهنّ.

لقد كَرِه حقًّا بعض هذه الأجساد. لعلّةٍ فيها، أو لعلّةٍ فيه هو. ولكن جانين، ألم يحبّ روحها عبر جسدها، وجسدَها عَبْر روحها؟ تلك كانت تعرف قيمة الروح، لأنَّها كانت تعرف قيمة الجسد.

ورأى الكتب أمامه، فنظر إليها، ومدَّ ذراعه فنثر بعضها على الأرض، وأجال بصره في عناوينها.

ـ أيّ نوع من الكتب تفضّلين؟..

وعَجِبَ أنَّه لم يستطع أن ينطق باسم ناهدة مع هذه العبارة، على رغبته في بث روحٍ من الودّ في سؤاله إيّاها. ورآها تقترب من الكتب، لا منه، ما يزال في حركاتها الحذر. ولم يستطع إلاَّ أن يتساءل: ولكن لِمَ هذا كلّه؟ لقد سبق أن راقصتها، ناهدة، ومسّ جسمي جسمها في رقصتنا تلك الأخيرة، منذ أقل من عام، فلماذا؟ أم تُراه يكون حسّ الطهارة لديها يستيقظ عنيفًا إزاء هذا الشابّ الذي هصرت ذراعاه هناك، في العاصمة الحمراء، أجسامًا كثيرة، كلّها، في رأيها، لا تملك حسّ الطهارة؟ وإذن، أليس جديرًا بذراعيه تينك، بجسمه ذاك، أن يوحي لها بالتحفُّظ والاجتناب والحذر؟..

وقالت له بغتة:

ـ أهكذا تغيِّرك باريس علينا؟ حتى ولا رسالة واحدة؟ وإنَّما مرتين أو ثلاثًا، في رسائلك الأولى، سألتَ عنِّي سؤالاً صغيرًا؟

وشعر بالارتباك:

ـ ذلك أنَّني.. شُغلت كثيرًا.. في الأشهر الأخيرة.. مصادر رسالتي..

ثم أضاف بسرعة يسألها:

ـ أيّ نوع من الكتب تحبِّين؟

ـ أنا؟.. أوه.. لست أدري.. اخترْ لي ما تشاء..

وذكر أنَّ أمّه وعدتها بهديَّة منه.. ووقع تحت يده ديوان «أنت وأنا» لجيرالدي، فقال في نفسه إنَّ ذلك يروق لها. ولكنَّه سرعان ما عدل، بل هو قد انحنى ليخفي هذا الكتاب بآخر. قصائد غرام؟ لا بدّ أن تفسِّر ذلك على غير ما أقصد.

ـ كنت أسألك، في شأن متابعة التخصُّص.. هل تريد أن أمضي فيه؟

فنظر إليها دَهِشًا، أو مصطنعًا الدهشة:

ـ أنا؟ وأيّ شيء في ذلك يعنيني؟

ورأى الألم يسيل على تقاطيعها فأردف:

ـ أقصد.. إنَّ الأمر يتعلَّق برغبتكِ أنتِ بالذات. فإن كانت نفسك تنازعك، فلا تتردَّدي..

وظلَّت على صمتها. وكان قد قلّب عددًا من الكتب.

ـ خذي هذا.. أتحبِّين المسرحيَّة؟ إنَّه مجموعة «مسرحيات سارتر». قد تجدين في فهمها بعض الصعوبة، ولكن حاولي..

وذكر فجأة ليلة حضر من هذه المسرحيات مسرحية «الذباب». كانت بصحبته ليلتذاك جانين. وقد غمضت عليه بعض المواقف، فجلتها له جانين. أترى ناهدة؟..

وسمعها تقرأ عناوين المسرحيات:

«الذباب»، «جلسة سريَّة»، «موتى بلا قبور»...

وتوقَّفت عند اسم المسرحيَّة الرابعة، ثم سألته:

ـ ما معنى Putain؟

فأجاب دون أن يحوِّل إليها نظره:

ـ مومس، بغيّ...

فانتفضت ناهدة، ثم قالت وهي تمدّ إليه يدها بالكتاب:

ـ لا، أرجوك.. أعطني سواه.. ما عسى والدي يقول إذا رأى هذا العنوان، وإذا رأى أنَّ هذا هو أيضًا الكتاب الذي أهديته إليّ؟

فلبث لحظات لا يقول كلمة، ثم خشي على أسنانه من فرط الصرير، فقال:

ـ كما تشائين.. إذن اختاري لكِ أيّ كتاب يعجبك!

فقالت ناهدة وهي تتراجع مسرعة إلى الباب:

ـ ... ليس الآن. دعْ ذلك إلى مرّة أخرى. أو انتخب لي كتابًا آخر.. لقد تأخَّرنا هنا في الغرفة.. وحدنا.. أخشى أن..

وخرجت من الغرفة، وكأنَّها تعدو..

ـ ٢ ـ

«باريس، ٢٧ حزيران

«أحاول منذ يومين أن أخرج إلى دنيا الناس، مع أنِّي أعيش بينهم، فتذهب محاولتي عبثًا، إذ أسقط من جديد في دنيا حبِّي. وكثيرًا ما أفتح باب غرفتي، في المساء، وألبث ردحًا، وأنا أنظر إلى باب غرفتك، فأخال كلّ لحظة أنَّه سينشقّ، فتبرز أنت منه باسمًا لي. حتى إذا مللتُ الانتظار، عدتُ إلى مكتبي. وها هو ديوانك الشعريّ بين يديّ، ألامسه وأقلّب صفحاته، وأنا لا أفهم شيئًا من حروفه المعوجَّة الممتدّة، الصاعدة الهابطة. كم كنتَ أنانيّاً يا عزيزي حين لم تفكّر بأن تعلّمني لغتكم هذه المعقَّدة. أما كنت تتيح لي بذلك أن يذهب بعض عدائي لهذه الحروف المخيفة؟ أما كنتُ الآن أقرأ، بصعوبة كبيرة دون ريب، تلك القصيدة التي ترجمتها لي لأوَّل مرَّة؟ ما أسعدك الآن بين أهلك وذويك! لا بُدّ أن يكونوا هم أيضًا سعداء بك، ولاسيَّما أمّك الصغيرة، وبهذه المناسبة تبعث لك تيريز بتحيَّتها. لا أدري لماذا يشتدّ تعلُّقي بهذه الخادمة الأمينة. أصبحت لا أجد في حديثها التفاهة السابقة. كثيرًا ما تحدّثني عنك، فأصغي إليها وفي نفسي خشيةٌ من أن ينتهي حديثها. أعطيتها أمس مئتي فرنك، فعلَّقت قائلة «لقد أصابك ذلك العربيّ بعدوى الكرم!» أصحيح أنَّك أكرم منِّي؟

«تهمك بعض أنبائي؟ إنَّني أنام باكرًا كلَّ يوم تقريبًا. وأين تريدني أن أذهب؟ إنَّ كلّ خطوة تكلِّفني هنا مبلغًا لا أستطيع الآن أن أهدره.. أمس الأول، كنتِ واقفة عند بابي، ففُتح باب غرفتك وخرج منها المستأجر الجديد. وقد ابتسم لي إذ رآني، فصرفت عنه نظري بكلّ تهذيب، ودخلت غرفتي. يبدو أنَّه طالب إيرانيّ. أما في المساء، حين أعود من عملي، فإنِّي أشعر بالضجر قبل أن تحين ساعة النوم. ولذلك قرَّرت أن أعود إلى دروس الصحافة التي تركتها. ولعلّ بوسعي أن أنجح في الشهادة، في دورة تشرين القادم. ما زالت رغبتي شديدة للعمل في الصحافة، وما زلت زاهدة في المضيّ بعملي الحاليّ. سأبذل كلّ جهد أستطيعه، دون أن أرهق صحَّتي، للفوز بتلك الشهادة.

«أتتني اليوم رسالة من أبي في الألزاس. رسالة رقيقة تتناقض واللَّهجة التي ودّعوني بها يوم ودَّعوني. إنَّه يطلب إليّ فيها أن أعود، إنَّ هنري يزورهم كلَّ يوم ويتحدَّث عن استعداده للزواج منِّي. الغبيّ! تعلم أنَّ ذلك ماضٍ نسيته، وما كان لي أن أحبيه، حتى ولو لم أعرفك. ما لنا ولهذا الحديث الذي لا جدوى فيه.

«انقطعت عن ارتياد «لوي لوغران» منذ أيَّام. لا أدري لماذا. كأنَّه شعور بالخوف من أن ألقى أصدقاءك. طبعًا! إنَّني أكنّ لهم الودّ جميعًا. ولكن لا أستطيع أن أجالسهم وحدي. لو كنت موقنة بأنَّني لن ألقى غير فؤاد، لما تردَّدت. إنَّني أشعر له بثقة غريبة. وعلى أيّ حال، ينبغي لي أن أقهر هذا الإحساس بالتهيُّب منهم. فأنا أولاً لا أستطيع أن أتناول طعامي دائمًا في المطاعم، وثانيًا.. إنَّهم جميعهم يذكِّرونني بك خيرًا مما تذكّرني بك الوحدة. أعتقد أنَّني سأعود منذ الغد إلى ارتياد مطعم الطلاّب.

«أطلت عليك يا حبيبي. أعرف أنَّ هذا لا يزعجك. ولكن لديك واجبات كثيرة أخرى. سأتمّ هذه الرسالة في مذكّراتي، ولا أدري ما أفعل إن

لم أستمرّ في الكتابة. هل لك أن ترسل إليّ ترجمة لقصيدة «الحرمان»؟ ألا تراه، هذا الحرمان، بين شفتيّ المطبوعتين تحت هذه الكلمات؟ ـ جانين»

❖

«باريس ٣٠ حزيران

«لم أرد أن أكتب لك قبل اليوم، انتظارًا لرسالة منك. أما وعدت أن تكتب لي من البحر، من أحد المرافئ التي ترسو عندها الباخرة؟

«تناولت العشاء أمس في «لوي لوغران». وقد رحَّب بي الأصدقاء، وأظهروا لي لطفًا نبيلاً. وروى لي صبحي ما قالوه لك بينما كنتَ في انتظاري، ليلة سفرك بالقطار إلى مرسيليا، فضحكت كثيرًا، وقلت لصبحي: «إنَّني مستعدّة للخروج معك، إذا لم تَرِدْني بعد أيام رسالةٌ من ذلك المسافر البعيد». أُكتبْ لي يا حبيبي. إنَّني أذوب شوقًا إلى حديثك. وليلة أمس أيضًا، دعاني فؤاد وفرانسواز لمرافقتهما إلى حفلة موسيقيَّة في قاعة «بلايل»، فقضيت ساعتين ممتعتين حلَّقت فيهما على أجنحة نابضة من موسيقى شتراوس وتشايكوفسكي ودوبسي. وقد تنبَّهت ذات لحظة على صوت فؤاد، وهو يقول لي ضاحكًا: «أنتِ مخطئة يا جانين، فهذي يدي، وليست يد صاحبنا!» وتملَّكني الخجل وأنا أرى كفِّي على كفّ صديقك.. وقد ضحكت فرانسواز، هي أيضًا، وعلَّقت بقولها: «لولا ما أعرفه من حبّك لصاحبنا، ومن حبّ فؤاد لي، لما انتهت القضيَّة من غير حادث مؤسف!» متى، يا حبيبي، أضمّ يدك وأنت إلى جانبي، وعيوننا شاخصةٌ إلى المسرح؟

«أمس الأول لم أعد إلى الفندق طوال النهار، وقد بتّ ليلتي في فندق آخر في «روديزيكول». ذلك أنِّي تلقَّيت في الصباح الباكر برقية بتوقيع «هنري» ينبئني فيها أنَّه قادم إلى باريس، بعد ظهر ذلك اليوم، ويرجوني أن أنتظره. أيّ أمل يرجوه ذلك الساذج بعد؟ ولقد عدت إلى فندقنا ظهر اليوم التالي أي أمس، قبل ذهابي إلى المطعم، فأبلغني صاحب

الفندق أنَّ شابًا انتظرني أمس حتى الساعة الحادية عشرة، ثم عاد صباح اليوم التالي فجلس في الباحة ساعتين وعزم أخيرًا على الذهاب. وحين سأله إن كان لديه ما يودّ أن يقوله للآنسة جانين، اكتفى بأن أجاب: «لا، لا فائدة. لقد فهمت».. وهكذا ترى يا عزيزي أنَّ هنري يتمتّع على الأقل بنعمة الفطنة والذكاء!

«أكتب إليك هذه الرسالة والساعة الآن تتجاوز السابعة، والجوّ ما يزال حارًا، وإن كانت قد حدَّت من حرارته رطوبة المساء. بودِّي أن أسبح، ولعلَّني أقصد غدًا أحد مسابح السين فأقضي فيه شطرًا من يومي، وغدًا هو الأحد، ألا تعتقد أنَّ هذا ينسيني أنَّ اليوم هو يوم كنت أقضيه بطوله معك؟ إنَّني منذ الآن أحسّ بأنَّه لن ينتهي.

«أنظر الآن، وأنا أخطّ هذه الكلمات، إلى هذين الأعرابيين اللذين يدخِّنان ما تدعونه «النارجيلة» فيستخفّني الحنين إلى الشرق والصحراء والجمال.. أترى يتاح لي يومًا أن أشاهد تلك الرمال؟

«إنَّني جادَّة في دروس الصحافة، وأنا أطالع كثيرًا من الصحف اليوميَّة. وجميع الصحف مهتَّمَّة الآن بأنباء الاضطرابات في أفريقيا الشماليَّة. وأصارحك القول، بهذه المناسبة، إنِّي لا أستطيع أن أفهم سياسة القمع والإرهاب التي تسلكها حكومتنا هناك. وليس هذا هو رأي صديقتنا فرانسواز. فقد ناقشنا طرفًا من هذا الموضوع في فترة الاستراحة بالحفلة الموسيقيَّة أمس، وكان فؤاد قد خرج من القاعة، وحين عاد إلى مقعده بيننا، لاحظت أنَّ فرانسواز قد جنحت بالحديث إلى موضوع آخر.

«عمّ تريد أن أحدِّثك بعد؟ حسبي هذه الليلة. وثق يا حبيبي أنَّني لن أكتب إليك بعد أبدًا، ما لم تردني منك رسالة! فإلى اللقاء في رسالة منك أيُّها العربيّ القاسي. ـ جانين.

ملاحظة: لا تصدّق ما قلته لك أعلاه. فهل تراني أستطيع ألاّ أكتب إليك، إلاَّ إذا كتبت إليّ؟ إنّني منذ الآن بدأت أفكّر بالرسالة القادمة التي سأبعثها إليك!»

❖

باريس ٢ تموز.

«ما زلت حتى الآن في نشوة من رسالتك الحلوة. إنَّ فيها نكهة لذيذة، كيف أصفها؟ إنّها كنكهة القهوة التركيَّة التي كنت تسقيني إيَّاها، والتي أعجز كل العجز عن صنع مثلها، بما تركته لي من البنّ المجلوب من وطنك. حاولت مرَّات كثيرة، فأخفقت. كنت أشرب أحيانًا بنّاً كثيفًا يرسو على لساني فألفظه بكزازة، وأحيانًا أخرى ماءً مصبوغًا ليس فيه إلاَّ الحلاوة. أقسم إنَّك لأنانيّ. كنت ترفض أن تقول لي كم ملعقة بنّ تضع، وكم ملعقة سكّر، وكم فنجان ماء! عرفتَ كلّ أسراري، وكنت ترفض أن تكشف لي هذا السرّ التافه!

«عفوك يا حبيبي! بدأت بالتحدُّث عن رسالتك فجذبتني نكهة قهوتك. أصحيح ما تقوله من أنَّك بدأت تشعر بالضيق في وطنك، ولمَّا يمض على وصولك إليه أكثر من أسبوع؟ لا.. إنَّ هذه لأوهام. أنا أعلم أنَّك لست كهؤلاء الشبّان الضائعين الذين تقطَّعت الأسباب بينهم وبين ذويهم ومجتمعهم. وقد أدركت من أحاديثك أنَّ صلتك بأسرتك، بأمِّك وإخوتك وأقربائك، أشدّ من أن توهنها نزعات عارضة وأشواق جديدة. وأحسب أنَّها أيام قليلة، ثم يعود أنسك بوطنك وذويك. لقد شعرت أنا نفسي بمثل هذه الغربة يوم تركت الألزاس، فظللت أسابيع قلقة، ثم استقرّ بي المقام. ولا بدّ أنَّ ما كنت تتنويه من مراجعة مصادر بحثك وانكبابك على كتبك، سينسيك هذا الذي تحسّه من ضيق، لاسيَّما إذا قصدت المصيف كما أخبرتني.

«وأنا كذلك شديدة الانصراف إلى الصحافة، وكلّ أملي أن أستوعب المادَّة المطلوبة في فترة الصيف هذه، وإنَّ عندي بعد قليل موعدًا مع فرانسوا ز في المكتبة التي تعمل فيها، لتطلعني على بعض الكتب الهامَّة في تاريخ الصحافة. ولا أخفي عليك، بهذه المناسبة، أنِّي اتَّصلت من جديد بسكرتير معهد الصحافة، وأطلعته على «ريبورتاج» صغير عنَّ لي أن أكتبه عن معرض فني أقيم هذا الأسبوع لآثار المصوِّرين الكاريكاتوريين في باريس، فشجَّعني على هذا اللون من الكتابة، ونصحني بأن أطالع كثيرًا لتستقيم لغتي وتنجو من الخطأ. ومع سروري بتشجيعه، أُصبتُ ببعض الخيبة من نصيحته!

«سمعت أمس نبأ آلمني في «لوي لوغران». فقد أخبرني عدنان أنَّ الشرطة قد قبضت على ربيع، وأوسعته ضربًا، في المظاهرة التي قام بها طلاَّب أفريقيا الشماليَّة احتجاجًا على سياسة التعسُّف التي تخضع لها أوطانهم. وأضاف عدنان أنَّ أحمد قد رأى الحادث بعينه من شرفة الفندق الذي يسكنه مع بعض رفاقه العراقيِّين، فاستولى عليه شعور نقمة وغيظ بلغ من الشدّة بحيث دفعه إلى هبوط السلّم بسرعة مجنونة، كأنَّما يودّ أن ينقذ صديقه التونسيّ. ولولا أن لحق به أحد رفاقه وأمسكه دون الخروج، لأصيب هو أيضًا بهراوات الشرطة، بل ولسيق إلى السجن. لقد ظللنا جميعًا، عند تناول العشاء أمس، صامتين نكاد لا نتحدَّث بشيء. ولم أشعر يا عزيزي بأيّ إحساس غريب يفصلني عن أصدقائك. إنَّني مثلهم أخجل ممّا تأتيه حكومتنا من أعمال لا تقرّها المبادئ التي تعلَّمناها من تاريخنا في الحريَّة والديموقراطيَّة.

«وساءني أن أعلم أيضًا أنَّ مطعم «لوي لوغران» مغلق أبوابه بعد ثلاثة أيام بمناسبة العطلة الصيفيَّة. وليس الذي يؤلمني في ذلك، أنَّني سأشعر بضيق من البحث عن مطعم رخيص طوال هذا الصيف، بقدر

شعوري بأن شمل الأصدقاء سينفرط، فلا يجتمعون بعد إلاَّ بالمصادفة، ما دامت غرفهم متباعدة. ولعلّ ربيع العزيز هو أوَّل حبة انفرطت من هذا العقد.

«لقد سألني فؤاد عنك أكثر من مرّة، ولعلّه عاتبٌ عليك أنَّك لم تكتب إليه. وما أدري إذا كان عتبه قد زال حين أخبرته أنَّك لا تكتب حتى إليّ (ذلك قبل أن تصلني رسالتك الحبيبة).

«بودّي يا عزيزي أن أطيل لك هذه الرسالة، لولا خشيتي من أن يفوتني الموعد الذي ضربته مع فرانسواز، فهي الآن تترقَّب مجيئي إلى مكتبتها، فسامحني إن قطعت رسالتي هذه التي سأودعها البريد في هذه اللحظة، وصدّقني أنّي لن أعود إلى مثلها.. وهاهما شفتاي مطبوعتان. يقيناً ستتضاعف ميزانيَّتي هذا الشهر من الإنفاق على أحمر الشفاه!

جانين»

ـ ٣ ـ

ـ أراك شـــاردًا لا تولي الورق أيّ اهـتـمـام.. ألا تـرى أنَّه خـيـرٌ لنا أن ننهض فنمشي قليلاً في اتِّجاه «فاريا»؟..

ـ كما تشائين.

ونهضا. إنَّ أختك تعلم ما في نفسك، ولكنَّها لا تجرؤ على مفاتحتك.

ـ هل هي جميلة؟

فالتفت إليها مبغوتًا:

ـ مَنْ هي؟

وابتسمت أخته:

ـ تلك التي تفكِّر بها طوال الوقت.. جانين!

لقـد قـرأت البطاقـة هـي أيضًـا، أو لـعلّ أمّـه قـد روت لهـا؟ وأحسّ ببعض الامتعاض. ولكنَّه مـا لبث أن نظـر إلى أختـه بودّ. إنَّه يحبّها ويعتقد أنَّها تحبُّه وتفهمه. وإنَّه ليشعر برغبة في أن يحدِّثها، أن ينفض إليها ذاته. إنَّه يكاد يختنق منذ أسبوعين. لكأنَّه أصبح وهو في بيته، بين أمّه وإخوته، غـريبًا لا يحسّ الأنس والقـربى. وقـد شعـروا هم، بوحشـة روحـه، فلزمـوا الصمت فيما ظلَّت أعينهم تتساءل. ولا بدَّ أنَّهم أدركوا يومًا ما يعانيه، فقد هتف به أخوه الأكبر ذات مساء، وكانوا على المائدة:

ـ أوه.. كلُّها شهران أو ثلاثة، ثم تعود إلى أحضان باريس!

وكاد يحمرّ وجهه حين فكَّر أنَّه كان بوسع أخيه أن يقول «إلى أحضان جانين». ولم يَرَ من الخير أن يظلّ على صمته، فضحك وقال إنَّهم لا يفهمونه. فليست باريس، ولا من في باريس، هم الذين يشغلون فكره، وإنَّما هي بعض فصول رسالته، يستعصي عليه ترتيبها وتأليفها. وقد أيقن أنَّهم لم يصدِّقوه إذ تبادلوا فيما بينهم نظرات باسمة. ثم سأل أمّه رأيها في أن يقصد الجبل فيقضي فيه أيامًا يحاول أن يدفع رسالته دفعةً جديدة. ويتجنَّب هذا الحرّ القاتل الذي تلتهب به بيروت. وقد أقرَّته أمّه من غير تردُّد. ونصحته بأن يقصد قرية «ميروبا» الجميلة في قضاء كسروان. وإذ ذاك سألته أخته هدى، وكانت تصغره بأربعة أعوام، إن كان لا يزعجه أن تصحبه، فإنَّ التدريس قد أرهقها طوال العام، وهي تترقّب فرصة كهذه تلتمس فيها بعض التفريج. وقد سرَّه أن تبادره أخته بذلك، فرحّب بها ورجاها أن تنهض في الحال وتُعدّ لهما حقيبة. ثم أخذ يتساءل: إلى أيّ حدّ يصدق عليه قول جانين في رسالتها الأولى إليه من أنَّه سعيدٌ بين ذويه؟ وقد آلمه حقًا أن ينتابه مثل هذا الشعور بالقلق والغربة بين أحبّ الناس إليه وأقربهم من نفسه. ولكن أيَّة حيلة كانت له في ذلك؟

وها هما يومان يمرَّان يُدرك الآن أنَّهما لم يعودا عليه بما كان يرجوه من هدوء وإقبال. وإنَّه ليشقّ عليه أن يرى تأثير وحدته منعكسًا على وجه هذه الشقيقة التي يشعر الآن أنَّها أدنى ما تكون إلى ذاته.

ـ جانين؟ آه.. نعم.. إنَّها جميلة جدّاً يا هدى.. تعالي، تعالي معي لأريك صورتها.

ـ إنَّها حقّاً جميلة يا عزيزي. إنَّ لها عينين ساحرتين، وهاتان الشفتان المرسومتان بدقّة؟ وشعرها هذا المسترسل، إنَّه أشقر، أليس كذلك؟

هذه صورة وجهها. أليست معك صورة كاملة لها، لجسمها أوه.. جسمٌ بديع متناسق، يشبه جسمي بعض الشيء!

وتقهقه هدى، ولكنَّها ما تلبث أن تعبس، وقد مرَّت تحت يدها صورة له، وهو يقبِّل جانين في «غابة بولونيا». صورة التقطتها آلته الفوتوغرافيَّة الأوتوماتيكيَّة.

ـ ما هذا أيُّها الشيطان؟ كلاّ.. إنَّ هذا لفجور!

وتقذف أخته بالصورة في وجهه، وهي ما تزال مقطِّبة الجبين، ولكنَّها تعود فتسارع إلى التقاط الصورة، زاويةً ما بين حاجبيها، فتتأمَّلها من جديد فترة أخرى، ثم تمدُّها إليه، وهي تتمتم بصوت خافت:

ـ لا يا عزيزي. . ما كان ينبغي لك أن تريني هذه الصورة!

ورقّ لأخته. بلى يا عزيزتي. كم أنتِ مشوقة إلى مثل هذه الضمَّة! كم تحلمين بشفتيْ رجل تلتصقان بشفتيكِ، يا هدى المسكينة!

أجل، ما كان ينبغي لك أن تريها هذه الصور. ومع ذلك، فلِمَ أنت ماضٍ في التحدُّث إليها عن جانين، وعن حبّك، وعن باريس، أتكون هذه التي يحرقها الحنين، هي وحدها التي تفهم حبّك؟

ـ لا بأس عليك يا أخي.. ولكن.. حذارِ أن تُطلع أمّنا على شيء من ذلك. يخيَّل إليّ أحيانًا أنَّ نفسها قابلة للحسد!

ـ ولكن ألا تعتقدين يا هدى أنَّ حدسها كفيلٌ بأن يكشف لها كثيرًا من أسرارنا؟

ـ هذا صحيح.. ولكن الحدّس يظل محتملاً إذا لم تدعمه الوقائع!

وقطع حديثهما في تلك اللَّحظة خادم الفندق يبلغه أنَّهم يطلبونه من بيروت على التليفون. لا بدّ أن يكون أخاه الأكبر، يطمئنّ عليهما ويسألهما إن كانا مفتقرين إلى شيء. ولم يخطئ، ولكنّ أخاه أضاف أنَّ أمه بحاجة

إليه لأمرٍ هامٍّ ينبغي أن تُحدّثه فيه، وأنّها ترغب إليه أن يهبط إلى بيروت في الحال. ولم يستطع هو أن يفهم من أخيه شيئًا، فقد أقسم له أنَّ أمّه رفضت أن تطلعه على سبب دعوتها إيَّاه.

وكانت أخته هدى تنتظر في باحة الفندق، فأنبأها النبأ، وهبط مساء اليوم نفسه إلى بيروت.

❖

ـ أدخل يا حبيبي وأغلق الباب خلفك.

ولم يدرِ لِمَ كان يحسّ الرعشة في أطرافه، وكفّه على مقبض الباب تفتله. ونظر إلى أمّه، فإذا على وجهها سحابة قاتمة. وخيِّل إليه أنَّها كانت تحاول أن تبتسم، فلا تفلح. ثم أفسحت له مكانًا إلى جانبها على الديوان وشرعت تسأله عن رحلته مع هدى، وهل أصابا فيها ما كان يرجوانه من متعة وراحة، فأجاب بأنَّهما بدآا يستمتعان بالجبل، لولا هذه الدعوة المفاجئة..

فجعلت أمّه تربت على كتفه، ثم سألته بلهجة تفيض باللوم والعتاب:

ـ لماذا أخفيت عنّي طوال هذه المدّة شؤونك يا بنيّ؟ إنَّني لا أودّ أن أتدسَّس إلى أمورك الخاصّة، ولكن ألا تعتقد أنَّ بوسعي أن أعينك فيما قد يعرض لك من مصاعب؟

ـ ولكن يا أمّي..

ـ لا، لا تقاطعني يا عزيزي. لو كنت حدَّثتني بعلاقتك بهذه الفتاة الفرنسيَّة لكنت قد..

ثم كفَّت أمّه فجأة، وأخرجت من تحت فخذها رسالة، فقدّمتها إليه، وهي تقول:

ـ أنظر أيّ مأزق أوقعت فيه نفسك وأوقعتنا..

فاشتدّ خفق قلبه، ولكن سرعان ما شعر بالغيظ إذ تنبَّه إلى أنَّ الرسالة كانت مفضوضة، فالتفت إلى أمّه، وهو يشعر أنَّ صدره يتمزَّق، ثم قال بلهجة أدرك سريعًا أنَّها نابية:

ـ ولكن كيف تسمحين لنفسك..

فقاطعته، وهي تشدّ على ذراعه:

ـ أرجوك ألاّ تغضب يا حبيبي. ما كان بودِّي أن أمسّها حين وصلتْ أمس، أقسم بحبِّي إيَّاك. ولكن لا أدري، كنت كلَّما نظرت إليها حدست بأنَّ فيها نبأ مزعجًا لك. وحين لمستها آخر مرّة، أحسست بأنَّ كفي تلتهب منها. وأنا لم أفضّها أخيرًا إلاَّ بدافعٍ من رغبتي في أن أوفِّر ما قد يشقّ عليها منها. ولم يخب ظنِّي.. اقرأها.. اقرأها الآن يا بنيّ..

وشعر أنَّ بودِّه أن ينفجر، وأنَّ ما تعلَّلت به أمّه لتفضّ الرسالة لم يكن إلاَّ نفاقًا. ولكنَّه أحسّ هو نفسه بنارٍ تحرق يده من هذا الظرف الذي قرأ عليه خطّ جانين. ولم يخفَ عليه أنَّ أمّه قد رأت ارتجاف كفِّه وهي تخرج الرسالة من مغلَّفها، فسارع يقرأ هذه العبارات القليلة ليحجب اضطرابه:

«باريس، ١٠ تموز

«حبيبي. أنا الآن من الارتباك بحيث لا أعلم كيف أبدأ لك رسالتي. أنَّ عندي لك نبأ لا أدري كيف ستقابله؟ ولولا أنَّ الأمر لا يحتمل التأجيل، لما حدَّثتك عنه، خشية أن يكون فيه ما قد يؤذيك.

«لقد قصدت الطبيب أمس، فأبلغني أنِّي سأصبح أمًا. إنَّها ثمرة حبّنا يا حبيبي. ولست أدري ما ينبغي أن أفعله. إنَّ الطبيب لم يُخفِ عنِّي المخاطر التي سوف أواجهها إذا لم أقبل حياة هذا الطفل. ومع ذلك، فأنا مستعدَّة أن أقدم على جميع التضحيات وأواجه جميع المخاطر. ولكنِّي

أنتظر منك إشارة لأنَّني لا أملك وحدي أن أتَّخذ قرارًا ما. فماذا أفعل يا حبيبي؟ لماذا أنت بعيدٌ عنِّي هذا البعد كلّه؟

«قد أكون الآن شقيّة، ولكن لن أفقد شجاعتي، فهل لك أن تعينني؟ عجّل بالجواب قبل أن يفوت الأوان، واغفر لي ما قد يكون لك في هذه الرسالة من إزعاج. قبلاتي ـ جانين».

....

لم يرفع بصره إلى أمّه، وقد أيقن أنَّه غير مستطيع ذلك إن هو حاوله. وأعاد قراءة الرسالة وهو يحسّ في صدره كابوسًا ثقيلاً ترزح تحته أنفاسه. وتناهى إليه صوت أمّه:

ـ سامحك اللّه يا بني. ما تراك فاعلاً؟

وبلغ ببصره، جاهدًا، وجه أمّه. فإذا على ملامحه هدوء لم يكن ينتظره. وخال أنَّ هذا الوجه يشيخ لحظة بعد لحظة. وأنَّ تجعُّدات جبينه تتضاعف، وأخاديده تملأ ما تحت عينيه. وحين تحرَّكت تانك الشفتان، حسب أنَّ مخلوقًا جديدًا يتكلَّم. مخلوق أنضجته السنون وحنَّكته التجارب. مخلوق هو أشدّ ما يكون حاجة إليه في تلك اللَّحظة التي يشعر فيها بالاضطراب مبثوثًا في كلّ ركنٍ من أركان نفسه. ليس هو اضطرابًا على التحقيق بل هو ذعر مروّع، يطوف في جسمه وفكره مسرعًا مجنونًا، كأنَّ يدًا تطارده. ولقد وعى هذا الذعر، فإذا قصارى همّه أن يراقبه، ويلاحق جريه وحركاته. وشعر بأنَّه معزول عن كلِّ شيء، خارج من كل شيء، إلاَّ من هذا الذعر الذي يشقّق صدره خفقًا، ويقطِّع أنفاسه تقطيعًا.

ولكنَّه استطاع، مع هذا الذعر، أن يرى في داخل نفسه، شيئًا آخر، لم يتبيَّنه جليًا أول الأمر، ثم تكشَّف له رويدًا رويدًا: شفتان تتكلَّمان. ولم يدرِ أهما شفتاه بالذات، أم شفتا مخلوق آخر، لولا أنَّ أمّه هنا، إزاءه، لخيِّل

إليه أنَّه لا يعرفه. إنَّه صوتٌ ينبع من أعماق نفسه، ولكنَّه يصدر عن هاتيْن الشفتيْن. أو أنَّ هاتيْن الشفتيْن تنطقان به، فتردِّده أعماقه.

إنَّ جانين حامل إذن. حسنًا. ماذا أنت فاعل؟ ألم تقرِّر بعد؟ ولكن لِمَ هذا التردُّد؟ إنَّك لن تفكِّر أبدًا بالزواج منها. بلى، ربما كان الضعف قد استباح حرمة نفسك لحظةً من اللحظات، فظننت أنَّ التفكير بالزواج منها ليس أمرًا ممتنعًا. ولكن متى كان ذلك؟ ها.. يوم حدَّثتك جانين عن الغد! ولكن أتنسى أنَّها لم تذكر الغد إلاَّ وقد ذكرت الماضي؟ أتنسى أنت هذا الماضي؟ لقد كانت مخطوبة، وقد سلَّمت جسدها إلى خطيبها. إنَّها إذن لم تكن بكرًا حين عرفتها.. ثم ماذا؟ إنَّها غادرت قريتها شبه مطرودة. ليس من الخطأ إذن أن يقال إنَّها فتاة، عفوًا، امرأة لا أهل لها؟ وكيف تراها بعدُ، تكسب عيشها. تعمل في مخزن! أية سبّة! أعندنا فتيات يشتغلن في السوق؟ أنت تعرف كم ظللنا نرفض أن تعمل هدى في التدريس، وأنت نفسك كنت أول الأمر معارضًا. ماذا سيقول الناس؟ لقد عاد من باريس وفي ذراعه فتاة، لم تكن بكرًا لأنَّها كانت مخطوبة، فتاة طردها أهلها، فتاة التقطها من الطريق، فتاة تشتغل في مخزن. فتاة مسيحيَّة، من غير دينه.. فتاة.. أيَّة فضيحة، وأيّ عارٍ سينصبّ على بيتنا! بيتنا هذا الذي عاش طويلاً في الستر، والفضيلة، والشرف، والدين. بيتنا الذي يستمطر الناس شآبيب الرحمة على سيِّده، على أبيك المرحوم.. كيف يمكن أن تدخله فتاة أجنبيَّة أقلّ ما يقال عنها إنَّها شبه مطلَّقة. وما يدريك بعد أنَّه ليس لها ولد من خطيبها، أو من سواه؟ ها.. أيّ ساذج أنت! أصدَّقت أنَّها لم تعرف سوى خطيبها، وسواك؟ فتاة فرنسيَّة لا تعرف إلاَّ شابَّين؟ أيّ هذر هذا! لقد عرفتَ عددًا من الفتيات.. أكنت أول من يتعرَّفن إليه، أو آخر من سيتعرَّفن إليه؟

بقيت مسألة الضمير. حسنًا. لا شكَّ في أنَّ عندك ضميرًا. ولكن ما الذي تمتحن به هذا الضمير؟ إنَّها حامل، حسنًا. ولكن ما الذي يثبِّت

أنَّها حامل منك أنت بالذات؟ أتصدِّق أنَّها تعيش الآنَ على ذكراك وحدك؟ الحرمان، هذا الذي تشعر به بين شفتيْها، أتستطيع حقًا أن تحتمله؟ اسمع. خُذ هذه الملاحظة اليسيرة: لقد أتى هنري، خطيبها السابق، لزيارتها في باريس. أصدَّقت أنَّها تجنَّبت الاجتماع به؟ ما يدريك أنَّها لم تَدْعُه هي نفسها إلى العاصمة، منتهزة فرصة غيابك؟ بل قُلْ ـ لِمَ لمْ يأت هنري قبل ذلك التاريخ إلى باريس؟ وهل تراها لم تقابله حقًا؟ ألا تعلم أنَّ المرأة تحنّ دائمًا إلى أوَّل رجل عرف جسدها؟

ماذا هناك بعد؟ أما تزال متردِّدًا؟ لا يا بنيّ، يا أمي..

❖

والتفت فجأة إلى أمّه. لا، لم تكن هي التي تتكلَّم، فإنَّ شفتيها مطبقتان، كأنَّهما لم تنبسا منذ ساعة. بل إنَّها هي التي كانت تتكلَّم، ولكنَّها صمتت الآن. هي التي تكلَّمت، أم هو، أم شخص آخر لا يعرفانه.. إنَّه لا يدري. لقد سمع كلامًا، ولا يدري أسمعه بأذنيه أم بأعماقه.

ولكنَّ الذي يدريه أنَّه نهض بعد لحظات، فدخل غرفته، وأغلق خلفه الباب، وجلس إلى طاولته. وحين أمسك القلم ليكتب، شعر بأنَّ وجه أمّه، ذلك الوجه المتجعّد الهادئ، المحنَّك الرصين، يقف فوق رأسه. لم يعرف إن كانت أمّه قد لحقت به حقًا، ووقفت فوقه جسمًا يُلمس، أم أنَّه هو قد حمل معه هذه الرؤية إلى غرفته.

وأيًا ما كان، فقد رأى، وهو يكتب تلك الرسالة، ظلّ ذلك الرأس، رأس أمّه يهتزّ هادئًا، موافقًا تارة، معارضًا تارة أخرى، حتى أنجز كتابة هذه الأسطر:

«صديقتي جانين: تلقَّيت رسالتك التي تبلغينني فيها أنَّكِ تنتظرين مولودًا، على ما قال لكِ الطبيب. وقد دهشت حقًا حين فهمت أنَّك لم تعلني

هذا النبأ السعيد لجميع أصدقائكِ، وهم ليسوا قليلين، هؤلاء الأصدقاء، الذين أعرف أنَّه كان لك مع بعضهم علاقات غير طاهرة. أما علاقتنا نحن الاثنين، فأحسبكِ لا تشكّين بأنَّها كانت بريئة. ولهذا أجدني، وتجدينني أنتِ كذلك، غير متأثِّر البتّة بهذا النبأ. وليس لي أن أقدِّم لكِ أيَّة نصيحة أو إشارة. تحيَّاتي الصادقة لك».

وشعر بأنَّه يطوي الرسالة، ويودعها مغلَّفًا يكتب عليه عنوان فندق «ليغران زوم» ثم يتركه على طاولته، ويأوي إلى فراشه.

وفي اللَّحظة التي انطفأ فيها النور، رأى يدًا تمتدّ فتتناول الرسالة، وتختفي.

وانقلب على جنبه الأيمن في سريره، وأغمض عينيه وهو يرسل زفرة طويلة.

❖

أجل، الآن تنفّسْ الصُّعداء أيُّها النَّذْل! الآن نمْ قرير العين أيُّها الجبان!

ـ ٤ ـ

لا يا هدى.. أريد أن أكون وحدي هذه المرّة.

ولم تقل هدى أيَّة كلمة. لقد آذيتَها برفضك طلبها في أن تصحبك إلى القرية التي تشاء. كأنَّها كانت على يقين من حاجتك إليها في الوحدة التي تنشدها الآن. بل من يدري، لعلَّها هي، أمَّك، قد دفعتها إلى أن تُصرّ على مرافقتك. إن كان الأمر كذلك، فسامحيني يا عزيزتي هدى إن أنا أصررت على رفض اصطحابك. أريد أن أظلّ وحدي. وحدي.

منذ ثلاثة أيام، يتفادى من النظر إليها، هي.. أمّه، كأنَّما لا يريد أن يرى ذلك الوجه الجديد الذي لبسته تلك الليلة. كأنَّما يخافها. أو لا يدري، ربَّما لم يكن هو الخوف. ربَّما كان هو.. لا، إنَّه لا يجرؤ على التفكير،بَلْه النطق بهذه الكلمة. ولكن يسعه الآن أن يفكِّر بما يقابلها، أن يفكِّر بحبِّه لأمّه. لِمَ يحبّ أمّه؟ لِمَ يُحسّ هذا التعلُّق الشديد بها؟ ألأنَّها فقط هي التي وضعته في هذه الدنيا؟ ألأنَّها هي التي سهرت على طفولته وحداثته؟ ألأنَّها تقضي لياليها كلَّها، وهي إلى جانبه في غرفة مجاورة.. ولكن إلامَ يظلّ يحبّها من أجل هذا فقط؟

لا، لقد بلغ الآن مبلغًا ينبغي له ألاّ يأبه كثيرًا لهذا الحبّ الذي هو أشبه بالعطف، وأقرب ما يكون إلى الاعتراف بالجميل. وإنَّه ليدرك شيئًا فشيئًا أنَّه يفتقر من هذا الكائن الذي يكنّ له ذلك اللون من الشعور إلى

رابطة أخرى، كفيلة وحدها بأن تُكسب حبّه إيَّاه معنى ساميًا، معنى إنسانيّاً. اعترف الآن بهذه الحقيقة التي انحسرت لك في هذه الأيَّام الثلاثة التي قضيتها في التيه. اعترفْ بأنَّك لم تُرمض قواك، إلاَّ لتخرج بأنَّ هذا الذي يشدُّك الآن إلى أمّك، ليس هو الحبّ، وإنَّما هي الخشية، الخشية من أن تشعر هي بأنَّك تسيء إليها إذا سلكتَ هذا المسلك، أو تصرَّفت ذلك التصرُّف. إنَّها الرغبة في أن ترضيها، في أن تردّ لها الجميل الذي أنت مدينٌ لها به، أيّاً كان الثمن الذي تدفعه.

ولكن ما الذي أثار هذه القضية في نفسك الآن، في هذه الأيَّام الثلاثة بالذات؟ أليست هي قصّة جانين مونترو؟ لا مجال للشكّ إذن في أنَّ موقف أمِّك من هذا الأمر هو الذي طرح في ضميرك قضيَّة العلاقة التي تربطك بها. وهذا وحده دليلٌ على أنَّ فكرة الحبّ الذي كنت تعتقد أنَّه هو الرابطة، فكرة قابلة للمناقشة. لو كان هو الحبّ حقّاً، ما كان لك الآن أن تنشد الابتعاد. إنَّ المرء لا يبتعد عن الشخص الذي يحبّه.. إنَّه يبتعد عن الشخص الذي.. إنَّه يبتعد عن الشخص الذي يخشاه على الأقل.

هو على يقين الآن من أنَّ أمَّه قد استغلّت فيه ضعفه هذا، حبَّه إيَّاها أو خشيته منها، لتملي عليه الموقف الذي ترتئيه هي في قضيّة جانين، وهي قضيَّته وحده. إنَّ أمّه لم تدع له أن يفكِّر في أمره، وينفذ منه إلى الحلّ الذي يراه هو. إنَّها بذلك قد محت شخصه، حطَّمت ذاته، وفرضت عليه شخصها هي، وذاتها هي. فأيّ عبد كنت لها، وأيّ ذليل!

وعزم على أن يهرب منها، من أمّه، هذه التي تذكّره بعبوديَّته وانقياده، وليفكِّر في هذا الذي أقدم عليه. إنَّه لا يدري ما كان يكون موقفه، لو تُرك له أن يبتّ فيه. ولكن ما يطعنه هو، أنَّه قد حُرم هذا الحظّ بالذات، حظّ الاختيار. أما كان بوسعه، على الأقلّ، أن يتريَّث، ويقلب الأمر على وجهه؟ صحيح أنَّ ما وقع فيه مأزق خانق لا يدري كيف يخرج منه، ولكن أيكون المخرج الوحيد أن ينكر علاقته بجانين، ليدفعها هي نفسها إلى

تقرير مصير هذا الجنين الذي أثمره حبّهما؟ أما كان يستطيع أن يُبرق إليها بأن تعمد إلى.. الإجهاض؟ لقد نبّهته أمّه إلى أنَّ كل ما قد يكتبه إليها في هذا الشأن، يمكن أن يُسجَّل عليه وثيقة تدينه، لو شاءت هي أن ترفع أمرها إلى القضاء. ولقد زاد هذا في رعبه وترويعه، فكتب طائعًا لينكر صلته بها، وبذلك ينجو من أيَّة شبهة.

ولكنَّه نسي أنَّ جانين تحبُّه، وأنَّها كتبت إليه تقول في رسالتها تلك إنَّها «مستعدّة لأن تُقدِم على جميع التضحيات، وتواجه جميع المخاطر ولكنَّها كانت تنتظر منه الإشارة فحسب، لأنَّها لا تملك وحدها أن تتَّخذ قرارًا ما». فأيّ لؤم كانت تتكشف عنه نفسك حين ترتاب في صدق هذا الكلام، لو ملكت أن تواجه قضيَّتك بشخصك، لا بشخص أمّك!

ويشتدّ تبرُّمه ببيته وبأهله، وبنفسه، فيعزم على ارتياد الجبل من جديد، ويبلّغهم ذلك، فلا يعترضونه ولا يعلّقون على عزمه، بل لعلَّهم ينصحون له بترك العاصمة وقد رأوه ثلاثة أيام، وكأنَّهم غرباء عنه، ولكنَّ أخته هدى تقترح عليه أن ترافقه، كما رافقته إلى «ميروبا» فيعتذر عن تلبية اقتراحها. وتُلحّ فيشتدّ في رفضه، وقد داخله من إلحاحها أنَّ أمّه تحرِّضها عليه.

❖

عرَّج على متجر أخويه، فاستدان مبلغًا من المال ثم قصد مصيف «عاليه» ونزل في أحد فنادقها الكبرى. وكان مدفوعًا بشعور غامض إلى أن يختار هذه المرَّة مصيفًا آهلاً بالسكَّان والمصطافين، وينزل فندقًا كبيرًا من فنادقه، كأنَّما كان يخشى أن يغرق في العزلة، وكأنَّ رؤية هؤلاء الناس كفيلة بأنَّ تصرفه عن وحدة يخاف أشدّ الخوف أن تؤنسه وتملأ نفسه المضطربة تشاؤمًا.

ولقد تناول بعض كتب الشعر التي كان يدرسها، فخرج عند الأصيل يجلس في ظلّ صنوبرة كبيرة كانت قائمة في باحة الفندق الخارجيَّة. ولكنَّه لم يلبث طويلاً حتى شعر بالملل، وأحسّ بحاجة ملحّة إلى السير، فإذا هو

يطوي كتبه، ويغادر الفندق، فلا يعود إليه إلاّ بعد ساعتين ونصف الساعة قضاها بين «عاليه» و«سوق الغرب» ذهابًا وإيابًا على القدمين.

وكان يهمّ بالصعود إلى غرفته للنوم، بعد أن تناول العشاء، حين أطلّ على قاعة كبيرة تقود إلى يسار الباحة، فوجد جمعًا محيطين بطاولة خضراء. وإذا بقدميه تدفعانه بلذّة إلى الدخول، ثم لا يمضي وقت طويل، حتى يكون قد اتَّخذ له مكانًا بينهم، يلعب مثلهم «الروليت».

وحين دخل إلى غرفته بعد منتصف اللَّيل، وقد خسر معظم ما معه من مال، شعر براحة غريبة تستولي على حواسّه فتكاد تخدّرها، وسرعان ما استغرق في نوم عميق.

وأفاق صباح اليوم التالي، ليقفل عائدًا إلى بيروت، وقد كان في نيَّته أن يتغيَّب عنها أسبوعًا على الأقل. ولم يقصد فورًا إلى بيته بل مال على متجر أخويه، فوضع فيه حقيبته وأبلغ أخاه الأكبر أنَّه يعود إلى العاصمة لشعوره بأنَّه يؤثر ارتياد البحر على الجبل، وقد رأى في عينيّ أخيه العجب، فلم يكترث له، وإنَّما خرج مسرعًا فاستقلّ إحدى السيَّارات التي تنقل الركاب بالجملة إلى محلّة «الجناح» حيث يقوم كثير من المسابح الحديثة.

وما كاد يتمدَّد على الرمال، حتى طفرت إلى ذهنه جانين، وتمثّلها إلى جنبه مستلقية على ظهرها تنظر إلى السماء، لا يكاد يرفّ لها جفن، ثم خُيِّل إليه أنَّها تنهض، وتتَّجه إلى البحر، كالنائم الذي يمشي، فتهبط إلى الماء وهي مستقيمة على قدميها، وتظلّ تنحدر في البحر حتى تبلغ المياه عنقها. ثم خيِّل إليه أنَّه يرى يدًا تنبثق من الأفق، فتمتدّ وتمتدّ حتى تبلغ مكان جانين من المياه، وما تلبث أن تنحطّ على رأسها، وتأخذ في الضغط عليه، وهو يقاوم بعينين جاحظتين جَزِعتين، وفم فاغر صارخ.

وينتفض هو فوق الرمال، وقد أذعرته الرؤيا، فينتصب على قدميه لينظر إلى البحر، ليرى الرأس قد غمرته المياه كلّه، ولم يخلِّف بعده إلاّ فقاقيع قليلة تصعّدها الأنفاس المخنوقة.

ويكاد أن يندفع لينقذ تلك الروح المعذَّبة، ولكنَّه يشعر بأنَّ الأوان قد فات، وهو يرى إلى تلك اليد الممدودة، تتراجع وتتراجع، حتى يبتلعها الأفق الذي انبسطت منه. وقد خُيِّل إليه مرّةً أخيرة أنَّه رأى يومًا هذه اليد بالذات، تمتدّ، إذ يُطفأ النور في غرفته، فتتناول رسالة كانت على مكتبه، ثم تختفي.

❖

وأسعده أن يعود إلى البحر، أربعة أيام أخرى متوالية، كان يقضيها بين السباحة والتشمُّس والجلوس تحت إحدى المظلات ليقرأ في كتبه. وقد شعر في هذه الأيام الخمسة بمتعة جسديَّة عجيبة لم يكن يعرفها من قبل. ذلك أنَّه كان يظلّ معرِّضًا جسمه للشمس حتى يؤمن بأنَّ البقاء في هذه النار أمر لا تحتمله الجلدة البشريَّة، فينهض إلى مظلَّته، أو يهبط إلى الماء. ولكنَّ اللحظات القليلة التي كانت تسبق نهوضه، هي التي كانت تُشعره بتلك المتعة. كان يُحسّ من لسعة الشمس المحرقة بمزيج من اللّذة والعذاب يرتعش له جسمه كلّه ارتعاشات متذبذبة تغريه فيما هي تستنشيه.

ومساء اليوم الخامس لارتياده البحر، كان واقفًا أمام المرآة في غرفته يشاهد آثار الشمس في جبينه وعنقه، إذ دخلت أخته الوسطى فسلَّمته رسالة وصلت في تلك اللحظة.

وقد شعر بأنفاس أمّه تلفح رقبته بينا كان يقرأها بسرعة، وكانت سطرًا واحدًا:

ـ شكرًا. سأواجه مصيري بشجاعة ـ جانين».

وأحسّ أنَّ همَّه لم يكن لحظتذاك أن يستوعب مضمون الرسالة، على خطورتها وإيجازها، بل أن يكفّ عنه تلك الأنفاس التي تلفح رقبته، وهاتيْن العينيْن اللتيْن تطلاّن بشراهة من فوق كتفه. وقد انفتل بالفعل، وبسط لأمّه الرسالة في حركة متحدّية مغيظة. ثم انصرف فجلس إلى مكتبه، وأخذ رأسه بين يديه، يفكّر فيما قرأ.

وأتته فوراً الضحكة المتشنِّجة، ضحكة أمّه، وفي أعقابها قولها الهازئ:

ـ ها ها.. أيَّة ممثّلة هي! ويا له من نفاق!

وانفجر هو:

ـ ليست هي الممثّلة المنافقة، وإنَّما...

ثم أمسك فجأة عن إتمام عبارته، وأحسّ أنَّه يعاني من ذلك تقبُّضاً في أطرافه وصريراً بين أسنانه. وظلّ ينظر إلى أمّه فيرى قسماتها تنطق بالجزع، والشكّ، والألم.

ونهض من كرسيّه، وهو يشعر بارتجاف يديه، فقال لأمّه بهدوء عَجِبَ كيف بَلَغَهُ:

ـ أرجوك.. امتنعي عن التدخُّل في شؤوني. أعتقد أنِّي لست بحاجة بعدُ إلى إرشادك. كفِّي عن الاهتمام بأموري الخاصَّة، إن كنت تحرصين على أن تحتفظي باحترامي..

ثم استدرك سريعاً:

ـ أقصد بحبّي..

فاكتسى وجهها بابتسامة أليمة، وأطرقت ببصرها لحظة إلى الأرض، ثم تراجعت منسحبة.

وحين تناهى إلى سمعه صوت نشيجها في غرفتها، بعد دقائق، نهض فارتدى ثيابه على عجل، وغادر البيت وهو يغلق خلفه الباب بخفقة شديدة.

وعاد في ساعة متأخِّرة من الليل، ففتحت له الخادم. وقد شعر وهو متَّجه إلى غرفته أنَّهم كانوا جميعاً مستيقظين ينتظرون عودته، ولكنَّ أحداً منهم لم يجرؤ على النهوض لمقدمه.

ـ ٥ ـ

وبعد زهاء أسبوعين وردته الرسالة الوحيدة التي تلقّاها من صديقه فؤاد، وكانت صفعة السوط لضميره المستيقظ:

«باريس، ١١ آب

«عزيزي، أكتب إليك وأنا أتألّم. فقد وقفت أمس على تفاصيل واقعة زرعت في نفسي العذاب والاضطراب. وأنا أرويها لك هنا، لأنّها تعنيك في الدرجة الأولى، ولأنّها تعني بعد ذلك كل عربيّ في هذه البلاد.

«مررنا، فرانسواز وأنا، منذ حوالى أسبوع، بفندق «ليغران زوم» بقصد زيارة جانين فلم نجدها. وكانت قد مضت أيام لم نلتق بها بعد إغلاق مطعم «لوي لوغران» للعطلة الصيفيّة. وفي اليوم التالي، سألتْ فرانسواز عنها بالتلفون، فقيل لها مرة أخرى إنّها ليست في غرفتها. ومساء اليوم نفسه، عرجنا من جديد على الفندق، فأبلغنا صاحبه أنّ جانين مريضة، وأعطانا عنوان المستشفى التي انتقلت إليه، في ضاحية «نويي». وقد شعرنا بالعتب يومذاك على جانين أن لا تبلّغنا أمر مرضها، نحن صديقيها الأقربين. ثم زرناها بعد ظهر اليوم التالي.

ولقد روّعنا ـ أيّها العزيز ـ أن نلقى شبحًا متمدّدًا على سريره، كدنا لا نعرف فيه جانين. كانت عيناها غائرتين، وقسماتها شاحبة، وشفتاها ممتقعتين. ولقد أغمضت عينيها إذ رأتنا داخلين، فرانسواز وأنا. ثم حاولت

أن تبتسم. وأقبلنا عليها نسألها ما تشكوه، فقالت إنَّه «الباراتيفوئيد». على أنَّها ترجو أن تنهض منه بعد حين. ولقد ارتبتُ في قولها. وأخذت فرانسواز تحدِّثها محاولة أن تخفِّف عنها وطأة الألم. ثم سألتها عنك وعمَّا إذا كنت تكتب لها فأجابت بالإيجاب. ولكنَّها لم تُضفْ إلى ذلك شيئًا. وحين سألتها عن موعد عودتك المنتظرة قالت إنَّ رسائلك لا تعيِّن هذا الموعد. ولم نشأ أن نبقى طويلاً إلى جانبها، ولكنَّني عزمت على أن أعود إلى المستشفى وحدي لأكشف عن حقيقة شعرتُ أنَّ جانين تخفيها عنَّا. ولم أحدِّث فرانسواز بهذا الأمر طبعًا.

«وأمس زرت جانين للمرَّة الثانية، فتألَّمت لما عرفت، ولا أزال أتألَّم حتى الساعة. ولقد قضيت فترة طويلة وأنا ألحّ على جانين في أن تكشف لي سرّها، فكانت تنكر أن يكون هناك غير مرضها، إلى أن عبَّرت لها عن رأيي في أنَّها لا تثق بي. إذ ذاك رأيتها تلقي كل سلاح من يدها، وتطلعني على تفاصيل الواقع. لقد أُجريتْ لها منذ أكثر من عشرة أيام عملية إجهاض خطيرة، كادت تلقى فيها الموت، فلم يكن لها بدّ من دخول المستشفى. وقد أطلعتني على رسالة منك، والدموع في عينيها، وأخذت تسائلني: «لماذا يُسقطني هكذا، وأنا لم أطلب إليه شيئًا؟ أما كان بوسعه على الأقلّ أن يشير إليّ بوجوب الإجهاض، فأُقدم على ذلك من غير تردُّد؟» ثم تصمت جانين لتنظر إليَّ لحظة وتضيف: «انتهى الأمر الآن، وما دمت أنت هنا يا فؤاد، فلا بأس من أن أقول لك هذه الكلمة، لأنِّي أثق بصداقتك لي وله. إنَّه لا يهمّني بعد أن أعيش أو أن أموت، ولكن كلّ ما أودّه منك أن تقول له يوم يعود إلى باريس، إذا عاد، أو يوم تلقاه أنت في الوطن، إنِّي لا أحفظ له أيّ حقد أو ضغينة، فإنَّ الحبّ الذي حقَّقه لي، والذي أجدني مدينة له بأعظم سعادة في حياتي الشقيّة، هو أكبر وأقوى من أيّ حقد. فإن كُتب لي أن أبقى على قيد الحياة، فسيكون غذائي كلّه من هذا الحبّ،

وإن كُتِبَ لي أن أموت، فسأقضي مرتاحة البال. قلْ له فقط إنّي سأحبُّه أبد الدهر، كما أحببته من اليوم الأول الذي لقيته فيه».

«هذا ما قالته لي جانين، أيُّها العزيز، أنقله إليك لأؤدّي الأمانة. ولقد سألتها بعد لحظات عمَّا تنوي أن تفعله إثر خروجها من المستشفى، فابتسمت وأجابت «لا أدري بعد، وأحسب أنَّ لا فائدة من التفكير بالغد. سأحاول أن أعيش كلَّ يوم بيومه».

«ذلك كلّ ما دار بيني وبينها من حديث. وأنا أعرف أنَّها كانت صادقة فيه، لأنّي أعرف إخلاصها لك في الحبّ. ولقد فكَّرت طويلاً ليلة أمس، في هذا الموضوع، فانتهيت إلى فكرة سيؤذيك أن أقولها لك. ولكنّي أقولها غير متردّد، لأنَّك صديقي، ولأنَّ الصداقة الحقّ لا تحتمل التضليل والخداع. إنَّني لا أعرف على التحقيق الأسباب التي دفعتك إلى الوقوف من جانين هذا الموقف، وهي من تعرف حبّاً ونبلاً وتفانيًا. ولكنَّ هذا لا يمنعني من أن أرى أنَّك رفضت تحمُّل تبعةٍ شاركت أنت في إيجادها. رفضتَ مسؤوليةً كنتَ أنت أحد خالقيها. وهذا ما لا ينتظره الوطن من العربيّ الشريف ـ وإلى اللقاء، فؤاد».

❖

قالت له أمّه، وقد رأى الطائرة التي ستقلُّه إلى باريس:

ـ أهكذا يا بنيّ، تغادرنا ولمّا يمضِ على وجودك بيننا أكثر من خمسة أسابيع؟

فمدّ ذراعه يحوط بها كتفيها، ويقول باسمًا:

ـ لا بأس في ذلك يا أمّي، فأنا لن أتغيَّب طويلاً.

فبدا في عينيها الخوف:

ـ ماذا تعني يا حبيبي؟ هل أنت عائد عمًّا قريب؟ وهل.. ستعود.. وحدك؟

فشدَّ على كتف أمّه، وتمتم بين أسنانه:

ـ أمَّا أن أعود وحدي، أو أعود مصحوبًا، فهذا شأن لا يعني سواي. وأمَّا أنِّي عائد عمَّا قريب، فقد يتمّ ذلك.. أقصد أنِّي لن أبقى سنتين أخريين في باريس. سأبذل كل ما في استطاعتي لأنجز رسالتي هذا العام، وأرجو أن يقدِّر أساتذتي ظروفي، فيقرُّوني على مناقشتها في دورة حزيران من العام القادم، أو في دورة تشرين التي تلي، على أبعد تقدير.

ثم التفت إلى أخيه الأكبر، فقال إنَّ حرصه على ألاّ يضطرّهم إلى مساعدته الماديَّة، وهم أحوج منه إليها، هو الذي يدفعه إلى اتِّخاذ هذا التصميم، ما دامت وزارة المعارف لا تقدِّم له المعونة أكثر من عامين اثنين. وأضاف أنَّه يرجو أن يتمكَّن من توفير بعض نفقاته ليردّ إليهم جزءًا من المال الحكوميّ يستعينون به على سدّ حاجاتهم، ثم أردف:

ـ أما أجرة الطائرة التي استدنتها من صديقنا ذلك الكريم، فسأعيدها إليه فور رجوعي وحصولي على عمل في التدريس، أو في سواه.

وحان موعد إقلاع الطائرة، فأقبل على أمّه وإخوته يضمُّهم إليه بحنان ويقبِّلهم. وقد شعر وهو يضمّ إليه أخته هدى بمزيد من الحنان بادلته هي إيَّاه بلهفة دامعة.

وانطلقت به الطائرة، وهو يعيد تلاوة رسالة فؤاد للمرَّة السادسة أو العاشرة، لا يدري، فيقف مرتعش الصدر إذ يبلغ آخرها، ثم يُحسّ بعض الطمأنينة إذ يقرأ اسم صديقه مسبوقًا بـ «إلى اللقاء».

❖

ـ أوه... هذا أنت؟ لقد عُدتَ إذن، وفطنت إلى المعنى الذي قصدته في آخر رسالتي إذ دعوتك إلى لقائي. لا حاجة بك إلى أن تقول ماذا تريد. أمس الأول، سألت عنها بالتلفون، فقيل لي إنَّها توشك على الشفاء. خُذْ، هذا عنوان المستشفى.

وسرعان ما هبط المترو، بعد أن ترك حقائبه في «الحفظ» بمحطَّة «الانفاليد» فركبه باتِّجاه «نوييي». وعادت إليه رائحة باريس هذه تنبعث أنفاسًا مضغوطة كثيفة من حافلات المترو.

والتفت ينظر هذه الوجوه، فيخيَّل إليه أنَّه يعرفها كلّها، وجهًا وجهًا.

ووقف خافق الصدر، يُحسّ الدم في وجنتيه، أمام كاتب المستشفى وهو يقلِّب سجلاً أمامه وما يلبث أن يتوقَّف عند صفحة فيه، فيقرأ:

ـ الآنسة جانين مونترو، دخلت المستشفى يوم ٢ آب، وغادرته يوم ١٧ آب، أي يوم أمس يا سيدي.

ـ آه.. ألم.. ألم تترك عنوانها؟

فعاد الكاتب ينظر في زاوية من السجل، ثم يهزّ برأسه نفيًا:

ـ لا يا سيِّدي. لم تترك عنوانها.

وخرج يجرّ قدميه.

ثم استقلّ المترو، قافلاً إلى محطَّة «الانفاليد» ليأخذ حقائبه. وشمَّ رائحة باريس في المترو، مرَّة أخرى، فأحسَّ بأنَّها رائحة جديدة، فيها نسيم من عفونة.

وأخذ سيَّارة أقلَّته إلى «البانتيون». وهبط منها، فشعر وهو يدخل فندق «ليغران زوم» أنَّ الغصَّة تكاد تفجِّر حنجرته.

ها أنت تعود يا سيِّدي؟ إنَّني أرحِّب بك. كيف قضيت عطلتك؟ ولكنَّك عدت سريعًا؟ آه إنَّه الحنين إلى باريس؟ لا.. غرفتك لاتزال مأجورة.

إنَّ ساكنها طالب إيرانيّ لطيف. تريد غرفة لك؟ آه.. بلى. إنَّ غرفة قد خَلَتْ منذ أكثر من أسبوعين. في الطابق السادس نفسه. كم أنا سخيف! ولكنَّك تعرفها. إنَّها غرفة الآنسة جانين، صديقتك. أتريد أن تنزل فيها، أم نرجو الطالب الإيرانيّ أن ينتقل إليها، فأنت أحقّ بغرفتك القديمة. لا؟ لا تريده أن ينتقل؟ تأخذها أنت، الغرفة الخالية؟ حسنًا. تستطيع الآن أن ترقى إليها وستفتح لك تيريز الباب. إنَّها هناك تيريز، في الطابق السادس، لا، دَعْ حقيبتيك هنا. فيليب ينقلهما لك بعد لحظات. لا يا سيِّدي، لم تعد جانين منذ خمسة عشر يومًا. كلاّ لم تترك عنوانها. إلى اللقاء. حقيبتاك سينقلهما لك فيليب بعد لحظات.

❖

ووقف عند أعلى السلم وهو يلهث. ورأى باب غرفته مغلقًا. ورأى باب غرفة جانين مفتوحًا. وسار بطيئًا راعشًا وبلغ الباب المفتوح. ورأى ذلك الظهر الذي يعرفه، ظهر تيريز وهي تمسح زجاج النافذة.

- أوه.. هذا أنت؟ إنَّك تعود؟ تريد أن تنزل هذه الغرفة: إنَّها مغلقة منذ أسبوعين. قلت أدخلُ اليوم فأزيل غبارها، وها أنت تعود يا سيِّدي...

ولم يستطع أن يَدَعها تمضي في حديثها، فدنا منها، وهو يشعر بتقلُّص قسمات وجهه.

ثم أخذها من كتفيها، وسمع صوته يقول:

- تيريز.. جانين، جانين..

ثم أجهش وهو يرتمي بين ذراعيْ تيريز، يردِّد، والدموع في عينيه:

- لقد ضاعت آثار جانين.. لقد ضاعت جانين!

- ٦ -

- أمَّا صبحي وعدنان، فهما على «الكوت دازور» منذ عشرة أيام تقريبًا، وفي نيَّتهما أن يقضيا هناك شهرًا أو أكثر. وأمَّا أحمد، فهو يقوم بزيارة إلى إسبانيا، وأحسب أنَّه عائدٌ بعد أسبوع. وكان يحدِّثني أنَّ بودِّه أن يزور الأندلس، بلاد المجد المفقود، منذ وصل إلى باريس، وقد مضى على ذلك زهاء عامين. بقي ربيع. لقد أنبأني أحد إخواننا التونسيين، أنَّه قد أُفرج عنه، ولكنَّه أعيد إلى تونس وحُظر عليه دخول فرنسا.

وأضاف فؤاد أنَّ صبحي لم يفز بالشهادة التي قدَّم فيها امتحانًا بدورة حزيران، خلافًا لعدنان الذي نال تهنئة الممتحنين. وكذلك أحمد، فقد نجح في امتحان السنة الخامسة بكليَّة الطب.

- وقد فكَّر صديقنا صبحي في أن يعود إلى دمشق ليقضي فترة الصيف ويراجع المادَّة التي لم يفز فيها، ولكنَّه رأى «الكوت دازور» أقرب وأقلّ كلفة! وتسألني عن نفسي؟ لقد قدَّمت في معهد اللغات الشرقيَّة شهادتين من شهادات الليسانس فنجحت في شهادة الترجمة وسقطت في شهادة فقه اللغة! وهكذا تبقى لي ثلاث شهادات لنيل الليسانس. إنَّه لعمل شاقّ يا عزيزي! فإذا قُدِّر لي أن أنجح في شهادة فقه اللغة بدورة تشرين القادم، فإنَّ المفروض أن أعمل في العام المقبل للحصول على الشهادتين الأخيرتين. أف.. عام بطوله! لا، لم أكره باريس، ولن أكرهها ولو قضيت

فيها عمري كلّه. ولكن «ينبغي» أن نعود إلى بلادنا. يجب أن نعيش في وسطنا ونشارك في حياته. إنَّ أمامنا صراعًا طويلاً يا عزيزي!

ورأى فؤاد يلتفت إليه، هو، ويسأله:

- لم تحدِّثني بشيء عن أنباء الوطن..

- لا أدري.. وجدت غرفتي قد أصبحت أضيق مما كانت.

فابتسم فؤاد بسمة هادئة، عميقة، وأجابه:

- بوركت أيُّها العزيز! إنَّ في هذا الشعور إرهاصًا بأنَّ دنياك التي كنت تعيش فيها دنيا ضيِّقة الحدود. إنَّك تنشد الآن السَعَة، وإنَّ هذا لهو شعور الجيل كلّه، جيلنا. إنَّ كل وطنٍ من أوطاننا ضيِّق، وإنَّ علينا أن نسعى لتوحيد هذه الأوطان إذا شئنا ألاَّ نحسّ بعدُ بالاختناق. هذا الذي شعرت أنت به في غرفتك الصغيرة، والذي سأشعر أنا به يوم أعود.

وقال وهو يتناول يد صديقه، مُقبلاً عليه:

- إنَّ علينا إذن أن نعمل يدًا واحدة يا فؤاد، وكم يسعدني أن نعمل معًا يوم نعود.

- إنَّ هذا يسعدني أيضًا يا عزيزي. ولكنَّك أنت في بيروت وأنا في دمشق، وسيعمل كلٌّ منَّا في ميدانه. لست أدري ما الذي سأعمله يوم أرجع، ولكنِّي أحسب أنِّي سأدخل الحزب الذي يعبِّر عن نزعاتنا وأمانينا. أنا أعتقد أنَّ العمل الحزبي هو من أنجح الأعمال وأثمرها في خدمة الوطن..

واتَّجه له فجأة أن يقول لصديقه:

- ولكن لِمَ لا نحاول أن نعمل هنا، في باريس، عملاً صغيرًا مشتركًا؟ لماذا لا نؤلِّف لنا رابطةً تشدُّنا فيما بيننا، نحن الطلاّب العرب في باريس؟

قال فؤاد وفي عينيه الدهشة:

ـ أيَّة فكرة رائعة هذه أيُّها الصديق! يقينًا إنَّ في نفسك لإشراقًا جديدًا..

ـ لا أدري الآن كيف يمكن أن تكون هذه الرابطة، وما الذي تستطيع أن تعمله. ولكنِّي أحسب أنَّ بإمكانها أن تؤدِّي بعض الخدمة لهؤلاء الشبّان المنتثرين في أربعة أرجاء باريس..

وتوقَّف فجأة ثم ساءل صديقه:

ـ أتذكر يا فؤاد ما قلته لي أنت نفسك، منذ أشهر طويلة، يوم حضرنا معًا مسرحيَّة «العادلون»؟ أليس بوسعنا أن نؤلِّف هذه الرابطة التي تحدَّثت عن حاجة هؤلاء الشبان إليها؟ هؤلاء الذين يبحثون عن أنفسهم؟ إنَّها فكرتك يا فؤاد..

ـ صحيح أنِّي تحدَّثت عن ذلك. ولكن حديثي ظلَّ في التجريد.

وأحسّ هو بإشعاع في عينيه بالذات:

ـ ما تقول في أن تجلس الآن إلى مكتبي الصغير هذا، ونبدأ في رسم الخطوط الأولى لدستور هذه الرابطة.«رابطة الطلاب العرب في باريس»؟ إنَّ أصدقاءنا سيجتمع عقدهم بعد أسبوع أو أسبوعين، فنحن اليوم في أواخر أيلول، وإنَّ بوسعنا أن نتَّصل بإخوان لنا كثيرين من هؤلاء الذين تجمعنا بهم وحدة الروح والقوميَّة والتاريخ واللُّغة والأرض. فلماذا لا نحاول أن نوقظ نزعاتنا الكامنة في أعماقنا، ونصهرها في بوتقة واحدة؟

وقال فؤاد:

ـ انهض فأعدّ لنا القهوة لنستعين بها على السهر.

وبعد دقائق قليلة، أحسّ بذراع صديقه فوق كتفه، بينما كانت يده ممسكة بالقلم.

❖

ـ حسبنا الليلة هذا.

ونهض فؤاد، ومدَّ يده يصافحه:

ـ أشكر لك هذا الاقتراح. إنَّ تحقيقه يملأ قلبي غبطة ورضى.

وشعر بكفّه تستبقي يد صديقه، فتشدّ عليها بقوَّة وإخلاص:

ـ بل أنا الذي أشكر لك يا فؤاد أنَّك أيقظتني على دنيا لم أكن أحسّ بها. إنَّني أريد أن أكون عربيّاً شريفًا.

- ٧ -

لم يعجب ألاَّ يُفاتحه صديقه فؤاد بأمر جانين مرّة واحدة، منذ عاد إلى باريس، أو بالأصحّ، منذ تحدَّث إليه بالتلفون من محطة «الأنفاليد». ولم يعجب أنَّه هو نفسه لم يرو لفؤاد شيئًا. بلى، قال له عبارة واحدة. منذ يومين اثنين: «لم أعثر على أثرٍ لجانين». فنظر إليه صديقه هنيهة ثم انصرف إلى الكتاب الذي كان يقرأ فيه، كأنَّ الأمر لا يعنيه. وهو لم يقل له ذلك، بدافعٍ من تقديم حساب عن مسلكه. إنَّه يشعر منذ حين أنَّ ضميره هو وحده الذي يحاسبه. ولا ريب في أنَّ صديقه قد فطن إلى ذلك، فامّحى، كيلا يوحي له أيّ وهمٍ بالرقابة.

وكان قد قطع كلّ أمل برؤية جانين مونترو. فقد ظلّ ينتظرها أيّامًا في غرفته، في غرفتها. ولقد عايشها ليالي طويلة أرِقَ فيها حتى انهدّت قواه، وذهبت شهوته للطعام، وانصرف عن كتبه، على شدّة رغبته في العمل. وقد ترقَّب، زهاء شهر، أن يأتي جوابٌ على رسالته الأولى التي بعث بها إلى ذوي جانين في الألزاس، ثم قطع أمله من وصول هذا الجواب، فكتب إليهم رسالة ثانية أتاه جوابها بعد يومين بأنَّ جانين لم تعد إلى الألزاس منذ غادرت قريتها في العام الماضي، ثم كتب إلى خالتها في «الهوت سافوي» فورده جواب جافّ من زوج الخالة بأنَّهم لا يعرفون شيئًا من أمر جانين، ولا يودُّون أن يعرفوا شيئًا..

ولم تكن تيريز، خادمة الفندق، لتشير أيَّة إشارة إلى تلك الفتاة التي أيقنت أنَّه كان يحبُّها، وكأنَّها كانت تخشى أن تؤذيه. ولم يطلب منها هو أن تحدِّثه عنها. ثم مرَّت الأيام بطيئة ضجرة، فكان الأمل بلقاء جانين يموت كل يوم جزءًا فجزءًا، فيغمر قلبه بظلام كئيب كان يدعوه إلى اليأس لولا ما أخذ به نفسه من الجدّ في إتمام رسالته، ولقاء أصدقائه، واستشراف آفاق وطنه ومجتمعه.

❖

ولقد أقبل على «الرابطة» بحماسة بالغة جميع الأصدقاء وكثير من الطلاّب العرب كانوا يتلقّون العلم في باريس. على أنَّ عددًا من الطلاّب يدينون بالفينيقيَّة والفرعونيَّة والشعوبيَّة، وعددًا آخر ينكرون فكرة القوميَّة، لم يتردَّدوا في إعلان عدائهم لهذه الرابطة، فقاطعوا اجتماعاتها التي كانت تعقد في ركن من أحد مقاهي «بولفار سان جرمان»، وراحوا يناهضونها في كلّ مجتمع يحضرونه.

وقد عرَّفه فؤاد إلى فئة من مواطنيه، كانت لهم خدمات مشهودة في حقل التعليم، وهم قد قَدِموا العاصمة الفرنسيَّة لاستكمال التخصُّص العالي في الفلسفة والأدب. وسرعان ما شعر بحاجتهم إلى هذه الفئة الواعية التي تستطيع أن ترسم خطوطًا واضحة في التوجيه الوطنيّ والقوميّ. ولم تمض أسابيع حتى انضمّ إليهم عدد من الطلبة المصريِّين والعراقيِّين والجزائريِّين، فأجمع هو وصديقه على وجوب إقامة محاضرات عامَّة يلقيها أفراد الرابطة فيما بينهم، ولم يجدوا صعوبة في الاجتماع بقاعة «الجمعيات العالمة» القائمة في شارع قريب من محطة «الأوديون»، فإذا هي محاضرات قوميَّة واجتماعيَّة تتناول قضاياهم الماسَّة وتعالجها في كثير من المنطق والعلم والإخلاص أيضًا.

وهو لن ينسى من هذه المحاضرات اثنتين هزّتاه وهزّتا جميع إخوانه: الأولى في «موقفنا من المعسكرين، الغربيّ والشرقيّ»، وقد ألقاها

شـابٌّ سـوريّ ممن عـانوا التـدريس، يدعى «عـبـد البـاقي» ودعـا فيـهـا إلى وجوب الحياد بين الشرق والغرب، معتمدًا على مقتضيات المصلحة العربيَّة العليا. والثانية في «مقوِّمات الشخصيَّة العربيَّة» ألقاها شاب مصريّ يدعى «أنور» فنَّد فيها الدعوات التي ترمي إلى إضعاف الذات العربيَّة، بانحراف إلى اتِّجاهات انعزاليَّة أو ارتدادات إلى ما قبل التاريخ، لم يبق لها أيّ أثر في لغتنا أو تاريخنا أو مصلحتنا الراهنة، ثم رسم المُحاضر خطوط هذه الشخصيَّة من غير أن يعميه التعصُّب عن نواحي ضعفها.

❖

وعاد مطعم «لوي لوغران» فجمع الأصدقاء من جديد، ولكنَّه أنقص منهم، وأضاف إليهم. أنقص «ربيع» الذي كان محجوزًا في تونس، والذي لم يكن أحد من الأصدقاء يشكّ بأنَّه لن يقصِّر في أن يعمل هناك لصالح بلاده خيرًا مما قد يعمله هنا، وأنقص «فرانسواز» التي نشب بينها وبين فؤاد يومًا نزاع ضارٍ حول السياسة الفرنسيَّة في أفريقيا الشماليَّة، فرأيا من الخير أن يفترقا، وأن يضحِّيا بحبِّهما، أو ما كانا يحسبانه حبّاً، من أجل عقيدتهما. وقد أضاف «لوي لوغران» إلى الأصدقاء «أنور» المصري، و«فرحات» الجزائريّ، وكانوا جميعًا يشتركون في مناقشة شؤون البلاد، سياسيّة كانت أم اجتماعيَّة أم اقتصاديَّة أم ثقافيَّة، ويدلون بملاحظاتهم على المحاضرات التي كانت تُلقى أسبوعيّاً في قاعة «الجمعيَّات العاملة».

وقال له فؤاد يومًا:

ـ وأنت ما بالك في صمت، تدعو الناس إلى أن يحاضروا، وتظلّ أنت في الظلام؟

ثم حدَّثه بأنَّه اطّلع أخيرًا على الخطوط الأولى لفصلٍ في رسالته التي يُعدّها عن الشعر العربيّ الحديث، وأضاف بأنَّه فصل هامّ، ما دام يتحدَّث عن «أثر مأساة فلسطين في الشعر العربيّ المعاصر» وحثّه على أن يُنجز وضعه ويلقيه ذات مساء محاضرة.

ولقد انصرف طوال أسبوعين لإتمام هذا الفصل من رسالته، وشعر بسعادة غامرة إذ علم أنَّ أصدقاءه كانوا راضين عن محاضرته التي ألحّت إلحاحًا خاصًا، حين بيَّنت تقصير الأدب العربي الحديث إجمالاً في تصوير المجتمع الذي تعيش فيه الشعوب العربيَّة، على عدم وعي عدد كبير من الأدباء لرسالة فاعلة.

وقد رحَّب الأصدقاء ظهر يوم بـ «عبد الباقي» يقبل دعوة أحدهم إلى «لوي لوغران»، وكان حارس الباب يتغاضى أحيانًا عن دخول «الغرباء» فجلسوا يستمعون إلى حديثه الموزون العميق، ويسألونه في كثير من الأمور. وقد سأله، هو نفسه، عن رأيه في فائدة هذه المحاضرات التي تُلقى كل أسبوع، فأجاب «عبد الباقي»:

ـ لا شكّ في أنَّ فائدتها عظيمة. وحسبُها أن تطرح القضيَّة فتثير أذهاننا وتدعونا إلى التفكير بها، إن لم تتوصَّل إلى حلّها بالفعل.

ثم التفت عبد الباقي إلى فؤاد يسأله:

ـ إنَّ الإخوان في شوق إلى الاستماع إليك، ولا شكّ في أنَّ لك من شعورك القوميّ المرهف ما هو كفيلٌ بإثارة أرفع المشاعر في نفوس المستمعين. فأيّ موضوع تنوي أن تحاضر فيه؟

قال فؤاد:

ـ إنَّ بودّي أن أتكلَّم إلى إخواني منذ بدأت هذه المحاضرات، ولكنّي شُغلت في الأسابيع الثلاثة الأخيرة بالعمل الصحفيّ في مجلة جديدة يصدرها هنا بالفرنسيَّة تاجرٌ من مواطنينا طلب إليَّ أن أشارك في تحريرها. على أنّي اكتشفت أمس الأول فقط أنَّ صاحبنا لم يصدر مجلَّته إلاَّ لغاية تجاريَّة محض، وأنَّه مستعدّ للتضحية بكلّ شيء في سبيل ذلك، ولم يكن لي بدٌّ من الاستقالة، على شدَّة حاجتي إلى المبلغ الذي كان دفعه لي!

وضحك فؤاد، وقد احمرّ وجهه، كأنَّما يؤذيه أن يذكر المال في معرض القضيَّة القوميَّة، ثم أضاف:

ـ أنا الآن على استعداد لإلقاء محاضرة متى شئتم..

وتمَّ الرأي على أن يُلقي فؤاد محاضرته بعد أسبوعين من ذلك التاريخ.

وفيما كان الأصدقاء يأكلون قطعة الحلوى الأخيرة، التفت أحمد يسأل صبحي:

ـ وأنت يا أخا العرب.. متى..

وهنا سارع عدنان يجيبه:

ـ أيّ مزاح هذا يا أحمد! بِمَ عساه يُحدِّثنا، عزيزنا صبحي؟ اللَّهم إلاَّ إذا أردتم محاضرة للترفيه! فهو أبرع من يحاضر في موضوع كموضوع «أصول اقتناص الفتيات الباريسيَّات!»

فانفجر الجمع ضاحكين، ثم استأنفوا ضحكتهم حين علَّق صبحي:

ـ أنا مستعد للمحاضرة في هذا الموضوع، إذا كنتَ مستعدًا أنت يا أخي عدنان للتحدُّث إليهم عن «فوائد الصلاة والصيام، في البلاد الحرام!»

❖

ولكن «لوي لوغران» هذا الذي يجمعهم ويحنو عليهم، ما لبث أن أنقصهم واحدًا، كان آثرهم إلى كلّ قلب: فؤاد.

إنَّه ما فتئ يذكره الآن، وهو قادم إلى فندقه صباح ذلك اليوم، قبل أن يقصد مكتبة السوربون، وكان ذلك بعد بضعة أيام من لقائهم ذاك في مطعم الطلاّب.

لقد طرق عليه فؤاد باب غرفته، وإذا على وجهه سحابة همّ يائس، وإذا هو ينبئه من غير تريُّث أنَّه تلقَّى ظهر أمس برقيَّة من أهله تنعي أباه وتطلب حضوره على الفور.

- جئت أودّعك يا عزيزي، وأرجو إليك أن تعتذر لي من جميع الأصدقاء أنَّني لم أتمكَّن من توديعهم واحدًا واحدًا على شدّة رغبتي في ذلك. وسوف يقدِّرون ظروفي.

فظلَّ هو صامتًا كأنَّما أصيب من مفاجأة النبأ بمثل البكم. وحين تنبَّه إلى ذاته، وفؤاد ينظر إليه في حزن، أعجزه أن يقول شيئًا، ولكنَّه إذ رأى يدًا ممدودة، أدرك أيّ موقف هو فيه. فؤاد.. أصحيح أنَّه سيغادره؟ فؤاد، ذاته الثانية..

- انتظر لحظة يا فؤاد، ريثما أرتدي ثيابي، وأرافقك.

ولكن صديقه آلى عليه ألاَّ يصحبه، وألحَّ في ذلك إلحاحًا شديدًا، وقال إنَّ السيّارة تنتظره عند باب الفندق، وأن لا فائدة من مرافقته، فإنَّ الطائرة ستقلع عمَّا قليل..

ثم امتدَّت إليه يده مرّة أخرى مبسوطة الأصابع، فأحسَّ هو بأنَّه يندفع، فيأخذ صديقه بين ذراعيه، ويضمّه إليه في شدَّة ولهفة. وحين يتراجع، يرى دمعة مترقرقة في محجري فؤاد، ثم يسمعه يقول:

- خُذ كفِّي أيُّها العزيز وصافح كلاً منهم، عدنان وصبحي وأحمد وعبد الباقي.. وفرحات والجميع. صافحهم جميعًا بيدي هذه، وقل لهم إنَّ فؤاد سيستمدّ دائمًا من ذكراه لكم العون على النضال الذي تدعوه إليه البلاد.

وانفتل فؤاد، فهبط السلَّم مسرعًا.

ورآه بعد لحظات، من نافذة غرفته، يلوِّح له لحظة، ثم يستقلّ السيّارة، فما تلبث أن تختفي به عند منعطف شارع «سوفلو».

ونظر هو إلى يده، هذه التي صافحتها يد فؤاد، فخيِّل إليه أنَّها لم تكن يده، ولا يد فؤاد، وإنَّما كانت يد عشرات يعرفهم وألوف لا يعرفهم، تعاهدوا على الصراع من أجل الوطن العربيّ الكبير.

- ٨ -

وعاد إلى رسالته يدفعها الدفعة الأخيرة نحو غايتها.

وكان قد قابل أساتذته، وأطلعهم على عددٍ وافرٍ من الفصول، ولقي جهدًا كبيرًا في إقناع الرئيس بمناقشة الرسالة في دورة حزيران القادم،حتى أنَّه استحصل من أجل ذلك على استعجال رسميّ من وزارة المعارف لم يجد الرئيس بدّاً من النزول عنده.

وأحسّ بعد ثلاثة أشهر أنّ حمّى العمل والرغبة في إنجاز الرسالة قد استغرقته في جوٍّ من الانعزال عن كلّ ما حوله. وقد كان يبكر في نهوضه صباحًا، فيجلس إلى مكتبه، حتى يُحسّ لذعة البرد، وإذ ذاك يقصد مكتبة السوربون الدافئة، فيقضي فيها الساعات الطوال، لا يغادرها إلاَّ عند الظهيرة، حين يقصد «لوي لوغران» أو يبتاع بعض السندويش، من مقهى قريب يتبلَّغ به حتى المساء، ثم يعود إلى المكتبة، ولا يغادرها إلاَّ حين يُقرع جرس الانتهاء عند الساعة العاشرة ليلاً، ويقفل آنذاك إلى غرفته، فيتناول بعض الطعام الخفيف الذي يحتفظ به. فإن آنس في نفسه القدرة على المضيّ في العمل، عاد إلى مكتبه الأثير، وإلاَّ أوى إلى فراشه، وهو يحلم بالنهوض الباكر.

على أنَّه كان يسمح لنفسه بالراحة يوم الأحد، فينام حتى الضحى، ثم يقصد فندق «البانتيون» فيدقّ باب صبحي الذي كان ينهض فيفتح له، ثم

يعود إلى فراشه مهمهمًا. وكان هو مضطرًا كلّ مرة إلى ملء كأس من الماء يرشّ به وجه صديقه، أو إلى ضربه من فوق اللحاف، حتى تكلّ يداه، فيفيق صبحي إشفاقًا عليه. وقد حدث، غير مرّة، أنَّه لم يكن يسمع جوابًا، إذ يدقّ باب صديقه، فيفهم، ويمضي من غير أن يُلحّ. أما إذا فتح له صبحي، فسرعان ما يرتدي ثيابه، ويقصدان ضاحية «فانسين» حيث يقضيان نهارهما بصحبة عدنان عند شواطئ «نوجان».

وحدث أنَّ صبحي سأله يومًا بعَجب:

ـ أتراك حقًا زهدت بالمرأة إلى هذا الحدّ؟

فابتسم ولم يجب، وذكر أنَّه لم يُسقط المرأة تمامًا من حسابه، فهو قد تعرَّف إلى فتاتين أو ثلاث، لقيهنّ هنا أو هناك بالمصادفة، ولم يجد كبير مشقّة في سوْقهن إلى غرفته. ولكنَّ الأمر كان أمر ليلة أو ليلتين، ثم يُعلّق في الهواء موعد اللّقاء القادم. وكان يُخيَّل إليه كلّ مرّة أنَّه يسمع صوت فؤاد يجيبه على سؤاله فيقول: «لقد أضحت المرأة أحد همومي، ولكنَّها ليست همّي الرئيسيّ..»

على أنَّه لم تفتْه يومًا محاضرة من محاضرات الرابطة التي استمرَّت، وإن كانت قد قلّت، لاقتراب مواعيد الامتحانات. وكان يخرج دائمًا منتشيًا بما أثارته المحاضرة في فكره من أمور ونزعات يودّ لو يملك الوقت ليناقشها طويلاً بينه وبين نفسه. إنَّ شاغله الأول أنْ يتمّ رسالته.

وقد أتمَّها، رسالته، في أوائل شهر نوّار، ثم حملها إلى السوربون مرتعش اليدين، فنال عليها الإذن بالطبع. وإن هو إلاَّ أسبوع حتى تمّ ضربها على الآلة الكاتبة. وقد أخافه وأفرحه في وقت واحد أن يأتيه تحديد موعد مناقشتها بعد ثلاثة أيام من تسليم النسخ المطبوعة إلى أساتذته، أعضاء لجنة المناقشة، فإذا هو الثلاثون من الشهر نفسه، نوّار.

وسرعان ما طفر إلى شفتيه السؤال: «تحديد موعد المناقشة، ألا يعني أنَّه أصبح بالإمكان تحديد... العودة؟»

وبعد ظهر ذلك اليوم بالذات، كان في شارع «الأوبرا» يقطع تذكرةً مخفَّضة، من تذاكر الطلاّب، في باخرة إيطاليَّة تغادر ميناء «جنوى» في العاشر من حزيران لتبلغ بيروت بعد خمسة أيام.

ووقف يقلِّب التذكرة بين يديه. وذكر عودته الأولى، منذ عام، ما أطوله من عام، وما أرهقه! وما عساه أن يكون قد أصبح، ذلك الشابّ الذي كانه منذ عام؟

واستقلّ الأوتوبيس رقم ٢٧ وعاد إلى الحيّ اللاتينيّ، فنزل أمام اللكسمبورغ، ثم قفل عائدًا إلى مقهى «الكابولاد» آملاً أن يلقى بعض أصدقائه. ولكنَّه لم يجد أحدًا منهم، فجلس على كرسيّ في الغرفة الزجاجيَّة من المقهى ينظر إلى المارَّة في شارعي «سوفلو» و«سان ميشال». وسمع بعد لحظات بائعة الصحف تبسط الطبعة الجديدة من «فرانس سوار» و«لوموند» وتنادي عليها، فخرج فابتاع نسختين، وعاد إلى مجلسه. وكان قد اعتاد أن يفتح الصحيفة، أوَّل ما يفتحها، على صفحة الأنباء العالميّة، ليقرأ تلك الأسطر البخيلة من أنباء الوطن. وطوى الصحيفتين بعد دقائق. ليس من جديد. الجامعة العربيَّة لا تزال تحتجّ. توقّع انقلاب جديد في سوريا. مظاهرات ضدّ السياسة الاستعماريَّة في العراق. اللاجئون الجائعون، الطائفيَّة في لبنان. الإقطاع. الاستثمار.. الـ..

وذكر مرة أخرى ذلك الصوت الحبيب البعيد: «إنَّ أمامنا صراعًا طويلاً، يا عزيزي!»

وسمع نقرةً على الزجاج، خلف رأسه، فالتفت. وابتسم لنصري. أوه.. مرّ وقت طويل لم يرهَ فيه.. رآه مرتين اثنتين بعد جلسه «البوكر» تلك. ووقف نصري أمامه، لا يدني كرسيّاً فيجلس، كأنّما هو عَجِل.

ـ أنهيت إذن رسالتك، وستناقشها في آخر هذا الشهر. حسنًا. وماذا ستفعل بعد ذلك؟ ستعود إلى الوطن؟ أصحيح ما تقوله؟ إنَّك تمزح دون ريب. ولماذا تعود؟ ماذا في الوطن؟ أيتاح لك أن تظلّ هنا، ثم تذهب إلى هناك؟ حرّية، وانطلاق، وتسلية، ونساء.. وهناك، أيكون غير العبوديَّة، والتأخّر؟ إنَّك حقًا لمجنون!

وقهقه نصري، وانفتل يودّ الخروج، ولكنَّه عاد يسأله:

ـ أتقوم معي إلى «البيت اللبناني»؟ إنَّ الإخوان ينتظرونني.. ما رأيك في أن «تتسلَّى»؟

ومضى نصري مسرعًا، حين اعتذر هو بأنَّه ينتظر أحد أصدقائه ثم رآه من خلف الزجاج، مصعدًا في شارع «سوفلو». وأحسَّ أنَّ عينيه تتبعانه بنظرة احتقار.

ولم يلبث طويلاً حتى رأى رجلاً يعرفه، وإلى جانبه فتاة يبدو عليها الاستهتار. إنَّه معلِّم متزوِّج في حوالى الأربعين خلّف امرأته وأولاده الأربعة في الوطن ليُعدّ شهادة في التاريخ. وها هما عامان يقضيهما في باريس دون أن يظفر بشهادة. وذكر حديثه إليه يومًا وتعبيره عن شوقه إلى امرأته وأولاده وحبّه الملهوف لهم. وتابعته عيناه، وعن يمينه الفتاة تضحك وتتخلَّع في مشيتها. وخُيِّل إليه أنَّه ما يزال ينظر إلى نصري..

ثم قام بعد أن دفع ثمن كأس البيرة، واتَّجه إلى غرفته حيث جلس إلى مكتبه، وفتح رسالته لينقِّح فيها بعض أخطاء وقعت في الضرب.

❖

وكانت رسالته مفتوحةً أمامه، وهو ينظر إلى لجنة الأساتذة على منبرهم يستمعون إليه يقدِّم لموضوعه وكان يشعر بأنظار أصدقائه في قاعة «ليار» خلفه، تستقرّ على رقبته وظهره ورأسه وشعره. لكأنَّها تبعات تلقى على عاتقيه.

واستمرَّت المناقشة زهاء ثلاث ساعات، دافع فيها وردّ ما وسعه اجتهاده. ولكنْ أثلج صدره أنَّ المستشرق، رئيس اللجنة، قد نوَّه بما أوْلته الرسالة من عناية خاصّة لوضع كلّ أثر شعريّ مدروس في موضعه من مجتمعه وزمنه.

وأقبل عليه أصدقاؤه يهنِّئونه باللقب الذي أحرزه والدرجة التي شفعت لذلك اللقب.

والتفت هو إلى صبحي وعدنان يقول لهما:

- العقبى لكما في أواخر حزيران.

فيجيبه صبحي وعلى وجهه حزنٌ متكلَّف:

- سامحك اللّه أيُّها الصديق! أمن الضروري أن تذكِّرنا بهذا الموعد الذي سنريح فيه الدكتوراه ونخسر الحيّ اللاتيني؟!

وخرجوا من السوربون يضحكون وهم يحيطون به، فيشعر بحبّه لهم يبلغ أبعد غايته. ثم أبلغه «عبد الباقي» أنَّهم جميعًا يدعونه ذلك المساء إلى تناول العشاء وإحياء سهرة عربيَّة محض في شقّة عبد الباقي نفسه، احتفالاً بحصوله على الشهادة.

وكانوا على وشك أن يتفرَّقوا لشؤونهم، وهم عند ملتقى «سان جاك» و«روديزيكول»، حين أبطأ أحمد، فلاحظ هو أنَّه يترقَّب انفراط الأصدقاء، حتى إذا توزَّعتهم المنعطفات قال له أحمد:

- إنَّ في جيبي اليوم ما يتيح لي أن أوفِّر عليك تذكرةً من تذاكر مطعم «لوي لوغران».

- لم أفهم ما تقصد؟

- ليس هذا بعجيب! ألم تصبح دكتورًا؟

ثم استطرد أحمد من غير أن يبتسم:

ـ إنَّني أدعوك إلى تناول طعام الغداء في مقهى «البلقان». ثم إنَّ لك عندي نبأ أرهقني حمله طوال هذين الأسبوعين. وقد حرصت على ألاّ أبلِّغك إيَّاه إلاَّ بعد مناقشة رسالتك.

وأخبره صديقه أنَّه رأى، في هذين الأسبوعين، جانين مونترو ثلاث مرات.

ـ ٩ ـ

حين بلغا نهاية السلّم،شاعت في أنفيهما من جوف الكهف رائحة عفن قوية، كالتي تنبعث من غرفة طال إغلاقها. وكان الكهف كهف «برغولا» في حي «سان جرمان ديبريه» ببوليفار سان جرمان.

وقبل أن يتّخذا مجلسهما أجال في الكهف نظرة دائرة، وهو يُحسّ خفق صدره، ثم مشى متمهّلاً يتبع أحمد. وكان الكهف قاعة صغيرة مستطيلة، وإن كانت جدرانها غير مستقيمة. وكان يقوم في زاوية منها منبرٌ واطئ جلس عليه أعضاء فرقة موسيقيّة، واحتلّ القسم الأكبر منه بيانو مغبرّ. وفي زاوية أخرى، تجاه المدخل تقريبًا، أقيم المشرب. وقد تُركت في وسط القاعة حلبة صغيرة للرقص لا تتّسع لغير زوجين. أما السقف، فقد تدلّت منه زجاجات شمبانيا فارغة تراكم عليها الغبار حتى تجمّد. وأما الجدران، فقد نتأت فيها أحجار وصخور كالتي تُرى في كهوف الجبال.

ولم يكن في الكهف،حين دخلاه، غير زنجيّين وشابّ طويل أشقر يجلس إلى مقربة من فتاة تلبس نظّارتين، ولا تقلّ عنه طولاً. إنّهما دون ريب أميركيان يزوران حيّ «سان جرمان ديبريه» في الليلة الأولى من وصولهما إلى باريس.

ـ لا بدّ أنّنا قد بكرنا في المجيء.

وهزّ رأسه موافقًا على ما قاله أحمد. ليست هي المرَّة الأولى التي يدخل فيها هذا الكهف. دعاه مرّة قريبٌ له زار باريس إلى قضاء سهرة فيه. وقد عرف سواه من كهوف سان جرمان، ولكنَّه كان يخرج غالبًا وهو يكاد يختنق، ورأسه ما ينفكّ يدوي بموسيقى الجاز، هذه التي بدأت الآن هيّنة هادئة، كأنَّما تنتظر الروَّاد.

وكان مجلسه هو يتيح له أن يرى الداخلين. وقد رأى بعد قليل فتاة تطلّ من الباب، ثم ترفع ذراعيها محيّية الزنجيّين، وتدلف إلى الكهف. كانت ترتدي «بنطلونًا» مزرقّ اللون مردود الردنين، ضيّقًا لدى الردفين، وقميصًا مخطَّطًا بالأحمر والأزرق مشقوقًا عند الصدر، مشمّر الكم حتى المرفقين. وكان شعرها مشدودًا إلى خلف بشريط أحمر، في غير ما أناقة.

وقد رآها تتَّجه إلى الداخل، وهي تكاد تقفز قفزًا، حتى إذا بلغت مجلس الزنجيَّين، مدَّت إليهما يديهما تصافحهما، وهما جالسان لا يريمان، ثم تأخذ في التحدُّث إليهما بصوت مرتفع.

- تزعم أنَّها من «الوجوديَّات»، هؤلاء اللواتي يعمرن هذا الحيّ.

ويضحك أحمد، ثم يردف:

- اسمع.. سألت إحداهنَّ مرّة «ما معني الوجوديَّة التي تدينين بها أنتِ ورفيقاتك؟» فأجابت «أوه.. أن يعيش الإنسان هكذا، عيشة متحرِّرة من كلّ شيء بلا مسؤولية!»

وهزّ أحمد رأسه وهو يقول:

- مسكين سارتر، كم يجني عليه هذا النوع من الفتيات والشبَّان!

ثم ينظران، فإذا الفتاة بين ذراعي أحد الزنجيَّين يراقصها. ولا تمضي دقيقة حتى يكون بصرهما قد تعلَّق بهذين الجسمين المرنين، ينثنيان ويقفزان، ويتلويَّان وينقصفان، ويمرّها تحت ذراعه، ويمرّ بين ساقيها وهما يتصايحان ويردِّدان بعض أنغام الموسيقى الهائجة، النابحة، المجنونة..

وحين تكفّ الموسيقى فترة، تتّجه الفتاة إلى المشرب، فإذا عليه شابٌ كثيف الشعر منبوشه، كأن يد الحلاق لم تمسّه منذ أشهر، وشارباه يكادان أن يدخلا في فمه، وحذاؤه صندل مفتوح تبرز منه أصابع قذرة. وتحيّيه الفتاة وتجلس، فيطلب لها كأساً.

وما لبث الكهف أن غصّ بالحضور من كلّ جنس ولون، فتلبّد الجوّ بالدخان، وضاقت الصدور في الأنفاس.

ـ إنَّ صدري يضيق يا أحمد..

ـ أوه.. اصبرْ يا عزيزي! ألا تريد أن تراها؟ إنَّني في المرَّة الأولى لم أرها قبل الحادية عشرة. كانت ترقص كهذه، وتهزج ضاحكة. وفي المرّة الثانية لم أرها داخلة، فقد كان الكهف غاصّاً. ولكنّي رأيتها خارجة حوالى منتصف الليل برفقة شابّ طويل لعلّه من أهالي الشمال. ثم مضت أيام أربعة أو خمسة لم أرها فيها. من يدري، ربَّما لازمت ذلك الشماليّ طوال هذه الأيام وطوَّفته باريس كلّها. أما أنا، فكنت قد لقيت هنا «إيفيت» وشغلتُ بها عن كلّ شيء. وأمس الأول فقط، رأيت جانين للمرَّة الثالثة. ولكن ما كاد بصرها يقع عليّ حتى وجدتها تسرع بالخروج من الكهف، فأدركت أنّها لم ترني في المرّتين الأوليين.

وظلاّ، أحمد وهو، جالسين في «برغولا» ينتظران «إيفيت» و«جانين» حتى الواحدة بعد منتصف الليل. وخرجا تَعِبين ثائري الأعصاب. لكأنَّهما اتفقتا على ألاَّ تأتيا تلك الليلة.

وفي الليلة التالية، أتت إيفيت، فجلست إلى طاولتهما. وقال لأحمد وهو يودِّعه وصديقته في «سان ميشال» إنَّه لن يعود ليلة الغد إلى «برغولا».

ولكنَّه أحسّ قدميه تقودانه إلى الكهف حالما بلغت الساعة التاسعة. شعر بقوّة غريبة تدفعه، فنهض يسلك الطريق نفسه. وفيما هو جالسٌ،

أقبلت عليه إحداهنّ، إحدى هاتيك «الوجوديّات» تسأله:

- أراك هنا منذ ثلاثة أيام. أتدعوني إلى شرب شيء؟

وتجلس قبالته، ثم تصيح بالخادم أن يأتيها بقدح «جن»، فتشربه على مهل، وهي تسأله بعض أسئلة تافهة، ثم تفرغ القدح وتنهض لتراقص أحدهم.

ورجع في الليلة الرابعة، وهو موقنٌ بأنَّه عائدٌ كلّ ليلة، حتى يلقاها. كان كلّ ليلة يزداد إحساسًا بأنَّ لضميره حسابًا هنا، ينبغي أن يؤدِّيه.

وفي تلك الليلة رأى وجهها الشاحب، وجه جانين، يطلّ من باب الكهف، حتى إذا رأته تراجعت بهدوء، كأنَّما كانت تترقَّب رؤيته، ولكنَّ وجهها اكتسى بالخيبة وظلَّت مستندة إلى الباب لحظة، ثم استدارت ببطء وخرجت.

❖

وفي المقهى الذي دعاها إلى الجلوس فيه، ظلاّ صامتين، مطرقين، لا ينظر إليها ولا تنظر إليه. كأنَّ كلاً منهما مجرمٌ وضحيَّة. وأحسّ أنَّ كلّ كلمة يقولها، أو حركة يأتيها، ستكون مسرحيَّة. وذكر ما قالته له ليلةً، وهما يرقصان في قاعة السوربون، حين شاء أن يعبِّر عن سعادته بها. الآن أيضًا، سيعجز الكلام عن التعبير. وفي إطراقه، رأى قدميها. كانت تنتعل حذاءً مسكينًا. وحين رفع عينيه، التقتا بعينيها، عينيها الزرقاوين الشفَّافتين، كم كانتا مُجْهدتين. لكأنَّها استبدلت بهما سواهما. وأسبلتهما. إنَّها لا تريد أن تراني. وأحسَّ بأنَّ الصمت قد طال. ولكنَّه لم يكن يدري ما ينبغي أن يقول، حتى رآها تنهض، فمدّ يده، وأمسك ذراعها بقبضة شديدة.

- ماذا تريد منِّي؟ دعني أتابع طريقي.

فأدرك سريعًا ما تعنيه، ولكنَّه قال، كأنَّما هو يتجاهل:

ـ إلى أين أنتِ ذاهبة الآن؟

فلم تجب فورًا، ثم تمتمت:

ـ إلى غرفتي.

ـ إذن، أرافقكِ في الطريق.

وغادرا المقهى من غير أن يتناولا فيه شيئًا.

ولفَّهما الليل، ولكنَّه شعر بأنَّها كانت بعيدة عنه، وأنَّه كان يبتعد هو أيضًا عنها. ودلفت به إلى زقاق ضيِّق خلف مقهى «المابيّون» ثم رقيت بناء متشقِّق الجدران الخارجيَّة. وتبعها من دون أن تقول كلمة. ووقف عند باب صغير تفتحه بجهد وسط الظلام الدامس، ثم تمدّ يدها إلى اليسار فتضيء النور. ويدخل، فيغلق الباب، ويراها تخلع سترتها وترمي بها على سرير منخفض صغير قائم في الزاوية. وإذ ذاك رأى ثيابها. كانت ترتدي مثل اللِّباس الذي رآه في «برغولا». وأجال بصره في الغرفة. إنَّها نصف غرفتي، نصف غرفتها في «ليغران زوم». وبالقرب من السرير، كانت تقوم طاولة قصيرة القوائم. وفي الزاوية المقابلة أريكة ذات مرفقين، اتَّجه إليها متمهِّلاً، فانخسفت به حين اقتعدها.

وظلاّ صامتين، هو غارق في الأريكة، وهي أمام مرآة صغيرة في الجدار تحلّ شعرها. وتمتم باسمها، كأنَّما على غير رغبة منه. فالتفتت إليه في مثل الذعر، ثم عادت إلى المرآة. ففهم أنَّه لم يكن ينظر إليها.

وهي التي تكلَّمت بعد ذلك. فقد رآها تدنو من سريرها، وتُخرج من تحت وسادتها دفترًا كثيف الورق، سرعان ما عرفه.

ـ وعدتك مرةً بأن أطلعك على مذكراتي. خُذْ فاقرأ فيها حيث تشاء.

ومدَّت إليه الدفتر، وفي عينيها تعبيرٌ مغلق لم يدركه، فتناوله ووضعه على ركبته.

ثم أضافت جانين:

- حتى إذا مللت منها، أو قرأت ما يهمّك، فتعال نَمْ إلى جانبي. إنَّ السرير ضيِّق، ولكن سأتجمَّع في ركنٍ منه. إنَّني متعبة.

وارتمت على سريرها، وهي في ثيابها لم تخلعها، وتقلَّبت على جانبها الأيسر، قبالة الجدار وهي تردّ عليها الغطاء.

ولبث لحظة لا يتحرَّك، ثم أجال بصره مرّة أخرى في الغرفة الضيِّقة. لم يكن فيها مغسلة، ولكن طَسْت وإبريق في الركن الأيسر. ولم يكن فيها نافذة، ولكنْ فتحةٌ مربَّعة في أعلى الجدار. ولم يكن سقفها مستقيمًا، وإنَّما هو منحرفٌ هابط، كأنَّه امتداد للسطح المنحني. غرفة خَدم.

ثم التفت فرأى خلف الأريكة تمثال الأعرابيين موضوعًا على طاولة صغيرة تافهة. فأضاء مصباح التمثال، ثم نهض فأطفأ مصباح الغرفة. وعاد إلى مقعده، ففتح دفتر المذكَّرات ولم يلبث طويلاً حتى سمع أنفاس جانين.

وقد خيِّل إليه ذات لحظة أنَّها أنفاس الأعرابيين خلفه.

- ١٠ -

٢٤ تموز

«هذه رسالته بين يديّ، أعيد تلاوتها منذ وصلت إلى الفندق، فأنكر أنَّه هو كاتبها. إنَّ شخصًا آخر قد كتبها. ومع ذلك، فهذا خطّه. بدأت الآن أؤمن بهذا «القدر» الذي يؤمنون به، هم العرب، أشدّ الإيمان. لقد حدَّثني عنه طويلاً. إنَّه القدر المكتوب. وقد «كُتب» عليّ أن أعيش، في الشقاء.

ولكن ما الذي طلبته منه؟ لِمَ لا يأمرني بأن أسقط الجنين، فأنصاع من غير تردُّد؟ أتراه لن يعود إلى باريس؟ ليكن هذا: إنَّه لا يمنعه من أن يطلب إليّ الإجهاض. ليقل شيئًا فقط. ليُشعرني فحسب أنِّي لم أسقط من اهتمامه. كلَّما فكرت بأنَّ هذا خطّه، أعود فأنكره. ذلك الحبيب الذي أسبغ عليَّ عطفًا ووداً وحنانًا، فضلاً عن الحبّ، كيف يستطيع أن يقول هذا الذي حملته الرسالة؟ سأنتظر ثلاثة أيام أخرى لعلَّه يكتب لي هو نفسه. لعلّه.

٢٩ تموز

«هذه خمسة أيام تمضي على رسالته. لا جديد. لا يستطيع بعدُ أن أنتظر. سيفوت أوان الإجهاض. ويجب أن أتخلَّص من الجنين. يجب. إنَّ أمامي شقاء طويلاً. وليس بودّي أن أُخضع معي له روحًا بريئة. إنَّني ذاهبة صباح الغد للقاء تلك المرأة التي حدَّثتني عنها تيريز. أظنّ أنِّي سأنقطع

أيّامًا عن كتابة هذه المذكَّرات. سأرسل له الآن رسالة قصيرة أشكره فيها وأبلِّغه أنّي سأواجه مصيري بشجاعة.

٥ آب

«أشعر بأنَّ القلم يكاد يسقط من يدي. لم أر وجهي في المرآة، ولا أودّ أن أراه. هذا هو اليوم الثالث في المستشفى. أبلغني الطبيب هذا الصباح أنَّ الخطر الذي كان يتهدَّد حياتي قد زال. ليته.. لا.. لن أيأس من الحياة. لو لم أعرفه ليئست منذ زمن طويل. لقد ردّ إليَّ الثقة بالإنسان، ولكن.. لِمَ فعل ذلك؟ يا إلهي. لا أدري كيف أفكِّر.. إنَّني بحاجة إلى عونك. أو عون سواك. ليَعُدْ إليَّ، فلن أحدِّثه عن شيء. سأغفر له موقفه ذاك. ليرجع. وسأتفانى في حبِّه وخدمته. حسبي أن أراه إلى جانبي. أتراه يا إلهي يعود، قبل أن يفوت الأوان؟

٦ آب

«أشعر بضيق شديد إذ أفكِّر بأنَّه لن يكون في جيبي، إذ أخرج من المستشفى إلاَّ ألف فرنك. ماذا عساني أفعل؟ أين أبيت ليلي؟ لقد غادرت الفندق نهائيّاً، وعانقت تيريز، فبكت وهي تعانقني. ليس معي ستة آلاف فرنك أدفعها كل شهر. وأعتقد أنَّهم لن يقبلوني بعد في «البرنتان». ولكن لماذا أعذِّب شعوري منذ الآن. سأبصر طريقي جيِّدًا يوم أخرج من المستشفى وأنا حاملة حقيبتي هذه.

٧ آب

«زارني بعد ظهر اليوم فؤاد وفرانسواز. ما أشدّ احترامي لهذا الشاب. إنَّ في قلبه رصيدًا زاخرًا من النبل والرفعة والإنسانيَّة. ما أشدّ

سعادة فرانسواز به. إنَّ قلبي ليخفق غبطة إذ أذكر أنَّ في صدر ذلك البعيد إمكانيات غزيرة لا تحتاج إلاّ إلى تفتُّح. ويخيَّل إليّ أنَّ قيودًا كثيرة، لا أستطيع أن أحدِّدها تمامًا، تقف دون تفتيح تلك الإمكانيَّات. أحسب أنَّ الفرق بينه وبين فؤاد أنَّ هذا الأخير قد بدأ منذ حين يحطِّم تلك القيود. إنَّني أشعر الآن بأسًى عميق لإقدامي على الإجهاض. ما يدريني أنَّ ذلك الطفل الذي كنت سأنجبه لن يصبح يومًا كفؤاد أو كأبيه يوم يستيقظ على إمكانيَّاته؟

«شعرت بسعادة عظيمة لزيارة فؤاد وفرانسواز، لم نتحدَّث كثيرًا عنه. ولم يبقيا طويلاً، ولكنَّهما بثا في نفسي روحًا وأملاً.

٨ آب

«أتراني أخطأت في أن أقصّ لفؤاد كل قصَّتي؟ لقد زارني اليوم وحده، وحمل لي معه زهورًا بيضاء. وقد امتنعت أولاً عن البوح بأيَّة كلمة. ولكن حين وضع قضيَّة ثقتي به موضع الشكّ، لم أجد إلاَّ أن أروي له كلّ شيء. لم أتردَّد قط، بالرغم من أنَّ ثقتي ينبغي أن تزول بالناس. ولكنَّ فؤاد هو من طينة أخرى. عبَّرت له عن أصدق مشاعري. فلم ينبس بكلمة. وحين تركني بكيت، كأنَّما شعرت بأنَّه هو الذي سينقذني. إنَّني أشعر بإجهاد، وأريد أن أنام باكرًا.

١٧ آب

«حين لفظني باب المستشفى اليوم، شعرت بأنِّي أترك الملجأ الوحيد الذي يحمل لي بعض الأمل. كان بوسع فؤاد أن يزورني مرَّة أخرى. فلماذا لم.. وأمس فقط، خُيِّل إليَّ مرات عديدة أنَّ باب غرفتي في المستشفى يُفتح، ويُطلّ منه هو.. ذلك البعيد الذي يعود.. ولكن.. لا أحد. لا، لن أزور أحدًا من أصدقائه. إنَّ هذا يستحيل عليّ. وحتّى فؤاد. على أنِّي سأقضي

الليلة هنا، في غرفة من فنادق الحيّ اللاتيني. أريد أن أودِّع الحيّ الحبيب قبل أن... قبل أن أضيع... آه ليته هنا، إذن لصفعني. ولكنّي كنت أقبِّله لو فعل. لو كان هنا!

١٨ آب

«ستمئة فرنك. سأنفق منها اليوم أقلّ مبلغ ممكن للطعام. إنَّ السندويش يسدّ رمقي. ولكن أين تراني أنام إن أنفقتها كلّها على الطعام؟ أوه.. إنَّ في حقيبتي عددًا من الكتب. سأحملها اليوم إلى «كيوسك» على السين فأبيعها. وفي حقيبتي أيضًا ذانك الأعرابيان. لا، سيبقيان معي إلى الأبد. ليت أنَّنا الآن في تشرين. إذن لكان موعد امتحان الصحافة قريبًا ولانتظرت. ولكنَّ بيننا وبين تشرين شهرين بعد..

٢٢ آب

«زرت اليوم ثلاث صحف. أيَّة شهادة تحملين؟ لا، لسنا بحاجة».

٢٤ آب

«بعت اليوم الساعة والحلية».

٣ أيلول

«ألممت هذا المساء بفندق «ليغران زوم». لم أجرؤ على الاقتراب من الباب. خشيت أن يراني أحد، فسارعت بالاختفاء».

٥ أيلول

«ثلاثمئة فرنك. لم يبق شيء معي أبيعه».

٦ أيلول

«لم يَعُدْ».

٧ أيلول، صباحًا

«إنِّي جائعة»

٧ أيلول، ظهرًا

«إنِّي جائعة»

٧ أيلول، مساء

«إنِّي جائعة»

٨ أيلول

«دُعيت ليلة أمس إلى عشاء شهيّ في كهف «فيو كولومبيه» بحيّ «سان جرمان ديبريه»».

....

....

- ١١ -

- أحقٌّ ما تقوله؟ هل ظللتَ طوال الليل على الأريكة؟

ورأى عينيها جاحظتين فيه، وقد استوت في سريرها. كانت أقرب آنذاك إلى القبح بشعرها المنتثر وشفتيها الملطَّختين بالأحمر.

- ولكن لماذا؟ ألم أقل لك تعالَ فنم إلى جانبي ساعة تفرغ من القراءة؟

وظلَّ على صمته.

- أجل إنَّني أعرف لماذا لم تنم إلى جانبي. إنَّك ترفض أن تقترب منِّي أنا الملوَّثة..

وإذ ذاك فقط نهض من الأريكة، واتَّجه هادئًا إلى السرير، فجلس على حافته، وتناول كفّ جانين، ثم قال:

- لا تقولي ذلك يا جانين، فلست أنا الآن بأقلّ تلويثًا منك. إنَّنا الآن، نحن الاثنين، على صعيد واحد.

وأخذ يتكلَّم. وتكلَّم طويلاً، كأنَّه ظلّ صامتًا شهورًا. ولكنَّه لم يتكلَّم عن الماضي، ولا عن الحاضر. كان كلّ حديثه عن المستقبل. مستقبله هو، ومستقبلها هي. مستقبلهما معًا. وحين عبَّر عن رغبته في الزواج بها، بان في عينيها الخوف، فمضى في حديثه، فانقلب الخوف إلى تردّد بَرِم. وابتهل إليها أن تقبل به زوجًا، فانهارت بين ذراعيه تبكي.

وأخذ منها تذكرة هويّتها، وقال إنَّه منطلقٌ بها ليهيِّئ لها معاملة السفر معه، بعد خمسة أيام. وطلب إليها أن تجمع أمتعتها، وتنقلها إلى فندق «ليغران زوم» وتنتظره في غرفته، غرفتها، فإنَّ تيريز ستفتح لها بابها، ثم قبَّلها وخرج.

ولكنَّه لم يجدها في الفندق حين عاد عند الظهيرة. فاستقلّ سيارة إلى حيث تنزل، فألفى غرفتها مقفلة. وفي المساء أخذ يطوف بكهوف «سان جرمان ديبريه» فلم يرها. وسأل عدداً من أولئك الفتيات «الوجوديَّات» فأجابه بعضهنَّ بأنهنَّ لا يعرفن جانين مونترو، وأجابه البعض الآخر بأنهنَّ لم يرينها تلك الليلة.

وكانت تلك أشقّ ليلة عاناها في حياته كلّها.

وهبط في الصباح الباكر، وفي نيَّته أن يتَّجه إلى غرفة جانين خلف «المابيون» فيدركها قبل أن تخرج. ولكنَّه توقف في باحة الفندق، حين رأى رسالة في لوحة الغرف.

وكانت الرسالة من جانين:

«حبيبي

لا تذعرك هذه الكلمة أناديك بها، أنا الفتاة الضائعة التي تعرف. فإنَّها الكلمة الوحيدة التي تحتفظ في نفسي بالقداسة، لأنِّي لم أناد بها سواك أحداً. وعلى الرغم من الأوحال التي تلطِّخ وجودي، فإنَّ في نفسي بعدُ موضعاً لم يلحق به تلويث. ولئن كان جسدي مقسوراً على أن يقتات بخبز الناس، فإنَّ قلبي لا يقتات إلاَّ بحبّك.

«ومع ذلك، فكم كنت أتحرَّق شوقاً لأن أناديك بـ «خطيبي» أو «زوجي» بدلاً من حبيبي. والواقع أنَّ ذلك كان ميسوراً إلى لحظة قصيرة خلت، أعني قبل أن أتناول القلم لأكتب إليك هذه الرسالة، ثم أغادر باريس،

إلى حين على الأقل، حتى لا تحدِّثك نفسك بانتظاري أو بالبحث عنّي. وأنا أعجب هذه اللحظة كيف وَهِمتُ أن يكون باستطاعتي أن أناديك بخطيبي أو زوجي، وأن لا أسارع فأرفض ابتهالك إليّ أن أقبل بك رفيق حياة.

«سامحني يا حبيبي. فقد تجمَّع حبِّي كلّه لك، فتلاشيت بين ذراعيك حين طلبت منِّي أن أكون زوجتك، وتركتك تأخذ تذكرة هويَّتي التي ينبغي أن تردّها إليّ الآن. لقد نسيت كل شيء آنذاك. نسيت مَنْ أنا، ونسيت مَنْ أنت. أما أنا، فإنَّك تعرفني أعمق ممَّا أعرف نفسي. وقد أتاحت لك مذكّراتي أن تكشف ما كان منطويًا عنك في صفحات حياتي. إنَّك تدرك جيِّدًا أيَّ درك انحطّ إليه وجودي. ولعلّ نصيبًا من التبعة تقع على عاتق القدر، هذا الذي جعلك تصل إلى باريس متأخِّرًا يومًا واحدًا على الموعد الذي كان بالإمكان إمساكي فيه دون السقوط في الهاوية. على أنَّه لا يعنيني بَعْدُ أن أعيّن صاحب المسؤولية. ذلك هو الواقع: فلنواجهه كما هو، ما دمنا عاجزين عن تغييره.

«أنا الآن على يقين من أنَّ اجتماعنا أمس، في غرفتي المسكينة، يفرض عليّ فرضًا أن أردّ فكرة الاقتران بك. لقد اجتمعتُ أمس بإنسان لا أعرفه. بشابّ أنكرته، وكأنَّني ما لقيته من قبل قطّ. كان هذا شعوري بعد أن تركتني يا حبيبي. لقد استعدتُ ما حدَّثتني به عن المستقبل، وعن آمالك، وعن حياة الصراع الذي أنت مدعوٌّ إلى أن تعيشها في بلادك، فوجدت أنَّ دنياك التي تحلم بها أوسع وأعظم من أن يستطيع الثبات فيها شخصٌ ضعيف مثلي. إنَّك الآن تبدأ النضال، أما أنا فقد فرغتُ منه، ومات حسّ النضال في نفسي. لقد عجزت عن أن أقاوم أطول مما قاومت، فسقطت ضعيفة مهيضة الجناح.. أمَّا أنت، فقد قرأت أمس في عينيك استعدادًا طويلاً، طويلاً جدّاً للمقاومة والصراع. وقد كنت قرأت مثل ذلك في عينيّ صديقك العزيز فؤاد، ولكن يخيَّل إليّ أنَّ الجذوة التي كانت تُطلّ من

ناظريك هي أشدّ التهابًا وإشعاعًا من جذوة فؤاد، تلك التي حدَّثتني عنها مرةً في معرض الإعجاب. إنَّك إنسانٌ جديد يعرف الذي يريده، ويسعى إليه بثقة وإيمان. لا يا حبيبي، لسنا على صعيد واحد. لقد وجدتَ أنت نفسك بينما أضعت أنا نفسي. فكيف تريدني أن أستطيع السير إلى جانبك، قَدَمًا واحدة، في الطريق الشاقّ الذي ستسلك؟ إنَّني لا أنتمي إلى جيلكم، جيلك وجيل فؤاد وربيع وأحمد وصبحي وعدنان. لا، لن أذهب معك. إنَّ بوسعي الآن أن أتمثَّل نفسي إذا رافقتك. ستجرجرني خلفك. سأعيق طموحك. سأكون أنا في السفح وتكون أنت في القمة. فامضِ قُدُمًا يا حبيبي، ولا تلتفت إلى ما وراءك. أما أنا فسأستمدّ دائمًا من حبِّي لك، هذا الذي تصهره الآلام، وقودًا يشعّ عليّ، فينسيني شقاء عيشي، وزادًا أتبلَّغ به حتى أيَّامي الأخيرة. فدَعْني هنا أتابع طريقي حتى النهاية، وعُدّ أنت يا حبيبي العربيّ إلى شرقك البعيد الذي ينتظرك، ويحتاج إلى شبابك ونضالك. - جانين».

خاتمة

لا، ما أنت بالحالم، وقد آن لك أن تصدِّق عينيك. أوَما تشعر باهتزاز الباخرة، وهي تشقّ هذه الأمواج، مبتعدةً بك عن الشاطئ، متَّجهة صوب عاصمة بلادك؟

لا، ليس هو بالحالم، فهذه أطياف بيضاء تلوح في جموع المستقبلين، وتبدو لعينيه أشباحًا نائية، كأنَّما هي رسم اهتزَّت به يد المصوّر، فخرج مضطرب الخطوط، وما تلبث طويلاً حتى تتجلي معالمها. ولم يعرف أنَّ ذلك الجمع الصغير الأبيض هو جمع أهله إلاَّ حين أصبحت الباخرة على بعدٍ يسير من الشاطئ.

وتقترب منه الوجوه رويدًا رويدًا، ثم ينبثق منها فجأةً وجهٌ فتيّ، في ملامحه قسوةٌ وقلق. ويظلّ هذا الوجه الحبيب يكبر وينمو، ملامح وتقاسيم عميقةٌ معبِّرة، واثقةٌ مشرقة، ويرتفع ويسمو، حتى يحتلّ الشاطئ، وكلّ شيء من ورائه ظلّ، ثم يملأ الأفق كلّه، فلا ترى عيناه من دونه شيئًا.

وتكون يد فؤاد أوّل يد يصافحها، فيشعر أنَّه يصافح فيها عشرات من الأيدي التي يعرفها، وألوفًا من الأيدي التي لا يعرفها انتشر أصحابها هنا في بيروت، وهناك في دمشق، وهنالك في القاهرة والقدس وبغداد وتونس، وفي كل ركن من بلاد العروبة.

ويظلّ هو ينظر في عينيّ فؤاد، ويظلّ فؤاد ينظر في عينيه باسمًا منطلق الأسارير، حتى يأتيه صوت أمه ضعيفًا كأنَّما هو ينتحب:

ـ وأنا يا بنيّ، هل نسيتني؟

فاتَّجه إليها وأخذها بين ذراعيّه يقبِّلها ويقول لها:

ـ لا يا أمي الحبيبة لم أنسَك، ولا يمكن لي أن أنساكِ. ولكنِّي رأيت فؤاد قبل أن أراك.

ثم أقبل على إخوته يعانقهم. وأقبل عليه أصدقاؤه وأقاربه يهنِّئونه بالسلامة، وقدّم له أحدهم باقة من الزهور وهو يقول:

ـ رمزٌ لتهنئتنا لك بالشهادة.

وعادت إليه أمّه تنتزعه من أصحابه، كأنَّها كانت تخشى أن يفرُّوا به دونها، ثم قالت، وكأنَّما تعلِّق على عبارة صديقه:

ـ الحمد للَّه.. لقد انتهينا الآن يا بنيّ، أليس كذلك؟

وفي تلك اللحظة، طافت بمخيّلته حياته الباريسيَّة كلّها في الحيّ اللاتيني، وذكر أصدقاءه، هؤلاء الذين سيعودون عمَّا قليل إلى الوطن، فأطبق جفنيه هنيهة، ثم فتحهما، فإذا فؤاد في وجهه تبسم له عيناه الواثقتان القاسيتان.

وتناول ذراع أمّه ومضى بها. وغمره الاطمئنان حين شعر بأنَّ فؤاد إلى جانبه. وأعادت عليه أمّه السؤال:

لقد انتهينا الآن إذن يا بنيّ، أليس كذلك؟

فأجابها من غير أن ينظر إليها:

ـ بل الآن نبدأ يا أمي...

* «الحي اللاتيني» مَعْلم من معالم الرواية العربيّة الحديثة..

نجيب محفوظ (جريدة النهار)

* بعد قراءتي «الحي اللاتينيّ» يخالجني أمل أنّ الرواية العربيَّة ستنهض نهضة قويَّة على يد المؤلّف وأيدي الموهوبين والمتحمّسين مثله من أدباء الجيل الطالع.

ميخائيل نعيمة (من رسالة خاصّة)

* استطاع سهيل إدريس أن يجعل النفس الإنسانيَّة مسرحًا لصراع بين بيروت وباريس، بين الشرق والغرب: الشرق بأديانه وأخلاقه وتقاليده وصموده ورغبته في التحرُّر، والغرب بحريّته وتقدُّمه وثقافته ونزعته الاستعماريَّة أيضًا.

أحمد كمال زكي (مجلة الآداب)

* أعجبني في «الحيّ اللاتينيّ» أنّها رواية، محاولة لنوع فنيّ ما يزال طفلاً في العربيَّة. ولقد سجَّلتَ أنتَ اسمك الآن في قبضة الروّاد الذين يشقُّون الطريق، وهم بضعة نفر..

شاكر مصطفى (من رسالة خاصّة)

* إنَّ المؤلّف يبيّن خير بيان كيف أطلّ من تجربة المرأة على آفاق كثيرة في الحياة، بل كيف نقلته إلى ما قد يبدو نقيضها، نعني الفكرة القوميَّة. والحقّ أنَّ المرأة كانت له أولاً وآخراً وسيلة للكشف عن ذاته ورسالته وحياته في أمّته.. إنَّها وسيلة ولم تكن غاية، وسيلة لتفتيح نفسه وإغنائها، ولإثارة قلق مبدع ومشكلات جديدة لها صلة بقلب حياته القوميَّة.

عبد اللّه عبد الدائم (مجلة الآداب)

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب. ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

ثمن البيع للعموم
Prix de vente au public
59,00 DH درهم

شركة النشر والتوزيع المدارس
10، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء

تصميم الغلاف: رغم الجندي